أسرار عاشوراء

حوارات فكرية حول أحداث كربلاء

ومقتل الإمام الحسين عليه السلام

مهدي الموسوي الجابري

مركز الدليل العقائدي

الدليل العقائدي

مركز بحثي متخصص في الرد على شبهات المخالفين

هوية الكتاب

اسم الكتاب:	أسرار عاشوراء- حوارات فكرية حول أحداث كربلاء ومقتل الإمام الحسين عليه السلام
تأليف:	السيد مهدي الموسوي الجابري
التدقيق اللغوي :	الشيخ تحسين البلداوي
الناشر:	مركز الدليل العقائدي
الإخراج الفني:	صفاء أحمد الشمري
الطبعة:	الأولى
عدد النسخ:	١٠٠٠ نسخة
سنة الطبع:	١٤٤٦ هـ ٢٠٢٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المركز

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسلامُ الأتمّانِ الأكملانِ على سيّدِ الأوّلينَ والآخرين وأشرفِ الخلقِ أجمعين، سراج المهتدين، والمبعوث رحمة للعالمين، المصطفى محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين.. وبعد:

انطلاقًا من قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[1]، أخذ مركز الدليل العقائدي على عاتقه -التصدّي للشُّبُهاتِ التي تطال- العقيدةَ الإسلامية عمومًا، والتعريفَ بعقائدِ الشيعة الإماميّة خصوصًا، مع -التصدي للرد على- كلِّ الشبُهات التي تطال المذهبَ الشيعيَّ خاصة، هذا المذهب الشريف الذي أَسَّس بنيانَه، ووَضَع لبناتِه الأُولى النبيُّ الأقدس صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم حين قال في حديثٍ صحيح: «إني تاركٌ فيكم خليفتين: كتاب الله حبلٌ ممدود ما بين الأرض والسماء، وعترتي أهل بيتي، وإنّهما لن يتفرَّقا حتى يردا عليّ الحوض»، وما تلاه من بياناتٍ وأحاديث متضافرة تحثّ على التمسُّك والأخذ والمتابعة للثقلين "الكتاب والعترة" معًا، كهذا الحديث الصحيح: «إني تاركٌ فيكم ما إنْ تمسكتم به لن تضلّوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر:

---

(١) فصلت: ٣٣.

كتاب الله، حبلٌ ممدودٌ من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يرِدا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»، وغيرها من الأحاديث الشريفة الصحيحة الواردة في هذا الجانب، التي يكاد المنصفُ أن يقول بتواترها، بل هي متواترة فعلًا، لتضافر نقلها عند جميع الفِرَق الإسلامية - على اختلاف مشاربهم الفقهية والعقَدية.

وكل هذه الردود إنما تجري على وفق أسسٍ علمية ومنهجية سليمة، بعيدةٍ عن التعصُّب الأعمى والانغلاق المقيت، فالعلمُ هو السلاح الوحيد النافذ الذي يصح الاحتجاج به، وما عداه لا قيمةَ له، وقد نُسِب إلى سيد الموحِّدين أميرِ المؤمنين مولانا عليٍّ بن أبي طالبٍ عليه السلام قوله:

فَفُزْ بعلمٍ ولا تطلُبْ به بدلًا فالناسُ مَوتى وأهلُ العِلم أحياءُ

وعلى وفق هذه المعطَيات جاء كتاب "أسرار عاشوراء - حوارات فكرية حول أحداث كربلاء ومقتل الإمام الحسين عليه السلام" لمؤلفه السيد مهدي الموسوي الجابري.

وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله رب العالمين، وصلى اللهُ على خير خلقه أجمعين، محمدٍ وآلِه الطيبين الطاهرين.

اللجنة العلمية لمركز الدليل العقائدي
النجف الأشرف
١٤٤٦ هـ - ٢٠٢٥ م

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي جعل الحسينَ مصباحَ هدًى وسفينة نجاةٍ، ورفع ذكره في العالمين، وجعل شهادته منارًا للموحِّدين، والصلاةُ والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، أبي القاسم محمد، وعلى أهل بيته الطيِّبين الطاهرين، الذين حفظوا الدين، وصانوا رسالة الإسلام من التحريف، واللعنةُ الدائمة على أعدائهم أجمعين من الأوَّلين والآخرين إلى قيام يوم الدين.

إنَّ واقعة كربلاء لم تكنْ مجرَّد حادثةٍ تاريخيّة ترويها الكتب، ولم تكن صراعًا سياسيًّا بين فريقين متناحرين، بل كانتْ وما زالت محطةً كبرى في مسيرة الإسلام، ومعركةً فاصلة بين الحقّ المحمديّ الأصيل والباطل الأُمويّ المنحرف، ورمزًا خالدًا لرفض الطغيان والانحراف عن منهج الله سبحانه وتعالى.

لقد تعرضتْ هذه الواقعة المباركة عبر التاريخ إلى محاولاتِ تزييفٍ وتضليل، سعى أصحاب السلطة الجائرة ومؤرخو البلاط إلى تفريغها من محتواها العقَديّ، وتحويلها إلى مجرَّد صراع دنيويّ على السلطة، أو تصويرها على أنها "فتنةٌ داخلية" لا ينبغي الوقوف عندها. ومنذ ذلك الزمن حتى يومنا هذا، ما زال أهل

الباطل يمارسون تزييف الحقائق لتبرير جرائم بني أُميّة، ويُردِّد بعض الجهلة والمرجفين الشُّبُهات القديمة في ثوبٍ جديد، ليطمسوا نور كربلاء، ويمنعوا الأجيال من استلهام دروسها العظيمة.

لقد أسمَيتُ كتابي هذا "أسرار عاشوراء" لأنّ ما ورد فيه لم يُكشف عنه -في الغالب- بالنحو الذي يُبرِز عمق الحدث ودلالاته الخفيّة، فلم نسمع من خطباء المنبر الحسيني، أعزّهم الله، أنهم عرضوا قضية مقتل الإمام الحسين عليه السلام بأسلوب النقاش التوعوي الذي لا يكتفي بسرد الواقعة، بل يغوص في أسرارها المخفيّة، ويكشف الأبعاد التي حرص الطغاة على طمسها، ويدرسها لا بوصفها مجرَّد فاجعةٍ دمويّة، بل على أنها حدثٌ إلهيٌّ غيّر مجرى التاريخ، وأسقط هيبة الطغيان، وأسَّس لخطِّ الثورة الحسينية الممتدّ عبر العصور.

لقد اعتدنا على استذكار الواقعة بالدموع واللوعة، وهذا نهج عشّاق الحسين عليه السلام منذ الأزل، ولكنّ ما أطمح إليه في هذا الكتاب هو تقديم قراءةٍ مكمِّلة، تسلِّط الضوء على زوايا لم تطرح إلا نادرًا، وتكشف عن حقائق مغيَّبة قد لا يدركها إلا من تأمَّل في عمق الرسالة الحسينية، وعاش مع أحداثها بكل جوارحه.

فما وقع في عاشوراء لم يكن معركةً عاديّة بين جيشين، ولا مجرَّد تصادمٍ بين قوّتين، بل كان ملحمةً إلهيّةً تجلّت فيها سُنن التدافع بين الحقّ والباطل، وكان وراء كل قطرة دمٍ سرٌّ، ووراء كل

موقف حكمةٌ، ووراء كل صرخة رسالةٌ ممتدَّةٌ إلى يوم القيامة. ومن هنا، فإن هذا الكتاب يسعى إلى إماطة اللثام عن تلك الأسرار، واستكشاف خفايا ما جرى، ليُدرِك القارئ أنّ نهضة الحسين عليه السلام لم تكن مجرَّد واقعةٍ تاريخيّة، بل كانت مشعلًا لنورٍ لا ينطفئ، وسرًّا من أسرار استمرار الدين، وسيفًا يُجهز على كل طاغيةٍ يحاول تزييف الحقائق أو مصادرة عقول الأمة.

إنّ هذا الكتاب "أسرار عاشوراء" جاء ليكشف زيف تلك الادّعاءات ويفنِّد الشُّبُهات التي تُثار حول هذه الملحمة الإلهيّة، بأسلوب الحوار المباشر بين الإماميّ والمخالف، حيث تُعرَض الشُّبهة التي يروِّج لها خصومُ الحق، ثم تُفكَّك ويُرَد عليها بالأدلة العقلية والنقلية، من مصادر الفريقين، ليكون هذا الكتاب مرجعًا لكل من يبحث عن الحقيقة بعيدًا عن أبواق التضليل الأُمويّ وأكاذيبهم الموروثة.

هذا الكتاب جاء ليجيب عن تساؤلاتٍ طالما طُرِحت على ممرّ العصور، وما زالت، مثل:

١- ما حقيقة البكاء والحزن على الإمام الحسين عليه السلام، وهل هو مجرَّد تعبير عن العاطفة أم عبادة تُقرِّب إلى الله؟

٢- هل إنّ مصيبة الحسين عليه السلام تعدّ أعظم مصاب في الكون، وكيف ورد ذلك في النصوص الإسلاميّة؟

٣- هل إنّ الشيعة يفضِّلون زيارة الإمام الحسين عليه السلام على الحجّ؟

٤- هل كانت كربلاء مجرَّد فتنةٍ سياسيّة أو صراعٍ عقَديٍّ بين الحقّ والباطل؟

٥- هل خروج الإمام الحسين عليه السلام كان خروجًا على "وليّ الأمر" أو نهضة إلهيّة لإحياء الإسلام؟

٦- لماذا لم يَثُر الأئمة عليهم السلام بعد كربلاء بالسيف كما فعل الحسين عليه السلام؟

٧- هل كان بإمكان الحسين عليه السلام تجنُّب المواجهة والتصالح مع يزيد؟

٨- لماذا اصطحب الإمام الحسين عليه السلام نساءه وعياله إلى كربلاء؟

٩- ما حقيقةُ قتل عبد الله الرضيع عليه السلام، وهل كان الإمام الحسين عليه السلام يستجدي عطف الأعداء؟

١٠- لماذا لم يَقتل يزيد بن معاوية لعنه الله السيدة زينب عليها السلام بعد خطبتها في مجلسه؟

١١ - كيف كان أثر كربلاء على مسار التاريخ الإسلامي، وهل ساهمتْ في إسقاط بني أُميّة؟

وقد رتّبتُ هذا الكتاب على وفق نسقٍ حواريٍّ يجسِّد واقع النقاشات الفكرية بين مدرسة أهل البيت عليهم السلام ومن خالفهم. وقد قُسِّم إلى عدة فصول، يتناول كل فصل جانبًا محددًا من الشُّبُهات المطروحة حول كربلاء، ثم تُحلَّل وتُدحَض بالأدلة الدامغة، وهي كالآتي:

الفصل الأول: البكاء والحزن على الحسين عليه السلام.

يُفنِّد هذا الفصل مزاعمَ أنَّ الحزن على الإمام الحسين عليه السلام مجرَّد عاطفةٍ بشرية، وأنَّ من يبكيه الشيعةُ هو في الجنِّةِ سيدُ شبابها، ويُثبت أنَّ البكاءَ عليه شعيرةٌ لها جذورُها في القرآنِ والسنة، بل هو وسيلةٌ لصقلِ القلوبِ وتثبيتِ الولاءِ للحقّ.

الفصل الثاني: بكاء الملائكةِ على الحسين عليه السلام ونزولهم عند قبره.

وهذا الفصل يُفند الشُّبهة التي تُنكر بكاءَ الملائكةِ على الإمام الحسين عليه السلام ونزولَهم عند قبره، واعتبارَ ذلك من الخرافاتِ أو الغلوِّ في العقيدةِ الشيعية، ويُثبت أنَّ مفهومَ البكاءِ ليس محصورًا في المشاعرِ البشرية، بل هو ظاهرةٌ كونيةٌ وردت في القرآنِ الكريم.

الفصل الثالث: مصيبة الحسين عليه السلام.. أعظم مصاب في الكون.

يُثبِت هذا الفصل أنّ مقتل الإمام الحسين عليه السلام هو أعظم مصيبة وقعت على وجه الأرض، ويستعرض الأحاديث الصحيحة التي تدل على أنّ الله تعالى سينتقم لمقتله كما انتقم لأنبيائه، بل وبأضعاف ما انتقم ليحيى بن زكريا عليهما السلام.

الفصل الرابع: زيارة الإمام الحسين عليه السلام وفريضة الحج.

يتناول هذا الفصل شُبهة تفضيل الشيعة لزيارة الإمام الحسين عليه السلام على فريضة الحج، ويفنّدها من منظور عقَديّ وفقهيّ. يوضّح أنّ الحج ركنٌ واجب في الإسلام عند الشيعة، بينما الزيارة مستحبّة لا تنوب عن الفرض. ويستعرض الأدلة من الروايات والفتاوى

التي تؤكِّد أنّ هذه الشُّبهة مجرَّد محاولة لتشويه عقيدة الشيعة.

الفصل الخامس: تقبيل ضريح الإمام الحسين عليه السلام والتمسُّح به.

يتناول هذا الفصل شبهة إنكار التبرُّك بضريح الإمام الحسين عليه السلام، ويردّ عليها بالأدلّة القرآنية والروائيّة التي تثبِت مشروعيّته، ويكشف تناقض المنكرين الذين يُجيزون التبرُّك بالحجر الأسود، وينكرونه على أهل البيت عليهم السلام. ويوضّح أنّ المشكلة الحقيقية ليست في التبرُّك ذاته، بل في العداء للحسين عليه السلام ورمزيّة ثورته الخالدة.

الفصل السادس: زيارة الإمام الحسين عليه السلام بين الحقيقة والتشويه الأُمويّ.

يعالج هذا الفصل الشُّبُهات التي أثارها أعداء أهل البيت عليهم السلام حول زيارة الإمام الحسين عليه السلام، خصوصًا افتراء مقولة "زُر الحسين وافعل ما شئت"، والزعم بأنها تمنح الغفران بلا توبة. ويثبِت بالأدلة أنّ الزيارة شعيرة إلهيّة تُطهِّر النفس، وتجسد الولاء لأهل البيت عليهم السلام، وليست مبرِّرًا للذنوب، بل محطةً للتوبة والعودة إلى الله سبحانه.

ويكشف الفصل حقيقة الهجمة على الزيارة، وأنها ليست بحثًا عن الحق، بل هي استمرارٌ للمشروع الأُمويّ في طمس آثار الحسين عليه السلام.

الفصل السابع: السواد في عاشوراء.

يتناول هذا الفصل مسألة ارتداء السواد في عاشوراء، ويفنّد شبهة كونه بدعة محرَّمة، كما يزعم المخالفون الذين يسعَون بكل وسيلةٍ لطمس الشعائر الحسينيّة، ويُبيّن الحوار أنّ عدم فعل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لأمرٍ لا يعني تحريمه، وإلّا لوجب عليهم تحريم كثير من الأمور التي ابتدعوها، كصلاة التراويح وجمع القرآن في مصحفٍ واحد. كما يُسقط استدلالَهم بأحاديث كراهة السواد، التي لم تتعلّق بالحِداد على المظلومين، ويفضح تناقضهم في قبول المستحدثات متى ما وافقت أهواءهم، بينما يستميتون في محاربة كلّ ما يُحيي ذكرى الحسين عليه السلام؛ لأنّ مشكلتهم الحقيقيّة ليست مع "البِدعة"، بل مع بقاء اسم الحسين منارًا يفضح الظالمين عبر الأجيال.

الفصل الثامن: كربلاء معركة العقيدة، وليست نزاعًا سياسيًّا.

يكشف هذا الفصل عن واحدةٍ من أخطر المغالطات التي روّج لها الخطّ الأُمويّ وأتْباعه، وهي محاولة تصوير كربلاء على أنها صراعٌ سياسيٌّ أو فتنة داخلية، في محاولةٍ لطمس حقيقتها العقَدية. فتُدحَضُ هذه الفرية عبر تحليل أهداف النهضة الحسينيّة، التي لم تكن مجرَّد حركةٍ اعتراضية، بل كانت ثورةً إلهيّة لإحياء الإسلام المحمّديّ الأصيل، وفضح التحريف الأُمويّ الذي حوَّل الدين إلى ملكٍ عضوض، فكان دم الحسين عليه السلام هو السيف الذي أسقط الأقنعة وكشف زيف الطغاة.

الفصل التاسع: حقيقة طاعة ولي الأمر بين النصّ القرآني والاستغلال الأُمويّ.

يردّ هذا الفصل على شُبهة أنّ الإمام الحسين عليه السلام خرج على "ولي الأمر"، عبر تفنيد الأساس الشرعيّ لحكم يزيد، وإثبات بطلان هذا الادِّعاء بالقرآن الكريم وأحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم التي تحذِّر من الظالمين، وتحصر الإمامة في العترة الطاهرة.

الفصل العاشر: تعدّد وظائف الأئمّة عليهم السلام امتداد لثورة الحسين ونهجها الإلهيّ.

يعالج هذا الفصل شبهة أنّ سائر الأئمة عليهم السلام لم يثوروا بالسيف كما فعل الإمام الحسين عليه السلام، ويوضِّح أنّ لكل إمام تكليفه الخاص على وفق ظروف زمانه، وأنّ معركتهم ضد الظلم لم تتوقف، بل استمرت بأنحاء مختلفة كالجهاد العلمي والفكري والتربويّ.

الفصل الحادي عشر: النساء والأطفال في ركب الحسين عليه السلام شراكة في الثورة وإرث في التحدّي

يُناقش هذا الفصل شبهة أنّ خروج النساء مع الإمام عليه السلام كان تصرفًا غير حكيم، ويثبِت أنّ اصطحابهنّ كان جزءًا من التخطيط الإلهيّ لإبقاء القضية حيّة، ونقل المظلومية للعالم بخطب السيدة زينب عليها السلام.

الفصل الثاني عشر: نهج الإمام الحسين عليه السلام في مواجهة الطغيان.

هـذا الفصـل يعالـج الشُّـبهة التـي تدّعـي أنّ الإمـام الحسـين عليه السلام كان يسـعى لتجنّـب المواجهـة بـأيّ ثمـن، مسـتندًا إلـى رواياتٍ مشـبوهة حـول عرضـه ثلاثـة خيـارات علـى عمـر بـن سـعد. فيبيِّـن تهافـت هـذا الادّعـاء بتحليـل موقـف الإمـام عليه السلام الـذي كان حاسـمًا منـذ رفضـه بيعـة يزيـد، كمـا يفنّـد مصداقيـة هـذه الروايـات فـي ضـوء سـياقها التاريخـي. كمـا يوضـح أنّ ثـورة الإمـام الحسـين عليه السلام لـم تكـن مجـرَّد حركـةٍ سياسـيّة عابـرة، بـل كانـت مشـروعًا إلهيًّـا لإسـقاط شـرعية بنـي أُميّـة وكشـف اسـتبدادهم، مستشـهدًا بمواقفـه الخالـدة، وفـي مقدمتهـا صرختـه: "هيهـات منـا الذلـة".

الفصـل الثالـث عشـر: عبـد اللـه الرضيـع الـدم الطاهـر الـذي أسـقط شـرعية يزيـد.

يفنِّـد هـذا الفصـل مزاعـم أنّ الإمـام الحسـين عليه السلام كان يحـاول اسـتدرار عطـف الأعـداء عندمـا رفـع طفلـه الرضيـع، ويبيِّـن أنّ هـذا الموقـف كان إقامـة للحجـة، وكشـفًا فاضحًـا وواضحًـا لوحشـية الجيـش الأُمـويّ، وأنّ السـهم الـذي قَتـل الرضيـع لـم يكـن ضربـة عشـوائية بـل جريمـة متعمَّـدة كشـفت حقيقـة يزيـد وأتباعـه.

الفصل الرابع عشر: صمت الطاغية وصرخة العقيلة.

يركِّـز هـذا الفصـل علـى محاكمـة يزيـد فـي التاريـخ، وكيـف أنـه لـم يقتـل السـيدة زينـب عليها السلام علـى رغـم خطبتهـا التـي زلزلـت عرشـه،

مما يؤكّد أنّ الطغاة لا يعتمدون على البطش فقط، بل يديرون جرائمهم بخداعٍ سياسيّ وتخطيط خبيث.

وفي الختام أقول:

إنَّ هذا الكتاب شهادةُ حقٍّ في مواجهة التزييف، وصرخةُ ولاءٍ في وجه التضليل، وإعلانٌ بأنَّ دم الإمام الحسين عليه السلام ما زال يخطّ صفحات التاريخ، وأنَّ كربلاء ستبقى ميزان الحقّ الذي يفضح الطغاة إلى يوم القيامة.

هذا، وأسأل الله سبحانه أنْ يمدّني بوافر لطفه، وعظيم عطفه، ومزيد توفيقه، وأنْ يشملني بمدد عونه، والحمد لله أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا، وصلى الله على خير خلقه أجمعين، محمدٍ وآله الطيبين الطاهرين.

المؤلف

الفَصْلُ ٱلأَوَّلُ

البكاء والحزن على الحسين عليه السلام

البكاءُ والحزن على الإمام الحسين عليه السلام

إنّ قضيّة الإمام الحسين عليه السلام ليست مجرَّد مأساةٍ تاريخيّة، بل هي صرخةُ حقٍّ بوجه الباطل، وملحمة خالدة في سجل الإنسانيّة، يحييها الأحرار في كلّ عصرٍ؛ لأنها لم تكن مجرَّد حادثة قتْلٍ، بل كانت معركةً بين الإسلام الأصيل والانحراف الأُمويّ الذي حاول طمس معالم الدِّين.

ومن هذا المنطلق، لا عجب أنْ يحاول بعضهم تهميش هذه القضيّة والتقليل من قيمتها عبر طرح إشكالاتٍ ظاهرُها الاستفهام وباطنها التشكيك والسعي لإطفاء نور الحسين عليه السلام الذي لا يزال يهدِّم عروش الظالمين.

ومن بين هذه الإشكالات: لماذا البكاء على الإمام الحسين عليه السلام وهو سيِّد شباب أهل الجَنّة؟ أليس مقامه في الجَنّة مضمونًا؟ وهل يتناسب الحزن عليه مع الصبر والاحتساب الذي يدعو إليه الإسلام؟ ولماذا لم يُقِم النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم مآتم سنويّة على شهداء الإسلام كما يفعل الشيعة اليوم؟ ولماذا لم يفعل الصحابة ذلك من بعده؟ ثم لماذا يصرُّ الشيعة على إقامة المآتم واللطم على رغم ورود حديثِ النّهي عن ضرب الخدود وشقِّ الجيوب؟

كلّ هذه الإشكالات تبدو في ظاهرها عقلانيّة، لكنها تنهار أمام

الحقائـق القرآنيّـة والحديثيّـة والتاريخيّـة، التـي تُثبِـت أنّ الحسـين عليه السلام هـو «الحـقّ الـذي لا يُتـرَك»، وأنّ البـكاء عليـه ليـس مجـرَّد اسـتجابةٍ عاطفيّـة، بـل هـو موقـف رسـاليّ يمتـدُّ بامتـداد الإسـلام المحمـديّ الأصيـل.

وفـي هـذا النقـاش سـنبيِّن كيـف أنّ هـذه الإشـكالات ليسـت سـوى محـاولاتٍ يائسـة لطمـس نـور كربـلاء، وسنكشـف زيـف التأويـلات التـي تريـد أنْ تسـلب الأمّـة حقَّهـا فـي إحيـاء ذكـرى الحسـين عليه السلام، كمـا أراد لهـا رسـول اللـه صلى الله عليه وآله وسلم.

موارد النقاش الرئيسة:

١ – لماذا البكاء على الحسين عليه السلام وهو سيِّد شباب أهل الجنّة؟

٢ – هل إقامة المآتم واللطم تتعارض مع الصبر والاحتساب؟

٣ – لماذا لم يُقِم النبي صلى الله عليه وآله وسلم مآتم سنويّة على شهداء الإسلام؟

٤ – هـل يتعـارض العـزاء الحسـينيّ مـع حديـث «ليـس منّـا مَـن ضـرب الخـدود وشـقَّ الجيـوب»؟

٥ – لماذا لم يُقِم الصحابة مجالس عزاء على الحسين عليه السلام؟

انطلاقة الحوار

المخالف: الحسين رضي الله عنه سيِّد شباب أهل الجَنّة، وقد ضمِن الله له الجَنّة ومكانة عظيمة فيها. فلماذا البكاء عليه؟ أ لا يعدُّ ذلك تصرُّفًا بلا فائدة، طالما أنّ مصيره معلوم، وهو في مقام الكرامة الإلهيّة؟

الإمامي: عجيبٌ أمركم! تحاولون منع البكاء على الحسين عليه السلام بحجَّة أنَّ مقامه في الجَنّة مضمون، وكأنكم لم تسمعوا ببكاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم نفسه على الشهداء، وهو الذي يعلم يقينًا بمقامهم العظيم في الجَنّة! أ فتريدون أنْ تكونوا أكثر «ورعًا» من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ أم أنكم لا تجدون حرجًا في بكاء النبي على شهداء الإسلام، لكنكم تستكثرون البكاء على الحسين، سيِّد شباب أهل الجَنّة؟

واعلم أنَّ البكاء على الميت هو حالة طبيعيّة من حالات الطبع البشريّ، فالإنسان مجبولٌ على الاستجابة لغرائزه وعواطفه، ومنها البكاء، فالبكاء يخفِّف من لوعة المصاب، ويطفئ غائلة الخطْب، وقد دلّ الدليل الشرعيّ على مشروعيَّته ومشروعيَّة الحزن من الكتاب والسُّنّة، يقول تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾[1]. قال الطبريّ في تفسيره: «وقوله: ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾، يقول: حتى تكون

(١) يوسف: ٨٥.

دنِف الـجسم، مخبـول العقـل، وأصـل الـحرض: الفسـاد فـي الـجسم والعقـل مـن الـحزن أو العشـق»[١].

وجـاء عـن الزمخشـريّ فـي «الكشّـاف» أنَّ رسـول اللـه ﷺ سـأل جبرائيـل: «مـا بلـغ مـن وجْـد يعقـوب علـى يوسـف؟ قـال: وجْـد سـبعين ثكلـى. قـال: فمـا كان لـه مـن الأجـر؟ قـال: أجـر مائة شـهيد، ومـا سـاء ظنـه باللـه سـاعة قـط».

وعلّـق علـى الحديـث قائـلًا: «فـإنْ قلـت: كيـف جـاز لنبـي اللـه أنْ يبلـغ بـه الجـزع ذلـك المبلـغ؟، قلـت: إنّ الإنسـان مجبـولٌ علـى أنْ لا يملـك نفسـه عنـد الشـدائد مـن الحـزن؛ ولذلـك حُمِـد صبـرُه، وأنْ يضبـط نفسـه حتّـى لا يخـرج إلـى مـا لا يَحسُـن، ولقـد بكـى رسـول اللـه علـى ولـده إبراهيـم، وقـال: القلـب يجـزع، والعيـن تدمـع، ولا نقـول مـا يُسـخِط الـربّ، وإنّـا عليـك يـا إبراهيـم لمحزونـون»[٢].

وأدعـوك لإنعـام النظـر والتأمّـل فـي قولـه تعالـى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[٣]، ولا شـك أنـك تؤمـن بـأنّ هـذه الآيـة، بـل والقـرآن الكريـم بأسـره، هـو ممـا أُوحـي بـه إلـى النبـي ﷺ، فـإذا نظرنـا فـي سـيرة النبـي ﷺ، نجـد أنّ البـكاء لـم يكـن مجـرّد اسـتجابةٍ عاطفيّـة طبيعيّـة لمشـاعر الحـزن، بـل كان أيضًـا تعبيـرًا صادقًـا عـن ألـم الفقْـد، حتـى مـع يقينـه ﷺ

(١) جامع البيان، ج١٦، ص٢٢١.
(٢) تفسير الزمخشري، ج٢، ص٤٩٧-٤٩٨.
(٣) آل عمران:١٦٩.

بمكانة المتوفَّى في الجَنّة، فقد ورد عنه ﷺ أنه أخبر عن مكانة بعض صحابته من الشهداء في الجَنّة، ومع ذلك لم يمتنع عن البكاء عليهم، بل عبّر عن حزنه وألمه تجاه فقْدهم.

فمثلًا، بكى النبي ﷺ على الشهداء في غزوة مؤتة، كما روى البخاري: «صعد رسول الله ﷺ المنبر، وذكر واقعة مؤتة، وقال: لقد أخذ الراية زيد بن حارثة، وأُصيب، ثم أخذ الراية جعفر بن أبي طالب، وأُصيب، ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة، وأُصيب، ثم بكى رسول الله، ودموعُه تذرف على خدَّيه»[(١)].

كما بكى النبي ﷺ على ابن عمِّه جعفر بن أبي طالب، وأمر بالبكاء عليه قائلًا: «على مثل جعفر فلْتبكِ البواكي»[(٢)]. ومع ذلك، كان يعلم أنّ جعفرًا يطير في الجَنّة مع الملائكة بجناحين، فقد ثبت عنه ﷺ: «رأيت جعفر بن أبي طالب يطير في الجَنّة مع الملائكة بجناحين»[(٣)].

ولم يكن الأمر مقصورًا على جعفر، فقد بكى النبي ﷺ على عمّه حمزة يوم استشهاده في أُحُد، وأمر بالبكاء عليه قائلًا: «لكنَّ حمزة لا بواكي له»[(٤)]. وهذا مع علمه بأنَّ حمزة سيِّد الشهداء في الجَنّة، كما قال ﷺ: «سيِّد الشهداء عند الله تعالى يوم القيامة حمزة»[(٥)].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، ١٤٠٧.
(٢) تاريخ الطبري، ج٣، ص٣٩، الاستيعاب، ج١، ص٢٤٣.
(٣) مختصر صحيح الإمام البخاري، للألباني، ج٢، ص٥٠٦.
(٤) مسند أحمد، ج٢، ص٤٠.
(٥) المستدرك على الصحيحين، ج٣، ص٢١٩.

فمشكلتك الحقيقيّة ليست في البكاء، بل في أنَّ الحسين عليه السلام يذكِّر العالم كلّ يوم بأنَّ هناك خطًّا فاصلًا بين الحقّ والباطل، وأنّ مَن لا يقف مع الحسين، فإنه واقعٌ لا محالة في معسكر يزيد، وإنِ ادّعى الحياد!

المخالف: ولكنَّ ما ذكرتَه من أحاديث يتعارض مع الحديث الذي ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم: «الميت يعذَّب ببكاء أهله عليه». وهذا الحديث صحيحٌ، فقد ورد في صحيح البخاري.. لذا أعود لأسأل: كيف تبرِّرون بكاء الشيعة على الإمام الحسين (رضي الله عنه) في ضوء هذا الحديث؟!

الإماميّ: تشير إلى أنَّ الحديث ورد في صحيح البخاري، وكأنّ البخاري حجّة علينا! البخاري وغيره من كتبكم حجَجٌ عليكم، وليس علينا.. ثم ما هو التعارض الذي تتحدَّث عنه؟! فالحديث الذي ذكرته نفسه يتضمَّن إنكار السيِّدة عائشة لفكرة أنَّ الميت يعذَّب ببكاء أهله، لكنك اكتفيت بانتقاء الجزء الذي يتماشى مع مذهبك وأهوائك، في محاولةٍ لتضليل القُرّاء.

ودونك ما رواه الشيخان -البخاري ومسلم- في صحيحيهما: «فقال ابن عباس: فلما مات عمر ذكرتُ ذلك لعائشة، فقالت: يرحم الله عمر، لا والله ما حدث رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنَّ الله يعذِّب المؤمن ببكاء أحد»، ولكن قال: «إنّ الله يزيد الكافر عذابًا ببكاء أهله عليه»، قال: وقالت عائشة: حسبكم

القرآن: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[(١)]، قال: وقال ابن عباس عند ذلك: والله ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾[(٢)]. قال ابن أبي مُليكة: فوَالله ما قال ابن عمر من شيء»[(٣)].

فعائشة تُقسم بالله أنّ رسول الله ﷺ لم يصرِّح بأنّ الميت يعذَّب ببكاء أهله عليه على وجه الإطلاق، وإنما بيَّن أنَّ الميت الكافر يعذِّبه الله ببكاء أهله عليه، وقد أكَّد هذا الأمر كذلك ابن عباس، ناقلاً ذلك عن ابن مليكة.. فهل يوجد بيانٌ أوضح من هذه الحقيقة؟!

وهناك ما يُبرهن على ما ورد في رواية البخاريّ ومسلم، فقد روى التِّرمذي في سُننه، قال: «حدثنا قتيبة عن مالك، قال: وحدثنا إسحق بن موسى، حدثنا معن، حدثنا مالك عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن عمرة أنها أخبرتْه أنها سمعتْ عائشة، وذُكر لها أنَّ ابن عمر يقول: إنَّ الميت ليعذَّب ببكاء الحيّ عليه، فقالت عائشة: غفر الله لأبي عبد الرحمن، أما إنه لم يكذِب، ولكنه نسي أو أخطأ، إنما مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على يهوديّة يُبكَى عليها، فقال: إنهم ليبكون عليها، وإنها لتعذَّب في قبرها. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح». قال الألباني: صحيح[(٤)].

(١) الأنعام: ١٦٤.
(٢) النجم: ٤٣.
(٣) صحيح البخاري، ج٢، ص٧٩، ح١٢٨٦، وصحيح مسلم، ج٢، ص٦٤٢، ح٩٢٩.
(٤) صحيح وضعيف سنن الترمذي، ج٣، ص٦، ح١٠٠٦.

المخالف: أوافقك على ذلك، ولكنْ أين الدليل على مشروعيّة البكاء على الإمام الحسين رضي الله عنه بعد مقتله؟!

الإماميّ: إذا كنتَ تقرّ بأنّ البكاء مشروع في الإسلام، فلا عذر لك في إنكار بكاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الإمام الحسين عليه السلام، فأنت بين خيارين لا ثالث لهما: إما أنْ تقبل بالسُّنّة الصحيحة الثابتة، وإما أنْ تكابر، وتجحد ما صحّ عندك من الأحاديث.

فاسمع جيدًا؛ لأن حججك الواهية لن تصمد أمام هذا الدليل القاطع:

إنّ مَن استبانت له السُّنّة، لا يجوز له أنْ يدعها لقول أَحدٍ، والبكاء على الإمام الحسين عليه السلام هو سُنّة ثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والشيعة يقتدون بهذه السُّنّة المباركة، فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديثٍ صحيح رواه كبار علماء أهل السُّنّة كابن حجر في تهذيب التهذيب(١)، والمزي في تهذيب الكمال(٢)، والطبراني في المعجم الكبير(٣)، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق(٤)، والسيوطي في الخصائص الكبرى(٥)، وغيرهم، واللفظ للطبراني: «حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثني عباد بن زياد الأسدي، نا عمرو بن ثابت عن الأعمش عن أبي وايل شقيق

---

(١) تهذيب التهذيب، ج٢، ص٣٠١.
(٢) تهذيب الكمال، ج٦، ص٤٠٩.
(٣) المعجم الكبير، ج٣، ص١٠٨.
(٤) تاريخ دمشق، ج١٤، ص١٩٣.
(٥) الخصائص الكبرى، ص١٢٥.

ابن سلمة عن أم سلمة، قالت: كان الحسن والحسين رضي الله عنهما يلعبان بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم في بيتي، فنزل جبريل عليه السلام فقال: يا محمد، إنّ أُمّتك تقتل ابنك هذا من بعدك، فأومأ بيده إلى الحسين، فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وضمّه إلى صدره، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وديعة عندك هذه التربة، فشمّها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: ريح كرب وبلاء. قالت: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أمّ سلمة إذا تحوّلت هذه التربة دمًا فاعلمي أنّ ابني قد قُتل، قال: فجعلتْها أم سلمة في قارورة. ثم جعلت تنظر إليها كلّ يوم، وتقول: إنّ يومًا تحوّلين دمًا ليوم عظيم»(١).

فهذا الحديث يبيّن تأثُّر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحزنه وبكاءه على ولده الحسين عليه السلام، على رغم علمه بأنه سيّد شباب أهل الجَنّة، كما ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجَنّة»(٢). ونقل المنّاوي عن السيوطي قوله: «إنّ هذا الحديث متواتر»(٣).

فقل لي: هل كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجهل الصبر حتى بكى على ولده الحسين عليه السلام؟ أو أنك تفهم الدين أكثر من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ؟!

بل حتى علماؤكم الكبار أقرّوا بمشروعيّة الحزن على الإمام

---

(١) المعجم الكبير، ج٣، ص١٠٨.

(٢) مسند أحمد، ج٣، ص٣، ٦٢، ٦٤، ٨٢؛ سنن الترمذي، ج٥، ص٦٥٦ رقم ٣٧٦٨؛ مستدرك الحاكم، ج٣، ص١٦٧؛ الإصابة، ج٢، ص١٢.

(٣) فيض القدير، ج٣، ص٤١٥.

الحسين عليه السلام، فقد قال ابن كثير في "البداية والنهاية": «فكلّ مسلم ينبغي له أنْ يُحزِنه قتله رضي الله عنه، فإنه من سادات المسلمين، وعلماء الصحابة وابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم التي هي أفضل بناته»(١).

فإذا كان علماؤكم يقرّون بالحزن على الحسين عليه السلام، فكيف لك أنْ تعترض على ما فعله النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأوصى به؟

فنحن نحزن، ونبكي على الحسين عليه السلام كما حزن، وبكى عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يعلم أنّه سيِّد شباب أهل الجَنّة، وكما حزن، وبكى على عمِّه حمزة، وهو يعلم بأنّه سيِّد الشهداء عند الله يوم القيامة، وهو في الجَنّة، وعلى ابن عمه جعفر بن أبي طالب، وهو يعلم - أيضًا - أنّه في الجَنّة يطير بجناحين.

فبكاء الشيعة على الحسين عليه السلام إنما هو مما استبان لهم من سُنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، كما قال الإمام الشافعي: «أجمَعَ العلماء على أنّ من استبانت له سُنة رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- لم يكن له أنْ يدَعها لقول أَحدٍ»(٢).

كما أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد حزن، وبكى على شهداء آخرين، كعمِّه حمزة وابن عمه جعفر الطيار، مع علمه بمكانتهم في الجَنّة، وهذا يدلّ على أنّ الحزن والبكاء على الشهداء سُنة نبويّة ثابتة، كما أنها رحمة إلهيّة، فقد روي عن أُسامة بن زيد أنه قال: «إنّ ابنةً لرسول

(١) البداية والنهاية، ج٨، ص٢٢١.
(٢) أعلام الموقعين عن رب العالمين، ج٢، ص١١.

الله ﷺ أرسلت إليه -وأنا معه وسعد، وأحسب أُبيًّا- أنّ ابني أو ابنتي قد حُضر، فأشهدنا، فأرسل يقرئ السلام، فقال: «قل لله ما أَخذ وما أعطى، وكلّ شيء عنده إلى أجل» فأرسلتْ تُقسم عليه، فأتاها، فوُضع الصبيّ في حِجر رسول الله، ونفسه تقعقع، ففاضت عينا رسول الله ﷺ فقال له سعد: ما هذا [يا رسول الله]؟ قال: "إنّها رحمة، وضعها الله في قلوب مَنْ يشاء، وإنّما يرحم الله مِن عباده الرُّحماء"»(١).

وخلاصة القول: إنّ بكاء النبي ﷺ على الإمام الحسين عليه السلام ثابت في كتبكم قبل كتبنا، ومنكِرُه لا ينكِر فقط شعيرة حسينيّة، بل ينكِر سُنة نبويّة صحيحة.. وإذا كنتَ ترى في إحياء ذكرى الحسين عليه السلام مشكلة، فمشكلتك ليست مع الشيعة، بل مع رسول الله ﷺ، الذي بكى عليه قبل أنْ تبكيه الأمّة، وأوصى بحبِّه وموالاته، فكأنك تريد أنْ تكون «أفقه» من النبي نفسه، وهذا هو الجهل بعينه!

المخالف: الإسلام يدعو إلى الصبر والاحتساب عند المصائب، كما قال النبي ﷺ: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى». فكيف يُبرِّر الشيعةُ الاستمرار في البكاء والحزن على الحسين رضي الله عنه؟

الإمامي: قبل أنْ تتسرَّع في إسقاط فهْمك القاصر على معاني الصبر في الإسلام، عليك أنْ تدرك أنَّ الصبر في المفهوم القرآنيّ والنبوي لا يعني إخماد العواطف أو تجاهل الفواجع، بل هو

(١) سنن أبي داود، ج٢، ص٦٤، برقم ٣١٢٥؛ مسند أبي داود الطيالسي، ص٢٣٥.

التماسك مع استمرار الموقف الحقّ، وهو ما فعله أهل البيت عليهم السلام وأتْباعهم في تعاملهم مع فاجعة الطفّ.

أما حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي تستدلّ به، فهو يتحدَّث عن الصدمة الأولى التي يُفترض فيها ألا ينهار الإنسان جزعًا وسخطًا، وليس أنه يمنع الحزن واستمراره على مظلومٍ قُتل غدرًا، وإلّا فهل ستجرؤ على توجيه اعتراضك هذا إلى النبي نفسه، وقد بكى على الحسين عليه السلام قبل مقتله؟ ألم يُروَ في مصادر السُّنّة أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم بكى حين جاءه جبريل بخبر مقتل الحسين عليه السلام وأراه تربة كربلاء؟ أم أنك ستتجاهل ما جاء في «مسند أحمد» و«مستدرك الحاكم» و«سنن الترمذي» وغيرها من المصادر التي ذكرت أنّ النبي بكى على الحسين عليه السلام؟

إنَّ البكاء على الحسين عليه السلام ليس بكاءً مجرَّدًا عن الهدف، بل هو ثورةٌ دائمة ضدّ الظلم، ورفضٌ للطغيان، وإحياءٌ لِقِيَم الإسلام التي أراد الأُمويّون طمسها. إذا كنتَ ترى الصبر في سياق السكوت على الجريمة، فهذه مشكلتك، أما نحن فنتأسَّى بالنبي وأهل بيته الذين بكوا على الحسين، ونجعل من هذه الشعيرة سلاحًا في وجه الظالمين. فالصبر الحقُّ ليس في كتْم المشاعر، بل في الصمود مع الحقِّ، والبكاءُ على الحسين عليه السلام جزءٌ من هذا الموقف الرساليّ.

المخالف: صحيح أنّ النبي صلى الله عليه وسلم بكى عند إخبار جبريل له بمقتل الحسين رضي الله عنه، ولكنّ هذا لا يعني أنه أقام سنويًّا مآتم

وعـزاءً وبـكاءً مسـتمرًّا، ففـرْقٌ بيـن البـكاء العاطفـيّ اللحظي وبيـن تحويلـه إلـى طقـسٍ سـنوي.

الإمامي: دعنـي أضعـك أمـام معضلتـك الحقيقيّـة: أ تريـد أنْ تحتجَّ بعمـل النبـي صلى الله عليه وآله وسلم علـى منـع إحيـاء ذكـرى الحسـين عليه السلام، فـي حيـن أنـك تتجاهـل بوضـوحٍ أنّ البـكاء نفسـه قـد صـدر منـه علـى الحسـين عليه السلام قبـل مقتلـه؟ إنْ كان بـكاء النبـي صلى الله عليه وآله وسلم علـى الحسـين لا يكفيـك حجّـةً، فلمـاذا تسـتكثر علينـا أنْ نجعـل مـن هـذه الدمعـة مدرسـةً، ومـن هـذا الحـزن ثـورةً مسـتمرّة؟

ثـم دعنـا نفضـح مغالطتـك: هـل كان النبـي صلى الله عليه وآله وسلم بحاجـة إلـى إقامـة مآتـم سـنويّة، وهـو الـذي كان يبلّـغ الوحـي، ويؤسِّـس للأمـة، ويهيِّـئ أهـل بيتـه وأصحابـه لمـا سـيجري بعـده؟ لكننـا، نحـن مَـن جئنـا بعـد الواقعـة، نحـن الذيـن ورِثنـا هـذا الديـن، نحـن المكلّفـون بإحيـاء أمـر أهـل البيـت عليهم السلام ونقـل مظلوميّتهـم، واجبُنـا أنْ نحفـظ هـذه الفاجعـة مـن النسـيان، وأنْ نجعلهـا صرخـةً مدويّـةً فـي وجـه الطغـاة فـي كل عصـر.

أمـا محاولتـك السـاذجة فـي تصويـر البـكاء علـى الحسـين عليه السلام وكأنـه مجـرَّد عاطفـة مؤقَّتـة، فتـدل علـى أنـك لـم تفهـم كربـلاء أصـلًا. نحـن لا نبكـي لأننـا ضعفـاء، بـل نبكـي لأننـا نرفـض الظلـم؛ لأن الحسـين عليه السلام لـم يُقتَـل وحـده، بـل قُتِلـت معـه القِيَـم الإلهيّـة فـي عقـول المنحرفيـن الذيـن أرادوا طمـس رسـالته. بكاؤنـا ليـس نحيـبَ العاجزيـن، بـل زئيـر الثائريـن، وليـس شـعيرةً فارغـة، بـل سـلاح يشـحذ الضمائـر، وهـو امتـدادٌ لموقـف زينـب الكبـرى عليها السلام التـي لـم تتـرك

المجلس الأُمويّ يهنأ في ظلمه، بل هزّت عرشه بخطابها.

فإنْ كنتَ ترى أنّ الإسلام لا يُريد منا أنْ نُحيي ذكرى الحسين عليه السلام بهذه الطريقة، فأتحدّاك أنْ تُثبت ذلك من القرآن والسُّنّة الصحيحة، وإلّا فاعترِفْ أنك تتَّبِع هواك لا الدين، وأنّ مشكلتك ليست في إقامة العزاء، بل في صوت الحسين عليه السلام الذي لا يزال يهدِّم عروش الظالمين، ويقضّ مضاجع مَن يريد للأمة أنْ تعيش الذلّ تحت رايةِ يزيديِّي كل عصر.

المخالف: الإسلام علّمنا أنّ المصائب الدنيويّة يجب أنْ تُواجَه بالصبر لا بجعلها محور الدين، فالنبي صلى الله عليه وسلم فقد أبناءه وأحبابه، ولم يُقِم لهم مآتم سنويّة، فلماذا يُعامَل الحسين رضي الله عنه بهذه الخصوصية؟

الإماميّ: قبل أنْ تقفز إلى استنتاجاتك الواهية، عليك أنْ تفهم أنّ قضيّة الحسين عليه السلام ليست مجرَّد «مصيبة دنيويّة» كفقدان الأبناء والأحباب، بل هي مفصلٌ تاريخيّ في صراع الحق مع الباطل، وإلّا فقل لي: أيّ فقدان من فقدانات النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان قتلًا وحشيًّا بتلك الطريقة البشعة التي ارتكبها طغاة بني أُميّة بحقِّ سبطه وريحانته؟ أيّ مصيبة أخرى استهدفت جوهر الإسلام نفسه كما استهدفتها كربلاء؟ هل قتلوا أبناء النبي صلى الله عليه وآله وسلم عطشًا تحت الشمس، ثم رضّوا أجسادهم بالخيل، ثم حمَلوا رؤوسهم على الرماح، ثم سبَوا نساءهم كسبايا الحروب؟

إنك تخلط بين الفقْد الطبيعيّ وبين الجريمة التاريخيّة التي لا تُغتفَر، فالحسين عليه السلام لم يمت ميتةً عاديّةً لنقول: «نصبر، ونمضي»، بل استشهد دفاعًا عن الإسلام بعدما حوّله الطغاة إلى مُلكٍ عضوض، وهذا الفرق الذي تتعامى عنه هو ما يجعل من قضيّته محورًا للأمة؛ لأنه لم يكن رجلًا مات فحسب، بل كان إمامًا قُتِل ليُطفأ نور الله، فأبى الله إلا أنْ يُحيي أمره على رغم أنوف الظالمين.

أما حجتك بأنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يُقِم مآتم سنويّة على أحبابه، فهي تدل على أنك لم تفهم أثره، فالنبي كان في قلب الأحداث، ولم يكن في موقع الحزن فحسب، بل في موقع المواجهة والتأسيس. ولو عاش بعد كربلاء، لكان أول من أقام مأتمًا للحسين عليه السلام، وهل تجهل أنه بكى عليه قبل مقتله بعشرات السنين؟ وهل فاتك أنّ أهل بيته، من زينب عليها السلام إلى الأئمة من ذريَّته، لم يتوقَّفوا عن إحياء هذه الفاجعة، على رغم القمع والاضطهاد؟

الحسين عليه السلام ليس مجرَّد فقيدٍ نبكيه، بل هو خطّ الدفاع الأخير عن الدين، وهو الثائر الذي بقيتْ ثورته مستمرّة، فمن أراد دفن ذكراه، فهو إما جاهلٌ بمقامه أو متواطئٌ مع الظالمين، وأنت أيها المتهرِّب من الحقيقة، في أيِّ الفريقين تضع نفسك؟

المخالف: لو كان إقامة العزاء بهذه الطريقة أمرًا مشروعًا، لسبق إليه الصحابة وأهل البيت رضي الله عنهم، في حياتهم، فلماذا لم يُنقَل عنهم إقامة هذه الشعائر بهذا النحو السنويّ؟

الإمامي: دعني أضعك أمام تناقضك المكشوف: أ تريد أنْ تقيس مشروعيّة العزاء الحسينيّ على ما فعله الصحابة وأهل البيت عليهم السلام في حياتهم، في حين أنّ الواقع يُثبت أنّ أهل البيت أنفسهم هم من أسَّسوا لهذا العزاء، وكرّسوا إحياء ذكرى كربلاء على رغم بطش الطغاة؟ أم إنك تعتقد أنّ زينب الكبرى عليها السلام وقفت في مجلس ابن زياد ويزيد تبكي، وتتحدى عبثًا؟ هل نسيت بكاء الإمام زين العابدين عليه السلام طيلة حياته على مأساة كربلاء، حتى قالوا عنه: إنه لم يُقدَّم له ماء إلا وامتزج بدموعه؟ هل تجاهلت أنَّ الأئمة عليهم السلام كانوا يأمرون شيعتهم بإقامة المجالس، وكانوا يحثّون الشعراء على تأليف المراثي في الحسين عليه السلام ويثيبونهم عليها؟ أ ليس هذا عين الإحياء السنويّ الذي تحاول إنكاره؟

أما إنْ كنتَ تبحث عن أثرٍ من الصحابة، فخذْها صريحةً: كثيرٌ منهم لم يكونوا أصلًا في موقعٍ يسمح لهم بذلك؛ لأن القمع الأُمويّ كان شديدًا حتى منعوا من ذِكر اسم الحسين عليه السلام، فكيف بالمآتم والمجالس؟ وإذا كنتَ تستدلّ بعدم انتشار المجالس آنذاك، فهل ستقول: إنّ الإسلام لم يأمر بكتابة الحديث؛ لأنه لم يُكتَب علنًا في زمن الخلفاء الذين حرّموه؟ أو ستكفّ عن الانتقائيّة، وتفهم أنّ الظروف الظالمة لا تعني انتفاء المشروعيّة؟

إنّ إحياء ذكرى الحسين عليه السلام ليس بدعةً، بل هو الامتداد الطبيعيّ لموقف أهل البيت عليهم السلام في مواجهة الظلم، ومَن أراد طمس هذه الذكرى فهو إمّا جاهلٌ أو موالٍ ليزيد وإنِ ادّعى غير

ذلك. فقل لي بصدقٍ، هل اعتراضك هذا نابعٌ عن بحثٍ علميّ، أو إنه رجْع صدى لخوفِ الطغاة من صوت الحسين عليه السلام الذي لا يزال يزعج كلَّ سلطان جائر حتى يومنا هذا؟

المخالف: البكاء المتواصل لا ينسجم مع مفهوم الصبر كما جاء في تعاليم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بل الصبر هو أنْ تُسلِّم بقضاء الله، وتدعو للميت بالرحمة، لا أنْ تجعل من مصيبته دافعًا للحزن الدائم.

الإماميّ: دعْ عنك هذه الشعارات الفارغة التي لا تقف أمام ميزان الحقِّ، فمَن قال لك: إنّ الصبر يعني خنق العواطف وإخماد مشاعر الغضب على الظلم؟ وهل تظنّ أنّ الصبر الذي أمرنا به النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو الاستسلام للجرائم الكبرى والتعامل مع المجازر، وكأنها حوادث عابرة؟ إنْ كنت تظن أنّ الحزن على الحسين عليه السلام يتعارض مع الصبر، فأنت لم تفهم معنى الصبر في الإسلام، ولم تفقهِ الفرق بين الرضا بقضاء الله وبين رفض الظلم الذي جرى على أوليائه.

الحسين عليه السلام لم يكن رجلًا مات فحسب حتى تكتفي بالدِّعاء له بالرحمة، بل كان شهيدًا قُتِل ظلمًا وعدوانًا، ومأساتُه ليست مجرَّد فقدانِ شخصٍ، بل هي جريمةٌ طالت الإسلام كلَّه. فهل تتوقَّع منا أنْ نقف أمام هذه المأساة موقف المتفرِّج الصامت بحجّة الصبر؟ وهل تريدنا أنْ نُعامل قتْله كما نُعامل موت رجلٍ مات على فراشه؟ إذا كان هذا هو فهْمك للصبر، فإما أنك تجهل حقيقة المصيبة، أو أنك تريد دفْن صوتها لصالح من تلطَّخت

أيديهم بدماء الحسين عليه السلام.

ثم إنك تتجاهل أنّ البكاء على الحسين عليه السلام ليس مجرَّد حزنٍ سلبي، بل هو امتداد للثورة ضدَّ الظلم، ورفضٌ للانحراف، وتأكيدٌ على أنّ جريمة الطفِّ لن تُمحَى من ذاكرة الأمة. وإنْ كنت تزعم أنّ الإسلام يمنع الحزن المستمرّ، فقل لي: لماذا بكى النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الحسين قبل مقتله؟ ولماذا كان يبكي على حمزة عليه السلام ويحثُّ الناس على البكاء عليه؟ أم إنك لا تقرأ في كتب السُّنّة التي تذكر أنّ النبي بكى على شهداء أُحُدٍ، وأرسل النساء للبكاء عليهم؟ أم إنك فقط تستيقظ لمفهوم «الصبر» عندما يكون الحديث عن الحسين عليه السلام وتخرس عنه في باقي المواضع؟

إنّ مشكلتك الحقيقيّة ليستْ في البكاء، بل في أنّ الحسين عليه السلام لا يزال يفضح الطغاة، ولا يزال دمه يقضُّ مضاجع الظالمين في كل عصرٍ. فمَن كان ولاؤه للحسين عليه السلام فهِم أنّ دمعته سلاحٌ ضدَّ الباطل، ومَن كان ولاؤه ليزيد وأمثاله، فلا عجبَ أنْ يحاول تكميم هذه الدمعة بحجّة «الصبر»!

المخالف: حديث النبي صلى الله عليه المشهور: «ليس منّا من ضرب الخدود، وشقَّ الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»، مما يدلُّ على أنَّ الحزن المشروع في الإسلام هو الصبر والاحتساب، وليس إقامةَ المآتم والنياحة واللطم.

الإماميّ: هذا استدلالٌ للنصوص بانتقائيّة مفضوحة، فقبْل أنْ

تحاول لَيَّ أعناق الأحاديث لتبرير تهرُّبك من مظلوميّة الحسين عليه السلام، عليك أنْ تفهَم سياق الحديث ومعناه الحقيقي، لا أنْ تلوكه بجهلٍ وتحريف. هل كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يقصد بهذا الحديث منع الحزن على المظلومين، أو كان ينهى عن السلوك الجاهليّ القائم على الجزع المطلق والاعتراض على قضاء الله؟ وهل تظنّ أنّ اللطم والبكاء على الحسين عليه السلام هو من باب الدعوة الجاهليّة، بينما هو في حقيقته صرخةُ حقٍّ ضد الظلم؟ إنْ كنت ترى أنّ البكاء على الشهيد العظيم هو جاهلية، فماذا تقول عن بكاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم نفسِه على الحسين قبل مقتله؟ أو إنك تريد أنْ تُعلّم النبي دينه؟

ثم أخبِرْني، لماذا تتجاهل عشرات الأحاديث التي تحثُّ على البكاء على الحسين عليه السلام؟ لماذا تتغافل عن الروايات التي تذكر أنّ النبي بكى عليه، وأخبر أمّته بمصابه، فهل تريد إطفاء هذه الحرارة بانتقائيّة مريضة، أو إنك تخشى من أنّ بكاء الناس على الحسين يُسقِط عروش الظالمين؟

أما محاولتك ربط العزاء الحسينيّ بشقِّ الجيوب وضرب الخدود اللذين نهى عنهما الحديث، فهي مغالطةٌ مكشوفة؛ لأن النهي هنا عن الفعل الذي يعكس السخط على قضاء الله، وليس عن التعبير المشروع عن الحزن على مظلوميّة الحسين عليه السلام. وإلّا فقلْ لي، هل كان النبي حين بكى على الحسين مرتكبًا لما نهى عنه؟ وهل كانتْ زينب عليها السلام - وهي تخطب في قصر يزيد، وتقيم

العزاء على أخيها - داعيةً إلى الجاهلية أو حاملةً لرسالة الإسلام الحقيقيّة؟

إنّ مشكلتك، ليست في حديث النبي، بل في أنك تخشى أنْ يتحوَّل الحسين عليه السلام إلى قضيّة أبديّة تُحرِّك ضمير الأمّة، وتُذكّرها بأنّ الظالمين في كل عصر يكرهون من يبكي على الحسين؛ لأن هذه الدمعة تُهدِّد عروشهم، وتُبقي راية الحسين مرفوعة في وجه الطغيان. فاختر لنفسك: هل تقف مع الحسين في مظلوميّته، أو إنك تحاول إطفاء ذِكره بذريعة «حديثٍ» فهمتَه خطأً أو تعمّدتَ تحريفه؟

الخلاصة والنتائج

بعد هذا النقاش المستفيض يتّضح جليًّا أنّ البكاء على الإمام الحسين عليه السلام ليس مجرَّد ممارسة عاطفيّة أو عادة اجتماعيّة، بل هو امتدادٌ طبيعيّ للولاء لرسالة الإسلام المحمديّ الأصيل، وهو سُنّة نبويّة أثبتتْها الروايات المتواترة التي نقلت بكاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الإمام الحسين عليه السلام قبل استشهاده بعقودٍ، مع علمه بمقامه العظيم في الجَنّة. وإنّ محاولة إنكار هذه السُّنّة أو التشكيك فيها ما هي إلا محاولة بائسة لطمس معالم الحقِّ، كما حاول بنو أميّة من قبلُ، ولكنْ كما فشلوا في إخماد نور كربلاء، سيفشل كلُّ مَن يسير على خُطاهم في الحاضر والمستقبل.

إنّ الادّعاء بأنّ الصبر يتعارض مع البكاء على الحسين عليه السلام

ليس إلّا مغالطة مفضوحة؛ لأن الصبر في مفهومه الحقيقيّ لا يعني تبلُّد المشاعر أو كتمان الأحزان، بل يعني التماسك والثبات على المبادئ، وهو عين ما جسَّدته الشعائر الحسينيّة عبر العصور؛ إذ لم تكن دموع الباكين مجرَّد تعبيرٍ عن الحزن، بل كانت على الدوام وقودًا لرفض الظلم والاستبداد، وهي استمرارٌ لموقف زينب الكبرى عليها السلام في قصر يزيد، حيث لم تكن تبكي ضعفًا بل كانت تذرف دموع الثورة، لتفضح الطاغوت أمام التاريخ.

وإنّ الإصرار على التشكيك في إقامة العزاء والمآتم الحسينيّة بحجّة أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يفعل ذلك سنويًّا، هو إغفال متعمَّد لسياق الأحداث، فالنبي كان المبلِّغ للرسالة ولم يكن زمانُه زمان إقامة المآتم، ولكنه كان زمان التمهيد لها، فقد بكاه، وأوصى بالبكاء عليه، بينما جاءت وظيفة أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم من بعده لإحياء الذِّكرى وتعميق الأثر في وجدان الأمة. وهذا ما يُثبِت أنّ الشعائر الحسينيّة ليست ممارسات طارئة أو مبتدَعة كما يزعم بعضهم، وإنما هي الامتداد الطبيعيّ للخطِّ النبوي الذي واجه الطغاة، ولم يساومهم.

وأما الاحتجاج بحديث «ليس منا من ضرب الخدود، وشقَّ الجيوب» فهو حجّةٌ واهية؛ لأن الحديث لا ينهى عن الحزن المشروع، بل عن الجزع الذي يعبِّر عن السخط على قضاء الله، في حين أنّ البكاء على الحسين عليه السلام هو استجابةٌ لنداء النبي نفسه، الذي حزن على جعفر وحمزة، وبكى على شهداء مؤتة،

ولـم يمنـع الصحابـة مـن البـكاء، بـل أمـر النسـاء بالبـكاء علـى حمـزة، وعبّـر بنفسـه عـن حزنـه بفقْـد الأحبّـة. فمـن يدَّعـي أنّ الحـزن علـى الحسـين عليه السلام مخالـف للسُّـنّة، فعليـه أنْ يتَّهـم النبـي صلى الله عليه وآله وسلم أولًا، وهـو مـا لا يجـرؤ عليـه أحـدٌ.

وهكـذا، فـإنّ محـاولات التقليـل مـن قيمـة إحيـاء ذكـرى الحسـين عليه السلام ليسـت إلا رجْـع صـدًى للخـوف مـن الصـوت الـذي لا يـزال يهـزُّ عـروش الظالميـن، فالحسـين عليه السلام لـم يكـنْ مجـرَّد إمـام قُتِـل، بـل كان نـورَ اللـه الـذي أبـى أنْ ينطفـئ علـى رغـم كلِّ المحـاولات، ومَـن أراد إخمـاد صوتـه، فهـو إنمـا يكـرِّر جريمـة بنـي أميـة بوجـهٍ جديـد، ولكنـه واهـمٌ إنْ ظـنّ أنّ بإمكانـه محـو ذكـرى الحسـين عليه السلام؛ لأنّ صـوت «هيهـات منّـا الذلّـة» لا يـزال مدوِّيًـا فـي ضمائـر الأحـرار، ودمـوع العاشـقين لثـراه الطاهـر ليسـت إلا امتـدادًا لعهـد الوفـاء لـه، ولـن تنطفـئ هـذه الدمعـة مـا دام هنـاك حـقٌّ يقـاوم الباطـل، ومـا دام هنـاك حسـينيٌّ يصـرخ فـي وجـه كلِّ يزيـديّ: «فواللـه لا تمحـو ذكرنـا، ولا تميـت وحيَنـا!».

❁❁❁

الفَصلُ الثَّاني

بكاءُ الملائكةِ على الحسين عليه السلام ونزولُهم عند قبره

بكاءُ الملائكةِ على الحسين عليه السلام ونزولُهم عند قبره

يرتكـز هـذا الموضـوع بنحـوٍ أسـاسٍ علـى دحْـض الاعتـراض القائـل بعـدم إمـكانِ بـكاء الملائكـةِ علـى الإمـام الحسـين عليه السلام ونزولهـم عنـد قبـره، وذلـك بتقديـم أدلّـةٍ مـن السُّـنّة النبويـة الشـريفة، تُثبِـت صحـة ذلـك. ويسـعى الموضـوع إلـى إثبـات صحّـة عقيـدة بـكاء الملائكـة علـى الحسـين ونزولهـم عنـد قبـره، ودحْـض أيّ اعتراضـات علـى ذلـك.

انطلاقة الحوار:

المخالف: الغريـب والعجيـب أنكـم تعتقـدون أنّ الملائكـة تبكـي، وتحـزن، وليـس هـذا فحسـب، بـل وإنهـا تَنـزل عنـد قبـر الحسـين رضـي اللـه عنـه، لتبكـيَ عليـه، فقـد روتْ مصادركـم عـن أحـد أئمتكـم، قولـه: «عنـد قبـر الحسـين أربعـةُ آلاف ملَـكٍ شُـعْث غُبْـر، يبكونـه إلـى يـوم القيامـة»[1]، فهـل أصبحـتِ الملائكـةُ قبوريـةً أيضًـا؟!

الإمامي: يسعى كثيـرون -وأنـتَ منهـم- لإظهـار معرفتهـم والتظاهرِ بإلمامهـم بقضايا مذهبِهـم واطّلاعهـم على تفاصيلِ مصـادرِ مخالفيهـم، لكـنْ غالبًـا مـا يواجهـون خيبـةَ الأمـل عنـد كشـف جهلِهـم، إذ مـن شـأن الجاهـل أنْ يلجـأ إلـى مهاجمـة الآخريـن بأقسـى الأوصـاف قبـلَ أن يُـدرك

(١) كامل الزيارات، ص١٧٣.

أنه ليس خاليًا من تلك الأوصاف التي يظنُّها عيوبًا، ويَعيب بها خصمَه.

المخالف: لا أُظنُّ فقط بأنّ الإيمان بنزول الملائكة على قبور الموتى -فضلاً عن بكائها وحزنها- هو عيبٌ فحسب، بل أجزم أنه خللٌ في عقيدة المُعتقِد وفكره.

الإمامي: سواء كنتَ تظنُّ أم تجزم، فإنّ ما ذكرتَه يُشير إلى جهلك بعقيدة مذهبِك، فقد ثبت في أثرٍ صحيحٍ من مصادركم أنّ الملائكة تزور قبر النبيِّ ﷺ كلَّ يومٍ وليلةٍ للصلاة عليه وحراسة مدينته من الدجّال، فقد روى القاضي إسماعيل بن إسحاق الجهضمي المالكي (ت٢٨٢هـ)، بإسناده في كتابه "فضل الصلاة على النبي"، أنّ كعبًا دخل على عائشة، فذكروا رسولَ الله ﷺ، فقال كعبٌ: «ما مِن فجرٍ يطلع إلا وينزل سبعون ألفًا من الملائكة حتى يحفّوا بالقبر، يضربون بأجنحتهم، ويُصلّون على النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا أمسَوا عرَجوا، وهبط سبعون ألفًا حتى يحفّوا بالقبر، يضربون بأجنحتهم، فيصلّون على النبي صلى الله عليه وسلم، سبعون ألفًا بالليل وسبعون ألفًا بالنهار، حتى إذا انشقّت الأرض خرج في سبعين ألفًا من الملائكة يزفّونه»، صحّحه الألباني في تحقيقه لكتاب الجهضمي[(١)].

وأخرجه البيهقي في "شُعَب الإيمان" عن كعب الأحبار[(٢)]،

(١) تحقيق فضل الصلاة على النبي، لإسماعيل الجهضمي، ص٨٣، تـ. الألباني.
(٢) شُعب الإيمان، ج٣، ص٤٩٢، رقم ٤١٧٠.

وأخرجه أيضًا: الدارمي في سُننه[١]، وأبو الشيخ في "العظمة"[٢]، وابن المبارك في "الزهد"[٣].

المخالف: يدلُّ هذا الأثر على أنّ نزول الملائكة يقتصر على قبور الأنبياء فقط، ولا يَنزلون عند قبور غيرهم.

الإمامي: إذًا، اعترفتَ بصحّة هذا الأثر واعتباره موثوقًا به بناءً على مصادرِك، فكيف تجزم بأنّ الإيمان بنزول الملائكة على قبور الموتى عيبٌ وخللٌ في عقيدة المُعتقِد وفكره ؟! وهل ستقول: إن الملائكة بزيارتها قبرَ النبي صلى الله عليه وآله وسلم، صاروا قبوريّة حسب تعبيرك؟!

المخالف: أنا قلت: نزولُ الملائكة على قبور الموتى ممّن هم دون الأنبياء، والحسين رضي الله عنه، ليس نبيًّا، وأنا قصدْته بكلامي، فنزولُ الملائكة مقصورٌ على قبور الأنبياء فقط.

الإمامي: لقد تغيّر رأيُك من إنكار نزول الملائكة على قبور الموتى بنحوٍ مطلقٍ إلى استثناء الأنبياء فقط، وهذا يُعدّ هروبًا من الإلزام ومن الاتّصاف بالجهل بمبادئ مذهبك!! وما زال السؤال قائمًا: هل صار الملائكة بزيارتهم قبرَ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبوريّة؟!

وبغضِّ النظر عن ذلك، فإنّ زعْمك بِحصر نزول الملائكة على قبور الأنبياء دون غيرهم من الأولياء والصالحين يُكذّبه ابن تيمية، "شيخ الإسلام" كما تسمّونه، فهو يعتقد بنزول الملائكة

(١) سُنن الدارمي، ج١، ص٥٧، رقم ٩٤.
(٢) العظمة، ج٣، ص١٠١٩.
(٣) الزهد والرقائق، ج١، ص٥٥٨، رقم ١٦٠٠.

عند قبور الصالحين أيضًا، ويعدّه من الكرامات وخوارق العادات، ويؤكد أنّ ذلك كلَّه حقٌّ، حيث يقول في كتابه "اقتضاء الصراط": «ما يُذكر من الكرامات، وخوارق العادات، التي توجد عند قبور الأنبياء والصالحين مثل نزول الأنوار والملائكة عندها... فجنسٌ هذا حقٌّ»[1].

المخالف: حتى لو سلّمنا بصحّة قول شيخ الإسلام ابن تيمية، فلا يوجد في كلامه ما يدلُّ بنحوٍ قاطع على نزول الملائكة عند قبر الحسين رضي الله عنه!

الإمامي: لاحظ أسلوبَك المراوغ في النِّقاش، فقد أنكرتَ في البداية نزولَ الملائكة عند قبور الموتى بنحوٍ عامٍّ، ثم تراجعتَ بعد عرض دليلٍ يناقض ادِّعاءك، فاستثنيتَ الأنبياء فقط، ثم تراجعتَ مرةً أخرى عن قولك عندما واجهتُك بقولِ ابن تيمية، وتحاول الآن الهروب من الموضوع بالبحث عن ثغراتٍ جديدة.

لكنْ أودُّ أنْ أُذكِّرك بأنّ هدفي من طرح قول "ابن تيمية" كان إفحامَك وإثبات خطأ ادّعائك بأنّ نزول الملائكة يقتصر على قبور الأنبياء فقط، وها أنت ذا تقرّ، وتعترف مرةً أخرى بصحة ما قلتُه.

المخالف: حتى لو كان ما ذكرتَه صحيحًا، فهل من المقبول في النقاش والحوار أنْ تستشهد برواياتٍ من كتبكم لإثبات نزول الملائكة عند قبر الحسين رضي الله عنه، مثل رواية «عند قبر

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، ج٢، ص٢٥٥.

الحسين أربعةُ آلاف ملَك شُعث غُبر، يبكونه إلى يوم القيامة» من كتاب "كامل الزيارات"، هل تعتقد أنّه بهذه الطريقة ستتمكّن من إقناعي بصحة عقيدتك؟!

الإمامي: أنت مَن بادر بطرح هذه الرواية من مصادرنا وكتبنا، ونحن نسعى لرفع أيّ شكوك قد تكون عالقةً في ذهنك حول صحّتها، لا لإقناعك بمعتقَدنا، وبخصوص رواية "كامل الزيارات"، فقد روى مضمونَها نفسه بعضُ علماء أهل السُّنة، كالمحبِّ الطبري في "ذخائر العقبى"، قال: «ذكْر ما جاء في زيارة قبر الحسين بن عليّ رضي الله عنهما: عن موسى بن عليّ الرّضا بن جعفر، قال: "سئِل جعفر بن محمّدٍ عن زيارة قبر الحسين، فقال: "أخبرَني أبي أنّ من زار قبر الحسين عليه السلام عارفًا بحقّه كَتب اللهُ له في علّيّين، وقال: "إنّ حول قبر الحسين سبعين ألف ملَك شُعثًا غُبرًا يبكون عليه إلى يوم القيامة"»[(١)].

ورواها ابن المغازلي في "مناقب عليّ"، فقال: «وبالإسناد حدّثنا الرَّبَعيُّ، حدّثنا فُضيل بن يَسّار، قال: قيل لأبي عبد الله عليه السلام: أيُّ قبور الشهداء أفضل؟ قال: أوليس أفضل الشهداء عندك الحسين عليه السلام؟ فوالذي نفسي بيده إنّ حوْل قبرِه أربعين ألفَ ملَكٍ شُعثًا غُبْرًا، يَبكُون عليه إلى يوم القيامة»[(٢)].

ورواها شهاب الدين أحمد الإيجي الشافعي -من أعلام القرن

(١) ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، ص١٥١.
(٢) مناقب علي، لابن المغازلي، ص٤٦٢.

التاسع- في "توضيح الدلائل على تصحيح الفضائل" فقال: «وعن عليّ بن موسى الرضا بن جعفر عليهما السلام، قال: سئل جعفر بن محمد عن زيارة قبر الحسين عليه السلام فقال: "أخبرَني أبي: مَن زار قبر الحسين عليه السلام، عارفًا بحقّه، كتب الله له في عليّين". وقال: "إنّ حول قبر الحسين سبعين ألف ملَكٍ شُعثًا غُبْرًا، يبكون عليه إلى يوم القيامة" رواه الطبري، وقال: خرّجه أبو الحسين العتيقي»(١).

وبالنتيجة فقد وردتْ رواياتٌ بالمضمون نفسه، مثل رواية "كامل الزيارات" في مصادر بعض علماء أهل السُّنة وكتبهم، بغضِّ النظر عن صحة سندها وعدمه، ممّا يدحض أيّ ادعاء بكوننا نستدل عليك من مروياتنا فقط.

المخالف: لكنَّ فكرة بكاء الملائكة تُنافي الفهم المنطقيَّ لطبيعة الملائكة، فهم لا يملكون مشاعر بشرية مثل الحزن والبكاء.

الإمامي: من المفارقات العجيبة أنّك تُبدي تحفُّظًا على بكاء الملائكة، بينما تقبل بسهولةٍ صفة الضحك لله تعالى، على رغم أنّ كلتا الصفتين -حسب تقويمك- تُمثّلان تعبيرًا عن المشاعر، فصفةُ ضحِك الله تعالى عقيدةٌ ثابتة عندكم، كما ورد في صحيح البخاري عن أبي هريرة، قوله: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يضحك الله إلى رجلين، يقتل أحدهما الآخر"»(٢)، وها هو ابن تيمية يؤكِّد أنّ الملائكة تمتلك حاسةَ الشمِّ، وذلك

(١) توضيح الدلائل على تصحيح الفضائل، ص٥٢٢.
(٢) صحيح البخاري، ج٣، ص١٠٤٠، ت. البغا.

في معرض ردِّه على سؤالٍ حول كيفية اطِّلاع الملائكة على نوايا العباد، حيث قال: «إنه إذا همَّ بحسنةٍ شمَّ الملَك رائحةً طيبةً، وإذا همَّ بسيئةٍ شمَّ رائحةً خبيثة...»[(١)].

ولكنْ ضع في علمك أنّ علماءكم فسَّروا بعض آيات القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾[(٢)] ببكاء الملائكة، فابن عادل الحنبلي في تفسيره "اللباب"، قال: «التقدير: فما بكت عليهم أهْلُ السماء والأرض، فحذف المضاف والمعنى: فما بكت عليه الملائكة، ولا المؤمنون بل كانوا لهلاكهم مسرورين»[(٣)].

وقال أبو الفداء الخلوتي في "روح البيان": «قال بعض المفسرين معنى الآية ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ فأقام السماء والأرض مقام أهلهما كما قال ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ وينصره قوله عليه السلام: "إذا وُلِد مولودٌ من أمتي تباشرت الملائكةُ بعضُهم ببعضٍ من الفرح، وإذا مات من أمتي صغيرٌ أو كبيرٌ بكت عليه الملائكة"، وكذا ورد في الخبر "أن الملائكة يبكون إذا خرج شهر رمضان، وكذا يستبشرون إذا ذهب الشتاء رحمة للمساكين"»[(٤)].

وفي تفسير "الكشف والبيان"، قال الثعلبي: «حدّثنا لقمان الحنفي، قال: أتى النبي صلّى الله عليه وسلّم على شاب في جوف الليل، وهو يقرأ هذه الآية: ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ

(١) مجموع الفتاوى، ج٤، ص٢٥٣.
(٢) الدخان: ٢٩.
(٣) اللباب في علوم الكتاب، ج١٧، ص٣٢٣.
(٤) روح البيان، لأبي الفداء الخلوتي، ج٨، ص٤١٤.

﴿وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾، فوقف الشاب وخنقته العبرة، وجعل يقول: ويحي من يوم تنشقُّ فيه السماء، ويحي، فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم: "يا فتى مثلها أو مثّلها، فوالذي نفسي بيده لقد بكت الملائكة يا فتى من بكائك"»(١).

المخالف: هل تقصد أنّ الملائكة يملكون مشاعر بشريّة مثل الحزن والبكاء؟

الإمامي: لم أقصد ذلك إطلاقًا، بل أردتُ القولَ: إن البكاء هو تعبيرٌ عن المشاعر النفسانية، وهو لغةٌ تتخطّى حدود البشر لتشمل الكون بأسره، فكما يبكي الإنسان، كذلك يبكي كلُّ شيءٍ بما يتوافق مع طبيعته وتكوينه، وقد لا نستوعب كيفيّة بكاء باقي المخلوقات، تمامًا كما لا نفهم تسبيحها لله تعالى، كما ورد في القرآن الكريم: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، وجهلُنا لكيفيّة ذلك لا ينفي حقيقة بكائها أو تسبيحها.

قال الطبري في "جامع البيان": «إنّ بكاء السماء حُمرةُ أطرافها، ذكَر من قال ذلك: حدثني محمد بن إسماعيل الأحمسي، قال: ثنا عبد الرحمن بن أبي حماد، عن الحكم بن ظهير، عن السدي، قال: "لما قُتل الحسين بن علي رضوان الله عليهما بكتِ السماءُ عليه، وبكاؤها حُمْرتها"»(٢).

---

(١) الكشف والبيان عن تفسير القرآن، للثعلبي، ج٩، ص١٨٨.
(٢) تفسير الطبري "جامع البيان"، ج٢١، ص٤١، ط. هجر.

وقال البغوي في تفسيره: «قال عطاء: بكاءُ السماء حُمْرة أطرافها. قال السدي: لما قُتل الحسين بن علي بكتْ عليه السماء، وبكاؤها حُمْرتها»(١).

وقال ابن عطية في "المحرّر الوجيز": «وقالوا: إنّ السماء احمرَّت يوم قُتل الحسين بن علي، وكان ذلك بكاء عليه، وهذا هو معنى الآية»(٢).

وبعض علماء أهل السُّنة حملوا بكاءَ السماء والأرض على الحقيقة، قال ابن عبد البر: «فلما كان مثل هذا -وهو في القرآن كثير- حمَلوا بكاء السماء والأرض وانفطار السماء وانشقاق الأرض وهبوط الحجارة من خشية الله -كلُّ ذلك وما كان مثله- على الحقيقة»(٣).

الخلاصة والنتائج:

١ - أثبت النقاشُ صحة عقيدة بكاء الملائكة على الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ونزولهم عند قبره بأدلة دامغة من مصادر أهل السُّنة.

٢ - دَحَضَ النقاشُ جميع الاعتراضات التي أُثيرت على هذه العقيدة، وأظهرَ تناقضَ المخالفين وجهلهم ببعض معتقدات مذهبهم.

---

(١) تفسير البغوي، ج٤، ص١٧٨.
(٢) تفسير ابن عطية "المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز"، ج٥، ص٧٣.
(٣) الاستذكار، ج١، ص١٠٠، ط. العلمية.

الفَصلُ الثَّالِثُ

مصيبة الحسين عليه السلام أعظم مصاب في الكون

مصيبة الحسين عليه السلام أعظم مصاب في الكون

تُعدّ مصيبة الإمام الحسين عليه السلام من أعظم المصائب في تاريخ البشرية لما لها من أبعاد دينية، اجتماعية، وسياسية عميقة، ولما نتج عنها من ثورة إصلاحية عظيمة هزت أركان الظلم والاستبداد.

في هذا الموضوع يُجادل "المخالف" بأن مصيبة قتل الإمام الحسين عليه السلام ليست الأعظم، بينما يُثبت "الإمامي" عظم المصاب وشدة الغضب الإلهي لمقتل الإمام الحسين عليه السلام من خلال الأدلة النقلية الصحيحة من مصادر أهل السنة المعتبرة وبالأسانيد الصحيحة.

انطلاقة الحوار:

المخالف: قولكم: إنّ مقتل الحسين رضي الله عنه من أعظم المصائب التي حدثت في الكون هو في الواقع مبالغةٌ وغلوٌّ!!

الإمامي: المبالغة، هي أنْ يدّعي المتكلم بلوغَ وصفٍ في الشدة أو الضعف حدًّا مستحيلًا أو مستبعَدًا ليدلَّ على أنَّ الموصوف بالغ في ذلك الوصف إلى النهاية.

والغلوُّ معناه الارتفاع ومجاوزة الحدِّ للشيء، سواء أكان في المعتقَدات الدينيّة أو غيرها. واستُعمل اصطلاحًا بمعنى مجاوزة

الحدِّ المفترض للمخلوق والارتفاع به إلى مقام الألوهية.

وكلا الحالين -المبالغة والغلو- لا يصدقان، ولا ينطبقان على قولنا: إن مقتل الإمام الحسين عليه السلام أعظم مصابٍ في الكون.. ولا أخالك تفقه ما تقول!

المخالف: بل أفقه، ودليلي على ذلك وجودُ مصاب هو أعظم من مصاب الحسين رضي الله عنه، وهو مقتل النبي يحيى بن زكريا!!

الإمامي: من النافع جدًّا أنك ذكرت مصاب نبيِّ الله يحيى بن زكريا عليهما السلام، لمقارنته بمصاب الإمام الحسين عليه السلام، حيث وردتِ المقارنة في حديثٍ صحيح، صحَّحه الحاكم في المستدرك، وهو أن الله سبحانه خاطب نبيَّه صلى الله عليه وآله وسلم كيف أنه تعالى قتل بيحيى بن زكريا سبعين ألفًا، وأنه عز وجل سيقتل بالحسين عليه السلام ضعف ما قتل بيحيى، فقد روى الحاكم بسنده عن ابن عباس أنه قال: «أوحى الله تعالى إلى محمدٍ صلى الله عليه وسلم: "أني قتلت بيحيى بن زكريا سبعين ألفًا، وأني قاتلٌ بابن ابنتك سبعين ألفًا وسبعين ألفًا"، هذا حديثٌ صحيح الإسناد، ولم يخرِّجاه»[1]، وقال الحافظ الذهبي في "التلخيص": "صحيحٌ على شرط مسلم".

المخالف: لكنَّ ابن حبّان في كتابه المجروحين قال عن هذا الحديث: «هذا لا أصلَ له»[2].

---

(١) المستدرك على الصحيحين، للحاكم، ج٣، ص١٩٥، ط. العلمية.
(٢) المجروحين، لابن حبان، ج٢، ص٢١٥.

الإمامي: ابن حبّان عُرف عنه أنه متساهل في باب التوثيق، ومتشدِّد في باب التضعيف، فلا يعوَّل عليه في هذا المجال عند أغلب علمائكم، والحديثُ أورده السخاوي في "المقاصد"، فقال: «رواه الحاكم في المستدرك مرفوعًا بأسانيد متعدِّدة تدلُّ على أنّ له أصلًا كما قال شيخنا»[١].

وأورده العجلوني في "كشف الخفاء"، فقال: «رواه الحاكم في مستدركه عن ابن عباس مرفوعًا بأسانيد متعددة تدلّ على أن له أصلًا كما قال الحافظ ابن حجر»[٢].

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني في "لسان الميزان": «وقد أخرجه الحاكم في "المُستَدرَك" من طريقِ ستةِ أنفسٍ، عَن أبي نعيم، وقال: صحيح، ووافقه المصنِّف [الذهبي] في تلخيصه»[٣].

وهناك العديد من الأحاديث الصحيحة التي تَعد قتل الحسين عليه السلام جريمةً أعظم من قتل النبي يَحيى بن زكريا عليهما السلام، وتوضِّح أن هناك اهتمامًا بالغًا من قِبَل الله عز وجل بِهذه الجريمة، وأن الله تعالى سينتقم لِمَقتل الحسين عليه السلام.

المخالف: وعلى رغم ذلك، فإن الحديث لا يدلُّ على أنّ مقتل الحسين رضي الله عنه أعظم من مقتل يحيى بن زكريا سوى أن العدد مضاعف؟!

---

(١) المقاصد الحسنة، للسخاوي، ص ٤٨٤.
(٢) كشف الخفاء، ج٢، ص٩٨، ط. القدسي.
(٣) لسان الميزان، للعسقلاني، ج٦، ص٣٦٦، تـ. أبي غدة.

الإمامي: إن مضاعفة عدد من سيقتلهم الله تعالى بالحسين عليه السلام مقارنة بالذين قتلهم بيحيى بن زكريا عليهما السلام في الحديث، تدل بوضوح على شدة غضب الله تعالى لمقتل الإمام الحسين عليه السلام. فهذا الحديث الشريف يجعل من قتل الحسين عليه السلام خطرًا عظيمًا، يعادل قتل نبي الله يحيى عليه السلام، بل يزيد عليه ضعفًا؛ إذ فيه أن الله سبحانه يقارن مقتل الإمام الحسين عليه السلام، بمقتل يحيى النبي عليه السلام، ويغضب له غضبًا يفوق غضبَه لمقتل يحيى وانتقامه له!!

المخالف: بأيِّ دليلٍ تقول: إن الله يغضب لمقتل الحسين رضي الله عنه غضبًا يفوق غضبه لمقتل يحيى بن زكريا؟!

الإمامي: بدليل أنّ مضاعفة عدد مَن سيقتلهم الله تعالى بالحسين عليه السلام في الحديث الشريف تُشير بوضوح -لا ينكره غير المتعنِّت- إلى شدة غضبه سبحانه، فإن السبعين ألفًا المقتولين بيحيى بن زكريا إنما كان قتلهم دية سبعين نبيًّا أو كل نبي بما في ذلك يحيى نفسه عليه السلام على ما نصت عليه مرويّات أهل السنة، قال القرطبي في تفسيره مُؤكدًا ذلك: «قال سعيد بن المسيب: هي دية كلِّ نبيٍّ»[(١)].

وأردفه مُفصِّلًا ذلك بقوله: «وعن سمير بن عطية، قال: قُتل على الصخرة التي في بيت المقدس سبعون نبيًّا، منهم يحيى بن زكريا»[(٢)].

---

(١) تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن -، ج١٠، ص٢١٩.
(٢) تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن -، ج١٠، ص٢١٩؛ مختصر تاريخ دمشق، ج٢٧، ص٢٥٥.

وبالنتيجة، إن مضاعفة عدد من سيقتلهم الله تعالى بالحسين عليه السلام في الحديث، تُشير بوضوح لا يقبل الشك إلى شدّة الغضب الإلهي.

المخالف: السبعون ألفًا الأولى والسبعون ألفًا الثانية في الحديث، الذين سيُقتلون بالحسين رضي الله عنه، لمن سيكون قتلهم دية، إذا كان السبعون ألفًا المقتولون بيحيى بن زكريا هم دية كل نبي؟!

الإمامي: إن كان الله سبحانه قد قَتل بيحيى عليه السلام سبعين ألفًا دية لكلِّ نبي بما فيهم يحيى نفسه، فكذلك إنّ السبعين ألفًا الأولى الذين يُقتلون بالحسين عليه السلام هم دية لكل نبي. أما السبعون ألفًا الثانية فقتلهم يكون دية للحسين عليه السلام فقط، كما هو واضح بقرينة سياق الحديث «أني قَتلت بيحيى بن زكريا سبعين ألفًا، وأني قاتلٌ بابن ابنتك سَبعين ألفا»، ثم أردفه بقوله: «وسبعين ألفًا»، والواو هنا تقتضي المغايرة، فافهم.

المخالف: مع ذلك لا أرى مبرِّرًا لاعتبار مقتل الحسين رضي الله عنه أعظم مصيبة في الكون؟!

الإمامي: هنا أودُّ أنْ أسألك: هل تشكّ في مكانة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على أنه سيد الكون وسيد الرسل وخاتم الأنبياء وصفيّ الأصفياء وحجّة الجبار على الورى؟!

المخالف: هذا سؤال ساذج، بالتأكيد أنا لا أشك!!

الإمامي: إذًا، سيد الكون وسيد الرسل وخاتم الأنبياء وصفيّ الأصفياء وحجة الجبار على الخلق، بكى على مصيبة ولده الحسين

عليه السلام قبل وقوعها، فكيف لا تكون أعظم مصيبة في الكون؟!!

فقد ورد في روايات صحيحة روتها كتب الفريقين بأن بكاءه صلى الله عليه وآله وسلم كان بحرقةٍ وألم، فقد روى البوصيري عن أمِّ المؤمنين أمِّ سلمة قولها: «كان النبي –صلى الله عليه وسلم– نائمًا في بيتي، فجاء الحسين يدرج. قالت: فقعدتُ على الباب، فأمسكته مخافة أن يدخل فيوقظه. قالت: ثمّ غفلت في شيءٍ، فدبَّ، فدخل، فقعد على بطنه. قالت: فسمعتُ نحيب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فجئت، فقلت: يا رسول الله ما علمت به. فقال: إنّما جاءني جبريل –عليه السلام– وهو على بطني قاعد، فقال لي: أ تحبه؟ فقلت: نعم. قال: إنّ أمّتك ستقتله، ألا أريك التربة التي يُقتل بها؟ قال: فقلت: بلى. قال: فضرب بجناحه، فآتاني هذه التربة. قالت: فإذا في يده تربة حمراء، وهو يبكي، ويقول: ليت شعري من يقتلك بعدي؟». قال البوصيري: «رواه عبد بن حميد بسند صحيح وأحمد بن حنبل مختصرًا»[(١)].

وفي رواية الطبراني: «فسمعت نشيج رسول الله»[(٢)].

والنشيج – كما في لسان العرب لابن منظور، حرف النون، نشج – هو أشدّ البكاء.. وهو صوت معه توجُّع وبكاء كما يردِّد الصبي بكاءه ونحيبه في صدره[(٣)].

---

(١) إتحاف الخيرة المهرة، ح٦٧٥٥.
(٢) مجمع الزوائد، ج٩، ص٢١٩، قال الهيثمي: رواه الطبراني بأسانيد رجال أحدها ثقات.
(٣) يُنظر: لسان العرب، ج٢، ص٣٧٨، ومعجم مقاييس اللغة، ج٥، ص٤٢٩.

المخالف: إذا كنتَ تعني أنّ بكاء النبي الكريم صلى الله عليه وسلم على مصيبة الحسين رضي الله عنه، جعلها أعظم مصيبةٍ على الإطلاق، ولكونه سيد الكون سيتأثر الخلق بحزنه وبكائه على مقتل الحسين.. فهذا كلام فارغٌ لا دليل عليه !!

الإمامي: بل على العكس، كلامك في شرح مقصدي يُثبت صحّة ما أقول، حيث قام الدليل على أنه لا توجد مصيبةٌ في الكون بكى عليها سيد النبيين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وتأثر بها الخلق مثل السماء والأرض والشمس، وناحت الجنُّ عليها، كمصيبة قتل الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فها هي مصادركم تنقل ما صحَّ من الأخبار والآثار في ذلك، فقد ذكر أبو نعيم الأصفهاني في كتابه "معرفة الصحابة" عند ترجمته للحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أحمرَّت السماء لقتله، وكُسفت الشمس يوم موته، وصار الورس في عسكره رمادًا، والمنحور من جذره دمًا، لم يُرفع حجرٌ بالشام إلا رئي تحته دم عبيط، وناحت الجن لرزيَّته وفقْده»(١).

وروى الطبراني بسنده عن ابن شهاب، أنه قال: «ما رُفع بالشام حجرٌ يوم قتل الحسين بن علي إلّا عن دم»(٢).

وأيضًا روى الطبراني بسنده عن عليّ بن مسهر عن جدته أُم حكيم، أنها قالت: «قُتل الحسين بن عليّ، وأنا يومئذٍ جويرية،

---

(١) معرفة الصحابة، للأصفهاني، ص٦٦٢.

(٢) مجمع الزوائد، ج٩، ص١٩٦، قال الهيثمي: ورجالُه رجال الصحيح.

فمكثَت السماءُ أيامًا مثل العلقة»(١).

وهكذا يروي الذهبي في "سِير أعلام النبلاء" عن جملةٍ من أعلام أهل السنة أنّ السماء مطرت دمًا عند مقتل الحسين عليه السلام:

فقد روى عن ابن سيرين، قوله: «لم تبك السماء على أحدٍ دمًا بعد يحيى عليه السلام إلا الحسين. وعن المدائني: عن عليّ بن مدرك، عن جدّه الأسود بن قيس، قال: احمرّت آفاق السماء بعد قتل الحسين ستّة أشهر تُرى كالدم. وعن الفسوي: حدّثنا مسلم بن إبراهيم، قال: حدثتنا أُم سوق العبدية، قالت: حدثتني نضرة الأزدية، قالت: لما أنْ قتل الحسين مطرت السماء دماءً، فأصبحت وكلّ شيء لنا ملآن دمًا»(٢).

فتحصَّل من جميع ما تقدَّم: أنه لا مبالغة ولا غلو في القول بأن مصيبة قتل الإمام الحسين عليه السلام هي أعظم مصيبةٍ في الكون، فبكاء سيد النبيين صلى الله عليه وآله وسلم وحزن السماء والأرض وتأثرهما الموصوف بالنقل الصحيح، شواهد قويّة على عظم هذه المصيبة وتفرُّدها.

فسلامٌ على الحسين يوم ولد ويوم استشهد ويوم يبعث حيًّا.

---

(١) مجمع الزوائد، ج٩، ص١٩٧، قال الهيثمي: ورجاله إلى أُمّ حكيم رجال الصحيح.
(٢) سير أعلام النبلاء، ج٣، ج٢١٣.

الفَصلُ الرَّابِعُ

زيارة الإمام الحسين عليه السلام

وفريضة الحج

زيارةُ الإمام الحسين عليه السلام وفريضة الحج

يثير بعضُ المخالفين اتّهامات بأنّ الشيعة الإمامية يفضِّلون زيارة الإمام الحسين عليه السلام على أداء فريضة الحج، مما يدفع للحديث عن المفاهيم الأساسية والضرورات الدينية في المذهب الشيعي الاثني عشري.

هذا الموضوع يتناول هذا الادّعاء، ويستعرض الردود عليه من منظورٍ عقائديٍّ وفقهي، مبرزًا القيمة العظمى لفريضة الحج في الإسلام عند الشيعة الإمامية الاثني عشرية، ومكانة زيارة الإمام الحسين عليه السلام في أنه فعلٌ مستحبٌّ لا ينوب عن الفرض، ولا يسقطه.

سنستعرض الأحاديث والروايات المتعلِّقة بهذه المسألة، ونوضح الفهْم الصحيح لها، ونستعرض أيضًا فتاوى وآراء أبرز فقهاء الشيعة بشأن ركنيّة الحجّ وأثرها على العقيدة الإسلامية، لنصل في النهاية إلى تفنيد الادّعاء بأنّ الشيعة يفضِّلون الزيارة على الحجِّ، وتبيان أنّ هذا الادّعاء يهدف إلى تشويه الصورة الحقيقيّة للمذهب وعقيدتِه.

انطلاقة الحوار

المخالف: الشيعة يفضِّلون زيارة الحسين على فريضة الحج!!

الإمامي: هذه ليستْ إلا مجرَّد دعوًى لا دليل عليها ولا برهان، وهي من جنس الأقوال التي لا زمام لها ولا خِطام، فالحجُّ ركنٌ من أركان الدين، ووجوبُه من الضروريات عند الشيعة الإمامية، وهو في الأحاديث أفضلُ من الصوم والجهاد، بل أفضلُ من كلِّ عبادةٍ ما عدا الصلاة[١]، وفي الحديث أيضًا: «أنَّ الحج من أركان الإسلام»[٢].

وقد ذمّ المعصومون عدمَ أداء الحج أو تأخيره بشدةٍ، وبيّنوا أن لذلك آثارًا وتبعاتٍ سلبيةً في الدنيا والآخرة[٣].

ووصف أمير المؤمنين عليه السلام هذه العبادة بأنها: «علَم الإسلام وشعاره»[٤]، وقال عنها - أيضًا - في وصيته في الساعات الأخيرة من حياته: «اللهَ اللهَ في بيت ربّكم، لا تُخلوه ما بقيتم؛ فإنّه إن تُرك لم تناظروا»[٥].

فقولك: تفضيل الشيعة زيارة الإمام الحسين عليه السلام على فريضة الحج، ما هو إلا تقوّلٌ على الشيعة مما لم يقل به أحدٌ من أئمتهم

---

(١) الكافي، ج٤، ص٢٥٣، ٢٥٤.
(٢) وسائل الشيعة، ج١، ص١٣٢٠، ٢٦٢٨.
(٣) نهج البلاغة، الرسالة ٤٧. وسائل الشيعة، ج١١، ص٢٩- ٣٢.
(٤) ينظر: تفسير الأمثل، ج٢، ص٤٤.
(٥) الكافي، ج٧، ص٥١.

ولا علمائهم، ويُراد منه تنفير قلوبِ المسلمين منهم وإقصائهم وعزلهم عن العالم الإسلامي.

المخالف: بل عليها دليلٌ، فقد روى علماؤكم «عن زيد الشحّام، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: زيارة الحسين عليه السلام تعدِل عشرين حجّة، وأفضل من عشرين حجّة»[١].

الإمامي: حديث زيد الشحام، عن أبي عبد الله عليه السلام، قوله: «زيارة الحسين عليه السلام تعدل عشرين حجّة، وأفضل من عشرين حجّة»؛ كما جاء في «كامل الزيارات» إنما هو في الحج المستحبّ لا الفرض، ومعلومٌ أن زيارته عليه السلام من أوْكد المستحبات، ولم يقل أحدٌ من العلماء بوجوبها البتة، والمستحبُّ لا ينوب عن الواجب قطعًا كما هو معلوم لدى المخالف والمؤالف.

المخالف: لكنّ من يقرأ رواية زيد الشحام «تعدل عشرين حجّة، وأفضل من عشرين حجّة» يفهم أنها تعادل فريضةَ الحج، بل أفضل من عشرين حجة، وبالنتيجة تسقط فريضة الحج، ولا يفهم غيرُ هذا، وهو صريح في ذلك!!

الإمامي: هذا فهمٌ منكوس مغلوط، فقوله عليه السلام «تعدل عشرين حجّة، وأفضل من عشرين حجّة»، أي: تَعدِلُ الحجّ في الجزاء لا الإجزاء، بمعنى أنّ هذه الأعمال تعدل الحجّ في الفضل، لا أنها تُسقط حجَّة الفَرض، كما لا يخفى على من له قلبٌ سليم وعقل رجيح.

---

(١) كامل الزيارات، ص٣٠٢، ح٥٠٦.

المخالف: قد يكون هذا تأويلك، لكنه خلاف ما يعتقده علماؤكم في إسقاط فرض الحجِّ لمن زار قبر الحسين رضي الله عنه!

الإمامي: هذَا قول فَاسد، لا شكّ فيه، فقد اتفقتْ كلمة علماء الشيعة الإمامية على ركنيّة الحج في الإسلام، وعدّوه من ضروريات الدين، وأنّ منكره كافرٌ إنْ لم يكن عن شبهة، قال السيد الخوئي قدس سره: «والحج ركنٌ من أركان الدين، ووجوبُه من الضروريات، وتركه -مع الاعتراف بثبوته- معصيةٌ كبيرة، كما أنّ إنكار أصل الفريضة إذا لم يكن مستندًا إلى شبهةٍ كفرٌ»(١)، وقال السيد السيستاني (دام ظله): «والحج ركنٌ من أركان الدين، ووجوبه من الضروريات، وتركه - مع الاعتراف بثبوته - معصيةٌ كبيرة، كما أنّ إنكار أصل الفريضة إذا لم يكن مستندًا إلى شبهةٍ كفرٌ»(٢).

وجاء عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «لا يزال الدين قائمًا ما قامت الكعبة»(٣).

فهذه مصادرنا وأحاديث أئمتنا وفتاوى مراجعنا تُفصح وتصرِّح بأنّ حَجة الإسلام واجبة بنصّ القرآن والسنة، وأنّه لا ينوب عنها غيرها، ولا يسقطها سوى أدائها، وهذه المسألة لا يختلف فيها اثنان من الشيعة، فأين فضّل الشيعةُ زيارةَ الإمام الحسين عليه السلام على فريضة الحج؟!

---

(١) مناسك الحج، ص٥.

(٢) مناسك الحج، ص٦.

(٣) وسائل الشيعة، ج٨، ص ١٤، ح٥.

المخالف: لكنّ الحديث عن فضل زيارة الحسين رضي الله عنه -وإنْ قلتَ: إنها مستحبةٌ- يفهم منه أنه أفضل من الواجب، فيُسقط الفرض.

الإمامي: حَجة الإسلام واجبة عندنا بنصّ القرآن والسُّنة، وزيارة مراقد الأئمة الأطهار عليهم السلام مستحبّة، وقطعًا المستحبُّ لا ينوب عن الواجب، ولا يَسقط الفرضُ به.

وإذا اعتمدنا على قولك: "يُفهم منه أنه أفضل من الواجب، فيسقط الفرض"، يمكن أن نفهم كثيرًا من الأحاديث في صحاح أهل السنة ومسانيدهم التي تفضِّل بعض الأعمال على الحج بأنها تسقط الفرض، مثل ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة أنه قال: «جاء الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: ذهب أهل الدثور من الأموال بالدرجات العلى والنعيم المقيم، يصلُّون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضل أموالٍ يحجّون بها، ويعتمرون، ويجاهدون، ويتصدَّقون؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا أحدِّثكم بما لو أخذتم به لحقتم مَن سبقكم، ولم يدرككم أحدٌ بعدكم، وكنتم خيرَ مَن أنتم بين ظهرانيه إلا من عمل مثله: تسبِّحون، وتحمِّدون، وتكبِّرون خلف كل صلاة ثلاثًا وثلاثين"»(١).

وما رواه مسلمٌ في صحيحه عن أبي ذر، أنه قال: «إن أناسًا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا: يا رسول الله ذهب

---

(١) صحيح البخاري، ج١، ص٢٨٩، ت. البغا.

أهل الدثور بالأجور، يصلّون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أ وليس قد جعل الله لكم صلاة العشاء في جماعةٍ تعدل حَجة، وصلاة الغداة في جماعة تعدل عمرة»[1].

وما رواه البيهقي في "شُعب الإيمان"، بسنده عن أنس بن مالك، أنه قال: «أتى رجل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: إني أشتهي الجهاد وإني لا أقدر عليه. فقال: هل بقي أحد من والديك؟ قال: أمي قال: فاتق الله فيها فإذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتمر ومجاهد فإذا دعتك أمك فاتق الله وبرها»[2].

فهذه الأحاديث -وغيرها كثير- قد يُفهم منها أن بعض الأعمال أفضل من الحج، لكنّ النووي في شرحه على مسلم بيّن الحديث بنفس تفسيرنا لحديث زيد الشحام، فقال: «قوله صلى الله عليه وسلم (فإن عمرة فيه) أي في رمضان (تعدل حجة) أي تقوم مقامها في الثواب لا أنها تعدلها في كل شيء، فإنه لو كان عليه حجة، فاعتمر في رمضان لا تجزئه عن الحجة»[3].

فسلامٌ على الحسين يوم وُلد ويوم استشهد ويوم يُبعث حيًّا.

---

(١) صحيح مسلم، ج٢، ص٦٩٧، تـ. عبد الباقي.
(٢) شعب الإيمان، ج٦، ص١٧٩، تـ. زغلول.
(٣) شرح النووي على مسلم، ج٩، ص٢، ط. دار إحياء التراث العربي.

الفصل الخامس

تقبيلُ ضريح الإمام الحسين عليه السلام والتمسُّح به

تقبيلُ ضريح الإمام الحسين عَلَيهِ السَّلَامُ والتمسُّح به

هـذه المحـاورة ليسـتْ مجـرَّد نقـاشٍ عقَـديّ عابـر، بـل هـي معركـةٌ بيـن نهـجٍ إلهـيٍّ ثابـت، وبيـن أباطيـلِ قـومٍ يحاولـون عبثًـا طمـس الحقيقـة وتغييـب أثـر أهـل البيـت عَلَيهِمُ السَّلَامُ. وكمـا خابـت مسـاعي الطغـاة مـن قَبـلُ فـي محـو أثـر الحسـين عَلَيهِ السَّلَامُ وإخمـاد ذِكـره، سـتبقى جميـع المحـاولات اليائسـة لإنـكار قدسـيّة مرقـده مجـرَّد زبَـدٍ سـرعان مـا يذهـب جُفـاءً، بينمـا يترسَّـخ حُبّـه فـي قلـوب أوليائـه، ويـزدادون بـه ولاءً وتمسُّـكًا، وكأنهـم يجـدِّدون فـي كل قُبلـةٍ علـى ضريحـه عهـدًا لا ينقـض، وميثاقًـا لا يُنكَـث، بأنهـم مـع الحسـين عَلَيهِ السَّلَامُ حتـى آخـر نفـس، وضـدَّ كل مَـن وقـف فـي وجـه قضيّتـه الخالـدة.

منـذ قـرون، لا تـزال النزعـة الأُمويّـة تعيـد إنتـاج نفسـها، متسـتِّرةً خلـف شـعارات التوحيـد، لتطعـن فـي كل مـا يُمـتُّ بصلـةٍ إلـى مدرسـة أهـل البيـت عَلَيهِمُ السَّلَامُ، فتثيـر الشُّـبهات حـول التبـرُّك بقبـور الأوليـاء، وبالأخـصِّ ضريـح سـيد الشـهداء الإمـام الحسـين عَلَيهِ السَّلَامُ، وكأنّ هـذا التبـرُّك الـذي هـو تعبيـرٌ صـادقٌ عـن الـولاء والمحبّـة، أصبـح فجـأةً جريمـةً تُحـارَب، وذنبًـا لا يُغتفَـر! ومـا أغـربَ حـال القـوم! إذ يصمّـون آذانهـم عـن مظاهـر الغلـوّ الحقيقيّـة التـي امتـلأت بهـا موروثاتهـم، ولكـنْ عندمـا يتعلّـق الأمـر بالحسـين عَلَيهِ السَّلَامُ، تنتفـض أقلامهـم وألسِـنتهم، فـلا تُبقـي، ولا تـذر!

ومـن هنـا جـاءت هـذه المحـاورة، لا للدفـاع عـن مسـألةٍ هـي مـن أوضـح البديهيّـات، بـل لكشـف التناقـض الصـارخ عنـد المنكريـن، الذيـن كلمـا ضـاق عليهـم الخِنـاق لجـأوا إلـى تشـويه الحقائـق. فهـل حقًّـا أنّ تقبيـل الضريـح والتمسُّـح بـه أمـرٌ مبتـدَع بـلا أصـل شـرعيّ؟ وإذا كان هـذا الفعـل بدعـة، فلمـاذا لا يكـون تقبيـلُ الحجـر الأسـود بدعـةً أيضًـا؟ وكيـف يتعامَـون عـن تبـرُّك الصحابـة بالنبـي ﷺ وآثـاره؟ أ يكـون الحجَـر أعظـمَ بركـةً مـن ابـن رسـول اللـه ﷺ؟ أم إنّ القضيـة ليسـت فـي الفعـل ذاتـه، وإنمـا فـي صاحـب القبـر؟!

إنّ هـذه المحـاورة تكشـف زيـف الادِّعـاءات، وتفضـح ازدواجيّـة الموازيـن، وتضـع النقـاط علـى الحـروف، لنـرى: هـل التبـرُّك فعـلٌ شـرعيٌّ مسـتندٌ إلـى القـرآن والسُّـنة؟ أو أنّ المسـألة ليسـتْ سـوى امتـدادٍ لذلـك العـداء القديـم الـذي أُسِّـس منـذ أنْ وقـف الحسـين عليه السلام ليقـول: «هيهـات منّـا الذلـة»؟!

الموارد الرئيسة للنقاش:

١ – شُبهة البدعة والغلوّ في تقبيل الضريح.

٢ – نقض الدعوى وإبراز التناقض في المواقف.

٣ – مشروعيّة التبرُّك على وفق القرآن والسُّنة.

٤ – عدم فعل الصحابة ليس دليلًا على التحريم.

٥ – ازدواجيّة المخالفين في مفهوم الغلوّ.

٦ – البركة من الله، ولكنْ لها وسائل.

٧ – سوء الفهم لحديث "لعن الله اليهود والنصارى...".

٨ – الحقيقة الخفيّة وراء الاعتراضات.

انطلاقة الحوار

المخالف: لماذا يصرّ الشيعة على تقبيل ضريح الإمام الحسين رضي الله عنه، وغيره من أضرحة الأئمّة، مع أنّ هذا الفعل لم يكن من فعل النبي صلى الله عليه وسلم ولا الصحابة؟ أليس هذا من الغلوّ الذي نهى عنه الإسلام؟ وإذا كان القبر مجرَّد مكانٍ لدفن الميت، فما الحاجة إلى تقبيله والتبرُّك به؟ أليس هذا نوعًا من البِدعة التي لم ترِدْ في الكتاب ولا في السُّنة؟ بل أليس هذا الفعل شبيهًا بما كان يفعله أهل الجاهليّة حين كانوا يتمسَّحون بأحجارهم، وهو ما جاء الإسلام ليُبطِله؟ وإذا كان هذا القبر مجرَّد ترابٍ، فكيف يصبح موضعًا للتبرُّك، والله وحده هو الذي يمنح البركة؟ وهل ثبت أنّ الصحابة كانوا يقبِّلون قبر النبي صلى الله عليه وسلم أو يتمسَّحون به؟ وإذا كان هذا الفعل خيرًا، فلماذا لم يفعله أبو بكر وعمر وسائر الصحابة؟

الإماميّ: عجيبٌ أمركم! تحاولون منع الناس من تقبيل ضريح الحسين عليه السلام والتبرُّك به، وكأنكم أعلم بالله من النبيّ نفسه، وكأنكم حرّاسٌ على عقيدة المسلمين بلا دليلٍ ولا برهان! هل صارت محبَّتنا لأولياء الله فجأة «بِدعة»؟ وهل أصبح التوسُّل بعباد الله الصالحين «غلوًّا» عندكم، بينما أنتم تركعون أمام قبور

رموزكم بلا اعتراضٍ؟ إنْ كان لمس القبر أو تقبيله شِركًا، فهل ستتجرأون على تكفير عمر بن الخطاب الذي قبّل الحجر الأسود، وقال: «والله إني لأعلم أنك حجرٌ لا تضرُّ، ولا تنفع، ولولا أني رأيت النبي يقبّلك ما قبّلتك»[1]؟ أو إنكم لا تستيقظون إلا عندما يكون التقديس للحسين وأهل بيت النبي؟

ثم تعالَ، وفكّر بعقلك قليلًا: إذا كان الحجر الأسود مجرَّد حجرٍ، فكيف شرّع النبي صلى الله عليه وآله وسلم تقبيله؟ أليس هذا تناقضًا مع ادّعائكم أنّ الجمادات لا تُقبَّل، ولا يُتبرَّك بها؟ وهل عندكم حجارةٌ مقدَّسة وحجارة محرَّمة، حسب الأهواء؟ أو إنّ مشكلتكم ليست مع التقبيل، بل مع من يُقبَّل ضريحُه؟

أما احتجاجكم بأنّ الصحابة لم يفعلوا ذلك، فهو دليلٌ على ضعف حجّتكم؛ لأنكم تعلمون جيّدًا أنّ الصحابة كانوا يحرصون على التبرُّك بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في حياته وبعد وفاته، وقد ثبت في كتبكم أنّ الصحابة كانوا يأخذون من وضوئه، ويتمسَّحون بثيابه، بل ويتبرَّكون بشَعره وأظفاره، وأكَّد ذلك الشيخ ابن عثيمين في كتابه «شرح رياض الصالحين» بقوله: «وقد كان الصحابة يتبرَّكون بعرَق النبي صلى الله عليه وسلم، ويتبرَّكون بريقه، ويتبرَّكون بثيابه، ويتبرَّكون بشَعره»[2]، فهل كان النبيّ يربِّي فيهم الشِّرك؟ أو إنكم تُنكرون أحاديثكم؛ لأنكم لا تحتملون أنْ يكون التبرُّك بأهل البيت عليهم السلام مشروعًا؟

---

(١) صحيح البخاري، ج٢، ص٥٧٩، ح١٥٢٠.

(٢) شرح رياض الصالحين، ج٤، ص٢٤٣.

ثم لنكشف لكم تناقضَكم الأكبر: عندما يأتي الناس لزيارة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة، هل تمنعونهم من التوسُّل به؟ إذا كنتم تمنعونهم، فقد خالفتُم الأمّة كلَّها، وإنْ كنتم تسمحون بذلك، فلماذا تُنكرون التبرُّك بمرقد الحسين عليه السلام وهو الذي قال فيه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «حسينٌ مني، وأنا من حسين»[1]؟ أم إنّ قلوبكم لا تحتمل أنْ يبقى للحسين ذكرٌ بين المؤمنين؟

وإذا كنتم تعترضون على التبرُّك بأضرِحة الصالحين، فكيف لا تعترضون على زيارة قبر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم؟ وإذا كنتم تقولون: «هذا القبر مجرَّد ترابٍ»، فهل النبيّ مدفون في «مجرَّد ترابٍ» أيضًا؟ هل صار كل مقدَّس عند المسلمين عندكم مجرَّد ترابٍ؟ أو إن معاييركم تختلف حسب أهوائكم؟

إنّ مشكلتكم الحقيقيّة ليستْ مع التقبيل، وليست مع التبرُّك، بل مع الحسين عليه السلام نفسِه؛ لأنّ قبره يمثِّل ثورةً لا تهدأ، وصوتًا يقضُّ مضاجع كلِّ ظالم، وأنت تعلم قبل غيرك أنّ هذه الدمعة على الحسين لن تنطفئ، وأنّ تقبيل ضريحه ليس مجرَّد عادةٍ، بل هو ميثاق ولاء، وعهدٌ على البقاء مع الحقِّ مهما حاولتُم طمسه.. فحاولوا كما شئتم، فالحسينُ باقٍ، وزوّاره بالملايين، وضريحه أطهر من أنْ تناله سهامُ حقدِكم!

المخالف: إنّ تقبيل الحجر الأسود ليس كالتبرُّك بالقبور؛ لأن الحجر الأسود شعيرةٌ من شعائر الله، وقد قبّله النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهو

---

(١) سنن الترمذي، ج٥، ص٦٥٨، ح٣٧٧٥.

جزءٌ من عبادة الحجِّ، بينما الأضرِحة ليست شعائر دينيّة منصوصة في القرآن أو السُّنة، فكيف تقيسون تقبيل ضريح الحسين رضي الله عنه، على الحجر الأسود؟

الإماميّ: سبحان الله! كلّما ضاقت بكم الحجّة لجأتم إلى الانتقائيّة في الأحكام، فالحجر الأسود عندكم «شعيرةٌ من شعائر الله» على رغم كونه مجرّد حجرٍ، أما ضريح الحسين عليه السلام الذي يضمّ جسد سبط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسيِّد شباب أهل الجنّة، فهو عندكم مجرَّد «قبر» لا يجوز التبرُّك به! فأيُّ ميزان معوجٍّ هذا الذي تكيلون به؟ أتريدون أنْ تُشرِّعوا قدسيّة الجماد، وتُنكروا قدسيّة أولياء الله؟ وهل صار الحجر أعظم حرمةً من ريحانة النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال فيه: «حسينٌ مني، وأنا من حسين»[1]؟!

ثم لنكشف مغالطتكم: تزعمون أنّ الحجر الأسود «شعيرة إلهيّة»، بينما التبرُّك بأضرحة الأنبياء والأولياء ليس كذلك! فأيُّ نصٍّ قرآنيّ أو حديث نبويّ قال لكم: إنّ لمس الحجر الأسود مشروع، بينما لمس ضريحِ الحسين عليه السلام بِدعة؟ إنْ كنتم تحتجُّون بكون الحجر الأسود جزءًا من الحجّ، فنحن لم نقل: إنّ التبرُّك بقبور الأولياء جزءٌ من مناسك الحجِّ، بل نقول: إنه جزء من التعبير عن المحبّة والولاء، تمامًا كما أنتم لا ترَون أنّ لمْس الحجر شرطٌ لصحة الحجّ، بل تفعلونه محبّةً واستحبابًا، فلماذا تحلِّلون لأنفسكم، وتحرِّمون على غيركم؟!

---

(١) مصدرٌ سابق.

وأما قولكم: إنّ التقبيل مرتبط بالشعائر المنصوصة، فأين في القرآن نُصَّ على مشروعيّة تقبيل الحجر الأسود تحديدًا؟ بل لماذا قبّله النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟ أليس لأن له قدسيّةً اكتسبها من ارتباطه بالتاريخ الإلهيّ والأنبياء؟ إذًا، فنحن نقبِّل ضريح الحسين عليه السلام لأنه أطهر الأجساد بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ ولأنه الشهيد الذي أبقى الإسلام نقيًّا من دنَس الطغاة، وكما كان الحجر الأسود موضعًا لفيض البركة، فإنّ جسد الحسين عليه السلام هو موضع الفيض الإلهيّ بدمائه التي حفظت الدين.

ثم دعني أضعْك أمام الحقيقة التي تحاول الهروب منها: ألم يثبُت في صحيح مسلم أنّ الصحابة كانوا يتبرَّكون بمقام النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وآثاره؟ ألم يأتِ بلال الحبشيّ بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليبكي عند قبره، ويتمرَّغ عليه شوقًا؟[1]. ألم يأخذ الصحابة تراب قبرِه للتبرُّك؟ فهل كانوا مشركين في نظركم؟!

أما احتجاجكم بأنّ الأضرحة لم تُذكر في القرآن، فاعلموا أنّ القرآن أقرّ ببناء المشاهد على قبور الصالحين كما في قصة أصحاب الكهف: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾[2]. فإذا كان هذا هو فعل الموحِّدين من أتباع الشرائع السماويّة، فأين نهيُكم عن ذلك؟ أم إنكم تفهمون القرآن على وفق أهوائكم فقط؟

---

(١) تاريخ دمشق، لابن عساكر، ج٧، ١٣٦ -١٣٧.
(٢) الكهف:٢١.

إنّ مشكلتكم الحقيقيّة ليستْ في التقبيل، بل في الحسين عليه السلام نفسه؛ لأن قبره يُذكِّركم بأنه لم يبايعْ يزيد، ولم يركع لطغيان بني أميّة، فأنتم لا تتحمَّلون أنْ يبقى قبرُه قبلةً للأحرار ومنارة للثائرين؛ ولذلك تسعَون إلى التقليل من شأن زيارته، بينما في قلوبكم تعرفون أنه لا تُقبَّل إلا المواضع المقدَّسة، وهل هناك أطهر من موضعِ دفن الحسين عليه السلام الذي هو من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو منه.

فقولوا ما شئتم، فالحسين باقٍ، وضريحُه مزارٌ العارفين، ولن تنجحوا في ثنْي شيعته عن تقبيله كما لم ينجح بنو أمية في طمس ذكراه، «فكِدْ كيدك، واسعَ سعيك، وناصبْ جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا، ولا تُميت وحْينا!»

المخالف: إنّ الصحابة كانوا يتبرَّكون بشَعر النبي صلى الله عليه وسلم أو وضوئه في حياته، لكنْ بعد وفاته لم يكن هناك دليلٌ على أنهم تمسَّحوا بقبره أو قبّلوه، فلماذا تخلِطون بين الأمرين؟

الإماميّ: ما أرى إلا عجبًا في أمركم! تطالبوننا بالدليل على مشروعيّة التبرُّك بقبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو قبور أوليائه، في حين أنكم تُقرّون بأنّ الصحابة كانوا يتبرَّكون بشَعره ووضوئه في حياته، وكأنّ هذا التبرُّك انتهى بوفاته! فهل كانَ جسد النبي صلى الله عليه وآله وسلم مبارَكًا فقط، وهو حيّ، ثم فجأة زالت بركته بعد وفاته؟! وهل انقطع ارتباط الأمّة بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد رحيله، فلم يعُد موضع جسده الشريف مستحقًّا للتقديس؟ أو إنّ هذه مغالطة مفضوحةٌ لإخفاء الحقائق التي لا تروق لكم؟!

ثم تعالَ لأفضح انتقائيّتك: تزعم أنّ الصحابة لم يتبرّكوا بقبر النبي ﷺ، فماذا تفعل برواياتكم التي تُثبت عكس ذلك؟ أما قرأتَ في سنن الدارقطني أنَّ النبي ﷺ قال: «من زار قبري وجبتْ له شفاعتي»؟(١). فإذا كانت الزيارة إلى قبره تجلب الشفاعة، فكيف تظنّ أنّ الصحابة كانوا يأتون إلى قبره مجرَّدين من المحبّة والاحترام، لا يلمسونه، ولا يقبِّلونه؟!

أما إذا كنت تزعم أنّ الصحابة لم يفعلوا ذلك، فإليك ما يُفحِمك من كتبك نفسها:

عن ابن عمر أنه كان يضع يده على قبر النبي ﷺ، فهل كان ابن عمر جاهلًا بالسُّنة أو أنه فهِم ما لم تفهمه؟

وعن بلال الحبشي أنه بعد وفاة النبي ﷺ ذهب إلى قبره، فتمرّغ عليه، وبكى، وقال: «يا رسول الله، لم أعدْ أطيق فراقك!»(٢). فهل تتّهم بلالاً بالشِّرك أو إنك ستكابر، وتُنكر الرواية؟!

وها هو الحافظ الذهبيّ يُقرّ بأنّ الإمام أحمد بن حنبل -الذي يعدّه الحنابلة إمامهم- كان يُجيز التبرُّك بآثار النبي الأعظم ﷺ، بل يُنقَل عنه أنه لم يكن يرى بأسًا بمسّ حُجرة النبي ﷺ ورمانة منبرِه، ويعدُّ مَن يُنكر ذلك متنكّبًا للصواب، بل يلحقه بالخوارج وأهل البِدَع!

(١) سنن الدارقطني، ج٣، ص٣٣٤.
(٢) وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، للسمهودي، ج٤، ص٢١٨.

ففي «سِيَر أعلام النبلاء»، ينقل الذهبيّ عن عبد الله بن أحمد بن حنبل قوله: «رأيتُ أبي يأخذ شعرةً من شعر النبي صلى الله عليه وسلم، فيضعها على فيه يقبِّلها، وأحسب أني رأيتُه يضعها على عينه، ويغمسها في الماء، ويشربه، يستشفي به. ورأيته أخذ قصعة النبي صلى الله عليه وسلم، فغسلها في حُبّ الماء، ثم شرِب فيها، ورأيته يشرب من ماء زمزم، يستشفي به، ويمسح به يديه ووجهه».

ثم يضيف الذهبي: «قلتُ: أين المتنطِّع المنكر على أحمد؟ وقد ثَبت أنّ عبد الله سأله عن الذي يلمس رمّانة منبر النبي صلى الله عليه وسلم، ويمسّ الحُجرة النبويّة، فقال: لا أرى بذلك بأسًا. أعاذنا الله وإياكم من رأي الخوارج ومن البِدَع»(١).

وهذا نصٌّ صريح في أنَّ التبرُّك بآثار النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمرٌ مشروع عند الإمام أحمد، ولا يُمكن لعاقلٍ أنْ يدّعي بأنّ ذلك من الشِّرك أو البِدَع، وإلّا لكان إمام الحنابلة -على هذا القول- ممن وقع فيما يُنكرون! ولكنْ هيهات، فإنما البِدعة والضلالة في تلك العقول التي أبتْ إلّا أنْ تكون على مذهب الخوارج في التضييق والتشدُّد، حتى أنكرت ما هو ثابتٌ عن سلفها وأئمتها!

فهل بعد هذا يبقى مجالٌ لإنكار التبرُّك بآثار النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟ أو إنّ القوم يطعنون حتى في إمامهم أحمد؟!

(١) سِير أعلام النبلاء، ج١١، ص٢١٢.

أمّا إنْ كنتَ تتساءل عن الفارق بين التبرُّك بآثار النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو حيٌّ، والتبرُّك بمقامه بعد وفاته، فاعلم أنّ البركة في مقامه لا تنتهي بوفاته، بل تزداد، وإلّا فقل لي: هل انقطعت حرمة بيت الله الحرام بموت النبيّ إبراهيم عليه السلام؟ هل أصبح طُور سيناء مجرَّد جبلٍ بلا قداسة بعد أنْ كلّم اللهُ موسى عليه السلام فيه؟ أو إنّ الأماكن التي شرَّفها الله تبقى مشرَّفة بقدر ارتباطها بأوليائه؟!

أمّا إنكاركم التبرُّك بقبور الأولياء، فأيُّ جرأة هذه على القرآن؟ ألم يقرّ الله تعالى ببناء المشاهد على قبور الصالحين في قصّة أصحاب الكهف؟! فإذا كان هذا فعلُ المؤمنين مِن قَبلُ، فلماذا أصبح اليوم بدعةً عندكم؟ أم إنكم تخشَون أنْ تبقى القبور المبارَكة مناراتٍ تَهدي الناس إلى الحقِّ؟!

وأما اعتراضكم بأنّ التبرُّك بالأضرحة لم يَثبت عن أبي بكر وعمر، فهو حجّة داحضةٌ؛ لأنهما ليسا معيارًا للحكم، بل النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو الميزان الحقّ، فإنْ فعلَهُ فعلناه، وإنْ سنَّ سُنّةً اتّبعناها، وما علينا إنْ كان غيرهما قصَّر في إدراك ذلك!

إنّ المشكلة ليستْ في التبرُّك، بل في أنكم تحاولون قطع الأمّة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام، بينما يبقى قبر الحسين عليه السلام وسائر قبور الأولياء منارات للهداية، ومهما حاولتم التهوين من شأنها، فإنّ ملايين المسلمين الذين يقفون خاشعين أمامها يفضحون زيف دعواكم، وكما بقي الحجرُ الأسود مقدَّسًا عبر الزمن، فإنّ دم الحسين عليه السلام يبقى أعظم بركةً.. والحرارة التي في

قلوب المؤمنين هي التي تحرِق أعداء الحسين كلما رأوا الناس يقبِّلون ضريحه، فكيف تتوقَّع أنْ تُطفأ هذه النار، وهي نور الله الذي أبى إلّا أنْ يُتمَّه؟!

المخالف: الإسلام جاء ليهدِم ممارسات الجاهليّة، ومنها التمسُّح بالأحجار والقبور، وقد حَذّر النبي ﷺ من تعظيم القبور، مستدلًّا بحديث: «لعَن اللهُ اليهود والنصارى، اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»(١)، فكيف تُجيزون ما نهى عنه النبي؟

الإماميّ: ما أسرعكم في انتقاء النصوص حين تحلو لكم، وما أجهلكم بسياقها ومعانيها! تلوكون هذا الحديث، وتستشهدون به، وكأنكم كشفتم بِدعتنا، بينما الحقيقة أنه ينقلب عليكم تمامًا! تريدون أنْ تجعلوا تعظيم قبور الأنبياء والأولياء بدعةً وضلالة، بينما هذا الحديث نفسُه يُثبِت أنّ اليهود والنصارى كانوا يقدِّسون قبور أنبيائهم، ولم ينهَهم النبي ﷺ عن التقديس، بل نهى عن اتِّخاذها مساجد؛ لأنهم كانوا يسجدون لها، ويتخذونها قِبلةً بديلة عن الكعبة! فهل الشيعة يسجدون على قبور الأئمة؟ أو إننا نتّجه جميعًا إلى الكعبة المشرَّفة كما فرض الله سبحانه؟!

بل الأعجبُ أنكم تستدلّون بهذا الحديث، وكأنكم نسيتم أنّ النبي ﷺ نفسه دُفِن داخل مسجده! أ فيُعقل أنْ ينهى النبي ﷺ عن بناء المساجد عند القبور ثم يكون قبرُه الشريف داخل المسجد النبويّ؟! إنْ كان ما تقولونه صحيحًا، فلماذا لم يُخرِج الصحابة

(١) صحيح البخاري، حديث ١٣٣٠.

جسد النبي صلى الله عليه وآله وسلم من المسجد، أو يمنعوا الناس من زيارته؟! أم إنّ هذا كان جائزًا للنبي، لكنه صار شركًا عندكم فقط عندما يتعلّق بالحسين عليه السلام وأهل بيته؟!

دعني أسألك: إنْ كان تعظيم القبور شِركًا كما تدّعون، فماذا تفعل بقول الله تعالى في شأن أصحاب الكهف(١)؟ ألم يذكر القرآنُ بناء مسجدٍ على قبور هؤلاء الصالحين دون أيِّ نهيٍ أو إنكار؟ فلماذا تُصرّون على تحريم ما أقرّه القرآن الكريم؟ أم إنكم تريدون أنْ تعلِّموا حتى القرآن؟!

عجيبٌ أمركم حقًّا! تتشدّدون بتحريم تعظيم قبور الأولياء، وتصفونه بالشِّرك، ثم تغضّون الطرف عن آيةٍ محكَمةٍ تهدِم أباطيلكم من أساسها! أم إنكم أحرص على التوحيد من الله ورسوله؟! أتريدون أنْ تكونوا أفقه من القرآن في بيان التوحيد والشرك؟! ما لكم كيف تحكمون؟!

إنْ كان بناء المساجد على القبور كفرًا كما تهرفون، فلماذا لم يأتِ القرآن الكريم بنهيٍ صريحٍ عن ذلك؟ أم إنكم تُنزِّهون أنفسكم عن السكوت حيث سكت اللهُ سبحانه، وتُحرِّمون ما لم يحرِّمه ربُّ العزة؟!

فكفاكم تلاعُبًا بالنصوص وتأويلها على أهوائكم! دين الله ليس مزرعة تُسيِّرونها كيفما تشتهون، فتارةً تضيِّقون واسعًا، وتارةً

(١) الكهف: ٢١.

تبتدعون دينًا جديدًا ما أنزل الله به من سلطان!

أما حديثكم عن التمسُّح بالأحجار، فبئس ما تتلون! لأنكم تقبِّلون الحجر الأسود، وتتمسَّحون به، وتبكون عنده، ثم تأتون لتُنكروا التبرُّك بقبور الأنبياء وأولياء الله! أ تريدون أنْ تقولوا: إنّ هذا الحجر وحده يستحقُّ التقديس، بينما جسَّد سيد شباب أهل الجنّة الحسين عليه السلام لا حرمة له؟! بل حتى عائشة كانت تُجيز لمس قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم والتبرُّك به، فقد روى ابن أبي شيبة أنّ فاطمة بنت النبي كانت «تزور قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتأخذ من تراب القبر، وتمسح عليه، وتبكي»(١). فهل تتّهمون ابنة النبيّ بالشرك؟ أو إنكم تنكرون الروايات لمجرَّد أنها تفضحكم؟!

أما زعمكم أنّ الإسلام جاء «ليهدم ممارسات الجاهليّة»، فهذا حقٌّ أُريد به باطلٌ؛ لأنّ الإسلام لم يأتِ ليهدم تعظيم الأولياء والصالحين، بل جاء ليهدِم عبادة الأصنام وادِّعاء الألوهيّة فيها، فكيف تخلطون بين تقديس الأولياء والتوسُّل بهم وبين عبادة الأوثان؟! وإذا كان احترام قبور الأنبياء بِدعةً، فماذا تقولون عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان يزور القبور، ويدعو عندها، ويقول: «زوروا القبور، فإنها تذكِّركم بالآخرة»، وصحَّحه الألباني(٢)؟

وأُكرِّر في كل مرةٍ أنّ مشكلتكم الحقيقيّة ليست مع التبرُّك، ولا مع تعظيم القبور، بل مع الحسين عليه السلام نفسه؛ لأن قبره هو

(١) إتحاف السائل بما لفاطمة من المناقب والفضائل، للمناوي، ص١٠٣.
(٢) سنن ابن ماجه، ج١، ص٥٠٠.

الشاهد الذي يفضح كلّ من سكت عن يزيد، وتخاذل أمام الطغاة. تريدون أنْ تمحوا ذِكره كما حاول أسلافُكم، لكنْ كما فشل بنو أمية في طمس كربلاء، ستفشلون أنتم أيضًا؛ لأننا لا نقدِّس تراب القبر فحسب، بل نحمل راية الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ في قلوبنا، وهيهات أنْ تنطفئ هذه الشعلة!

المخالف: إنّ أبا بكر وعمر والصحابة لم يُنقَل عنهم تقبيل قبر النبي صلى الله عليه وسلم أو التبرُّك به بعد وفاته، ولو كان ذلك خيرًا لسبقونا إليه، فكيف تزعمون أنّ هذا الفعل مستحبّ؟

الإمامي: أمَا آن لكم أنْ تتوقَّفوا عن هذا الجدل السقيم؟ تحتجّون بعدم فعل أبي بكر وعمر، وكأنه ميزان الحق، وكأنّ الإسلام أصبح يُختزَل في اجتهادات شخصيّة، وكأنّ عدم نقل فعلٍ عن بعض الصحابة دليلٌ على التحريم! فأين دليلُكم الصريح على أنّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ نهى عن التبرُّك بقبره؟ بل أين نهْي القرآن عن ذلك؟ أتَّحداكم أنْ تأتوا بنصٍّ واحد، ولن تجدوا إلا صمتًا مريبًا؛ لأن الحقيقة واضحة لمن لم يُعمِ التعصُّب بصره.

وزعمُكم بأنّ الصحابة لم يكونوا يتبرَّكون بقبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فهذا جهلٌ فاضح أو تجاهل متعمَّد؛ لأن ابن عمر نفسه -كما ذكرنا سابقًا- كان يضع يده على القبر، بل إنّ الإمام أحمد نفسه كان يرى جواز التبرُّك بقبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ولم يُنكر ذلك[1]، فهل صار أحمد بن حنبل مبتدِعًا عندكم؟! أو إنكم تغضّون الطرف عن كلِّ

(١) العلل ومعرفة الرجال، ج٢ ص٣٥.

ما يهدم استدلالاتكم الواهية؟!

وإنْ كنت تظن أنّ عدم فعل الصحابة أمرٌ ملزِمٌ، فأنت واقعٌ في مغالطةٍ واضحة؛ لأن عدم الفعل لا يدل على التحريم، وإلّا فأخبِرْني: هل كل ما لم يفعله أبو بكر وعمر صار بدعةً وضلالة؟ فلماذا لم تحرِّموا تدوين الحديث، وقد مُنع في زمانهما ثم أُجيز لاحقًا؟ لماذا لم تمنعوا بناء المدارس الفقهيّة وتدوين أصول الفقه وعلم الرجال، مع أنه لم يكن من سُنَنهم؟ أم إنكم تجعلون الصحابة ميزانًا حين تشاؤون، وتُلقُون بمقاييسكم خلف ظهوركم حين لا توافِق أهواءكم؟!

ثم لو سلّمنا لكم جدلًا بهذا المنطق السّقيم، فهل ستُحرِّمون كلّ ما لم يكن في عهدهم؟ إذًا، أوقفوا مكبِّرات الصوت في المساجد، وألغُوا طباعة المصاحف، وامتنعوا عن الفتاوى المدوَّنة؛ لأن الصحابة لم يُقرُّوها، ولم يفعلوها.. لكنكم - وكما عهدناكم - تستميتون في التشديد على ما يخالف هواكم، وتغضُّون الطرف عمّا تستفيدون منه، فتصير البِدعة عندكم انتقائيّة، والتحريم عندكم مزاجيًّا، والمقياس ليس الشرع، بل ما تهوى أنفسُكم.

فقفْ أمام الحقائق بعقلٍ واعٍ، بدلًا من أنْ تظلّ تدور في حلقة مغلَقة من المصادرات والمغالَطات التي لا تزيد صاحبها إلا افتضاحًا.

إنّ عقدتكم الحقيقيّة لم تكن يومًا في التبرُّك أو القبور، بل

في مقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام؛ لأن قبورهم تذكِّركم بأنهم هم الامتداد الشرعيّ للإسلام، وأنّ من حاول تهميشهم لم ولن ينجح؛ لأن ذِكرهم باقٍ على رغم كلِّ محاولات التشويه والتغييب.. فاستمرّوا في إنكاركم، فإنّ أضرحة أهل البيت عليهم السلام ستبقى مزارات يُقبِّلها الملايين، وستظلّ القلوب تهفو إليها، شاء من شاء، وأبى من أبى، وكما حاول بنو أميّة طمس قبر الحسين عليه السلام فلم يزدهم ذلك إلا خِزيًا، فأنتم اليوم تكرِّرون فشلهم، وستَرَون النتيجة ذاتها؛ لأن صوت الحسين عليه السلام أعلى من أنْ يُطمس، وذِكره أعظم من أنْ يُمحى، وحرارته باقيةٌ في القلوب.

المخالف: إنّ الإسلام يحذِّر من الغلوِّ في تعظيم الأولياء، وإنّ التبرُّك بهذه الطريقة قد يؤدّي إلى المبالغة في تعظيم الأموات حتى يصل إلى حدِّ الشرك، وأنّ هذا الباب يجب أنْ يُغلق حتى لا يؤدِّي إلى الانحراف العقَديّ.

الإماميّ: ما أجهلكم بمعاني الغلوّ، وما أضعف حجَجكم حين تعجزون عن إيجاد دليلٍ صريح على تحريم التبرُّك، فتتذرَّعون بمخاوف واهية من «الغلوّ» و«الخوف من الشرك»، وكأنّ الإسلام جاء ليحرِّم كل شيء يمكن أنْ يُساء استخدامه! فهل نترك ما هو مشروعٌ بحجّة أنّ بعض الجهَلة قد يسيئون فهمه؟ أو إنّ هذا منطقٌ بائس يفتح باب التشدُّد الأعمى، ويقود إلى تعطيل كثيرٍ من الأحكام الشرعية؟!

إذا كنتم تزعمون أنّ تعظيم الأولياء قد يؤدِّي إلى الغلوّ، فهل

ستُحرِّمون أيضًا تعظيم الكعبة؛ لأنها قد تُعبد من دون الله؟ أو إنّ التشدُّد لا يُستخدم إلا حين يكون الهدف هو أهل البيت عليهم السلام؟

ثم تعالَ أرني أين نهى الإسلام عن تعظيم الأولياء إذا لم يصلْ إلى حدِّ التأليه؟ بل على العكس، فالله سبحانه يُثني على تعظيم شعائره، فيقول: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[1]، فكيف صار تعظيم الحسين عليه السلام، الذي هو ابن رسول الله وسيِّد شباب أهل الجنّة بدعةً، بينما تعظيم الكعبة والحجر الأسود شعيرة مقدَّسة؟ أم إنّ لديكم معايير، تُحلِّلون ما يناسبكم، وتحرِّمون ما يخالف أهواءكم؟!

أمّا تحذيركم من الغلوّ، فهو حجّةٌ مفلسة؛ لأن الغلوّ هو تجاوز الحدِّ المشروع، لا مجرَّد التقديس والاحترام. ولو كان التبرُّك نوعًا من الغلوّ، فهل كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يُقرّ الغلوّ حين كان الصحابة يأخذون من وضوئه، ويتبرَّكون بشَعره، ويحتفظون بأغراضه؟ وهل كانت فاطمة الزهراء عليها السلام أو بلال الحبشيّ غاليَين عندما كانوا يبكون عند قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويتمرَّغون عليه؟ أو إنكم لا تعدُّون ذلك غلوًّا؛ لأن الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لكنه يصبح غلوًّا حين يكون عن الحسين عليه السلام؟!

ثم أيّ مذهبٍ هذا الذي يحكم بتحريم التبرُّك خوفًا من الشرك؟ فهل جاء الإسلام ليحارب أصل العقيدة أم ليحارب احتمال الانحراف؟ وهل سنُحرِّم البيع؛ لأن بعض التجّار يغشّون؟

(١) الحج: ٣٢.

هـذا منطـقٌ سـخيفٌ، لا يقبلـه عاقـل؛ لأن الإسـلام لـم يـأتِ لمنـع الوسـائل المشـروعة، بـل جـاء ليمنـع الانحـراف، ولـو كنتـم صادقيـن فـي تحذيركـم مـن الغلـوّ، لكنتـم أول مَـن يمنـع الغلـوّ فـي تعظيـم حـكّام الجـور الذيـن رفعتموهـم فـوق مقامهـم، فكيـف تسـتنكرون تعظيـم أوليـاء اللـه، بينمـا تصمتـون عـن تعظيـم الطغـاة؟!

إنّ عقدتكـم التـي لا شـفاء منهـا ليسـت مـع الغلـوّ، بـل مـع الحسـين عليه السلام نفسـه؛ لأن قبـره صـار منـارة للأحـرار، وزيارتـه تجـدِّد البيعـة للحـقِّ؛ ولذلـك تسـعَون إلـى إغـلاق هـذا البـاب، كمـا فعـل أسـلافكم حيـن حاولـوا طمـس قبـره، ففشـلوا، وسيفشـل كلُّ مـن يسـير علـى نهجهـم.

المخالف: البركـة مـن اللـه وحـده، فـلا يجـوز الاعتقـاد بـأنّ ضريـح الحسـين أو أيّ قبـرٍ آخـر يمكـن أنْ ينقـل البركـة أو ينفـع أو يضـرّ، لقولـه تعالـى: ﴿قُـلْ لا أَمْلِـكُ لِنَفْسِـي نَفْعًـا وَلَا ضَـرًّا إِلَّا مَـا شَـاءَ اللَّـهُ﴾[1]، فكيـف يجـوز الاعتقـاد بـأنّ هـذه الأضرحـة مباركـة؟

الإمامي: أمَـا آن لكـم أنْ تفقهـوا معانـي القـرآن بـدلًا مـن اجتزائهـا علـى وفـق أهوائكـم؟ تتشـدّقون بـأنّ البركـة مـن اللـه وحـده، وكأننـا نقـول بـأنّ الأضرحـة تخلُـق البركـة مـن ذاتهـا أو تملـك النفـع والضـرّ اسـتقلالًا، فـي حيـن أنّ كلّ بركـة فـي الوجـود ليسـت إلا بـإذن اللـه سـبحانه، وهـذا أصـلٌ لا يختلـف عليـه اثنـان، ولكـنّ مشـكلتكم أنكـم لا تميِّـزون بيـن السـببيّة والتفويـض المطلـق، فكمـا أنّ المطـر لا ينـزل

(١) الأعراف: ١٨٨.

إلا بإرادة الله عزّ وجلّ، ولكنه ينزل عبر السحاب، وكما أنّ الشفاء لا يأتي إلّا من الله سبحانه، ولكنه يأتي عبر دواء، فكذلك البركة لا تأتي إلّا من الله تبارك وتعالى، ولكنها تنزل حيث جعلها الله سبحانه، ومن هنا يأتي التبرُّك بمواضع وأشخاص أذِن الله تعالى في تعظيمهم.

فإنْ كنتم تحتجّون بالآية: ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾(١)، فهل ستقولون بعدها: إنّ ماء زمزم لا يحمل بركة؟ أو إنّ الكعبة ليست موضعًا مباركًا؟ ألم يقل الله تعالى عنها: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾(٢)؟ أم إنكم تؤمنون ببركة الجماد، وتكفرون ببركة دماء الأولياء؟!

ثم أخبروني، ألم يجعل الله سبحانه بركةً في أماكن محدَّدة، وذكَر ذلك صراحة في القرآن؟ ألم يقل الله سبحانه عن بيت المقدس: ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾(٣)؟ فإذا كانت الأرض يمكن أنْ تكون مباركة، فكيف تُنكرون أنْ يكون جسد الحسين عليه السلام الذي قدّسه الله بدمائه الزكيّة موضعًا لنزول البركة؟ أم إنكم تؤمنون ببركة حجرٍ، وتكفرون ببركة ابن رسول الله؟!

أمّا زعمكم أنّ التبرُّك بالأضرِحة يعني الاعتقاد بأنها تملك

(١) الأعراف:١٨٨.
(٢) آل عمران:٩٦.
(٣) الإسراء:١.

النفع والضرّ، فهذا كذب وافتراء؛ لأننا لا نقول بأنّ القبر يخلق البركة، بل نقول: إنه موضعٌ تنزِل فيه رحمة الله وكرامته، تمامًا كما جعل الله الكعبة محلًّا للطواف والسعي، على رغم أنّ الطواف حول الحجر بحدِّ ذاته لا ينفع، ولا يضرُّ، ولكنه مشروع؛ لأن الله سبحانه أمرَ به. فهل ستكفِّرون الحجيج؛ لأنهم يستلمون الركن اليماني، ويتبرَّكون بالحجر الأسود؟ أو إنّ هذه الممارسات مباحةٌ لكم فقط؛ لأنها تروق لعقيدتكم؟!

أمّا إنْ كنتم تُنكِرون التبرُّك بقبور الصالحين بحجّة أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يصرِّح بذلك، فماذا تفعلون برواياتكم التي تُثبت أنّ الصحابة كانوا يتبرَّكون بآثار النبي حتى بعد وفاته؟ ألم يحتفظوا بثيابه وأوانيه، ويتبرَّكوا بها؟ فهل كانت الأواني والثياب أحقُّ بالبركة من ريحانة النبي وسيِّد شباب أهل الجنّة والذي قال عنه «حسين مني، وأنا منه»؟!

الحقيقة أنكم لا تُنكرون التبرُّك؛ لأنه شرك، بل تنكرونه؛ لأنه مرتبط بالحسين عليه السلام وأهل البيت؛ لأن هذه الأضرِحة هي منارات تهزُّ عروش الظالمين، وتذكِّرهم بأنّ الطغاة يسقطون، ويبقى الحقُّ خالدًا؛ ولذلك تحاولون عبثًا أنْ تمنعوا الناس من التعلُّق بها، ولكنْ كما فشل أسلافكم في طمس قبر الحسين عليه السلام، ستفشلون أنتم أيضًا؛ لأن نور الله لا يُطفَأ، وبركة الحسين لا تُمحى، ودماؤه ستبقى لعنةً على كلِّ من أراد أنْ يطفئ هذا النور الإلهيّ!

الخلاصة والنتائج:

في هذا الحوار، ظهر بوضوحٍ أنّ المخالف لا يعترض على التبرُّك أو التقبيل لذاتهما، بل مشكلته الحقيقيّة تكمن في الحسين عليه السلام وكل ما يمُتّ إليه بصلة، فحاولَ جاهدًا أنْ يُلبِس المسألة لَبوس الغلوّ والبِدعة، متذرِّعًا بأنّ هذا الفعل لم يكن من فعل الصحابة، وكأنّ معيار التشريع عنده ليس الوحي الإلهيّ، بل اجتهادات أفرادٍ لم يجعلهم الله ميزانًا للحقِّ.

إلا أنّ الإماميّ أفحمه بحجَجٍ دامغة، مبيِّنًا أنّ الصحابة أنفسهم كانوا يتبرَّكون بآثار النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويتلمّسون مواضعه، بل إنّ عمر بن الخطاب قبَّل الحجر الأسود على رغم إقراره بأنه حجرٌ لا يضرّ، ولا ينفع، مما يُثبِت أنّ التبرُّك بالأشياء المباركة ليس شركًا ولا غلوًّا، بل هو تعبيرٌ عن الحبِّ والاحترام للمقدَّسات.

وعليه، تساءل الإماميّ: كيف صار الحجر الأسود شعيرة مقدَّسة، بينما يُصبِح ضريح الحسين عليه السلام بِدعة وضلالة؟!

ثم فضح الإماميُّ تناقض المخالف، فذكَّره بأنّ الإسلام لم يُحرِّم بناء المشاهد على قبور الأولياء، بل أقرَّ بذلك في قصة أصحاب الكهف، فكيف يتجرَّأ هؤلاء على تحريم ما أقرَّه الله؟!

وبيَّن أنّ الصحابة لم يكونوا معصومين، فكيف يُجعَل عدم فعلهم دليلًا على التحريم؟ وهل صار الإسلام يُختزَل في اجتهادات بعضهم؟! ثم وجّه له سؤالًا قاطعًا: إذا كان عدم الفعل

دليـلًا علـى البِدعـة، فلمـاذا لـم تحرِّمـوا جمـع القـرآن فـي مصحـفٍ واحـد أو تدويـن الحديـث أو بنـاء المـدارس الفقهيّـة؟! أم إنّ التحريـم عندكـم انتقائـيٌّ، يُسـتخدَم حيـث يناسـب هواكـم فقـط؟!

وحيـن لجـأ المخالـفُ إلـى ذريعـة «الخـوف مـن الغلـوّ»، كان الـردّ أقسـى وأشـد وضوحًـا، إذ بيَّـن الإماميُّ أنّ الإسـلام لـم يُشـرِّع الأحـكام بنـاءً علـى المخـاوف والاحتمـالات، وإلّا لوجـب تحريـم الحـجّ نفسِـه خوفًـا مـن أنْ يعبُـد النـاسُ الكعبـة! فـأيّ منطـقٍ أعـوج هـذا الـذي يمنـع النـاس مـن تعظيـم أوليـاء اللـه بحجّـة أنّ الجهَلـة قـد يُسـيئون الفهـم؟!

والنتيجـة أنّ الإمامـيّ أمـاط اللثـام عـن الحقيقـة التـي يحـاول المخالـف طمسـها، فقالهـا صريحـةً: إنّ مشـكلتكم ليسـت مـع التبـرُّك، بـل مـع الحسـين عَلَيْهِ السَّلَامُ نفسِـه؛ لأن قبـره شـاهدٌ علـى ثورتـه، وصوتُـه لا يـزال يقـضُّ مضاجـع الظالميـن، ودمُـه لعنـةٌ علـى مَـن بايعـوا يزيـد، وسـكتوا عـن الجريمـة الكبـرى.

الفصل السادس

زيارة الإمام الحسين عليه السلام بين الحقيقةِ والتشويه الأُمويّ

زيارةُ الإمام الحسين عليه السلام، بين الحقيقةِ والتشويه الأُمويّ

في هذا الحوار يجري النقاش بين إماميٍّ شيعيٍّ ومخالفٍ من أهل السُّنة حول زيارة الإمام الحسين عليه السلام، وهي من الشعائر العظيمة التي يُحييها الشيعة بتوافد الملايين إلى مرقده الطاهر، إحياءً لذكراه وتجديدًا للعهد مع مبادئِه، لكنّ المخالفَ يطرح مجموعةً من الإشكالات والاتّهامات التي تُجِّسد تصوُّرات خاطئة أو تحريفًا متعمَّدًا لفهم حقيقة الزيارة.

المخالف يزعم أنّ الشيعة يروِّجون لفكرة أنّ زيارة الحسين عليه السلام تمنح الزائر صكَّ غفرانٍ مطلق، مما يدفع بعض الناس إلى استغلالها مبرِّرًا للتمادي في المعاصي.

في الجانب المقابل يردُّ الشيعيّ الإماميّ ببيانٍ علميٍّ دقيق يكشف زيف هذه الادِّعاءات، ويؤكِّد أنّ الزيارة ليستْ وسيلة للتحلُّل من الأحكام الشرعيّة، بل هي مدرسة للإصلاح والتوبة والارتباط بالقِيَم الإسلامية الحقّة.

ومع تصاعد الحوار يلجأ المخالف إلى محاولةِ الطعن في الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام التي تتحدَّث عن فضل زيارة الإمام الحسين عليه السلام ومغفرة الذنوب، مدَّعيًا أنّ فيها مبالغة أو غلوًّا يتجاوز ما وردَ في القرآن الكريم عن العبادات الأخرى..

لكنّ الإماميّ يدحض هذا الإشكال، ويبيّن أنّ المغفرة في الإسلام مشروطة بالتوبة، وأنّ الروايات التي تتحدَّث عن فضل الأعمال الصالحة كثيرةٌ ومتنوِّعة، فلماذا ينزعج المخالف فقط من الروايات المتعلِّقة بالإمام الحسين عليه السلام؟!

وفي محاولةٍ أخرى لإثبات صحة موقفِه، يعترِض المخالف بأنّ هناك من الشيعة مَن يزورون الحسين عليه السلام، ثم يعودون إلى ارتكاب المعاصي، متسائلًا: أ لا يدلّ ذلك على أنّ الشيعة يفهمون الزيارة على أنها كافيةٌ وحدها، دون الحاجة إلى التزامٍ دينيّ؟! وهنا يفنِّد الشيعيّ الإماميّ هذا الإشكال بطرحٍ منطقيٍّ متين، يُثبِت أنّ وقوع الخطأ من بعض الأفراد لا يعني فساد العقيدة، وإلّا لوجب الطعنُ في كلِّ العبادات بسبب وجود مَن يمارسها، ثم يقع في المعاصي بعدها.

ومع وصول الحوار إلى ذروته، يحاول المخالف الانتقال إلى إشكالٍ آخر متعلِّقٍ بحجم مراسم الزيارة، فيرى أنّ كثرة أعداد الزوّار والمواكب والمراسيم توحي بأنّ الشيعة يجعلون الزيارة أعظم من كلِّ العبادات الأخرى.. لكنّ الإماميّ يردُّ بصرامةٍ موضِّحًا أنّ اجتماع الملايين حول الحسين عليه السلام ليس مجرَّد توافُدٍ على قبر، بل هو امتدادٌ لمشروعه ونهضته وثورته، وأنّ هذه التظاهرة العظيمة تعبِّر عن ارتباط الأُمة برموز الحقِّ والعدل، تمامًا كما أوجب الله الحجَّ على أنه محفلٌ عالميٌّ يجمع المسلمين.

وهذا الحوار يكشف ازدواجيّة المعايير التي يستخدمها

المخالفون في الطعن بشعائر أهل البيت عليهم السلام، حيث يقبلون فضل الأعمال الصالحة عندما تُذكَر في سياقاتٍ أخرى، لكنهم يستنكرونها عندما ترتبط بالحسين عليه السلام، يُثبِت الإماميّ أنّ زيارة الحسين عليه السلام ليستْ مجرَّد طقس دينيّ، بل هي معركةٌ فكريّة وروحيّة مستمرّة، يُراد منها إبقاء نهج الحسين عليه السلام حيًّا في نفوس المؤمنين، وتجديد الرفض لكلِّ أشكال الظلم والانحراف.

وهكذا يتبيَّن للقارئ أنّ الإشكالات التي يثيرها المخالفون ليست ناتجة عن طلب الحقيقة، بل عن موقفٍ سابق تجاه الحسين عليه السلام وشيعته، مما يجعل الحوار كاشفًا لحقيقة الصراع بين الإسلام المحمديّ الأصيل، والإسلام الذي حوّلتْه السياسة إلى أداةٍ لتبرير الظلم والطغيان.

الموارد الرئيسة للنقاش:

١- افتراءُ مقولةِ «زُرِ الحسين، وافعل ما شئت».
٢- زيارة الحسين عليه السلام والمغفرة.
٣- النصوص التي تتحدَّث عن غفران الذنوب.
٤- مغالطة أنّ سلوك بعض الزوّار بعد الزيارة دليلٌ على فساد العقيدة.
٥- مقارنة زيارة الحسين بالعبادات الأخرى.
٦- حجم المراسم والجموع المليونيّة.
٧- الغرض الحقيقيّ من التشكيك في زيارة الحسين عليه السلام.

انطلاقة الحوار

المخالف: أنتم تزعمون أنّ زيارة الحسين رضي الله عنه، تمنح صكوك الغفران، فتشجِّعون أتْباعكم على ارتكاب الذنوب دون خوفٍ من العقاب.

الإماميّ: إنّ ما تردِّده مِن دعوى أنّ الشيعة يعتقدون بأنّ زيارة الإمام الحسين عليه السلام تمنح صكَّ الغفران بلا قيدٍ ولا شرط، فتشجِّع أتْباعها على ارتكاب المعاصي، ليس إلا فِرية لا أصل لها في عقيدة أتْباع أهل البيت عليهم السلام، وإنما هي تهمةٌ اختلقها الجاهلون أو المغرِضون الذين لم يكلِّفوا أنفسهم عناء فهْم حقيقة هذه الشعيرة المباركة.

إنّ زيارة الإمام الحسين عليه السلام ليستْ مجرَّد ممارسةٍ ظاهريّة، ولا هي رخصةٌ تمنح الإنسان حريّة اقتراف الذنوب دون حسابٍ، بل هي محطّة روحيّة كبرى تعيد للإنسان ارتباطه بالله، وتوقظ ضميره، وتحثّه على التوبة والإنابة. فقد ثبت في الروايات أنّ زيارة الحسين عليه السلام تكفِّر الذنوب، كما ورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «مَن أتى قبر الحسين عليه السلام عارفًا بحقِّه، غَفر الله له ما تقدَّم مِن ذنبه وما تأخَّر»، ولكنْ هل هذا يعني أنّ الزيارة تُطلِق يد الإنسان في المحرَّمات؟ أو أنّ المقصود هو أنّ الزيارة تمحو الذنوب لمن جاءها تائبًا، نادمًا، مخلصًا في نيَّته؟ إنّ منطق العقل والشرع معًا لا يقبلان أنْ يُعطى الإنسان

رخصة لفعل المعاصي، وإلّا لكان يمكن القول بأنّ الحجّ، الذي ورد في الحديث النبويّ أنه «يهدم ما قبله»، يعطي للحاجّ الحقَّ في العودة إلى الذنوب بلا حسابٍ! ولكنْ كما أنّ الحجّ مشروط بالتوبة الصادقة، فكذلك الزيارة، فهي تطهيرٌ للنفس لمن جاءها بقلبٍ منيب، وهي بابٌ للرجوع إلى الله لمن أراد الإصلاح، لا لمن أراد التّمادي في الخطايا.

ثم إنّ مدرسة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ هي مدرسة الطُّهر والعبودية، والتضحية في سبيل الله، ومواجهة الظلم والانحراف، فكيف تُفهَم نهضته على أنها تبريرٌ للذنوب؟ وهل مَن قدّم نفسه وأهل بيته وأصحابه قرابين على مذبح الإصلاح، يمكن أنْ يكون نهجه سببًا للفساد؟ بل إنّ زيارته إحياء للضمير، وتأكيدٌ على التمسُّك بقِيَم الحقّ، وسيرٌ على نهجه ونهج جدِّه المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

إنما يُصِرّ بعض المغرضين على تشويه الحقائق؛ لأنهم لا يقرؤون تراث أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إلّا من زاوية الاتّهام والتشويه، وإلّا فليأتوا بدليلٍ واحد، من مصدرٍ معتبَر، يُثبِت أنّ الشيعة يعتقدون بأنّ الزيارة تُبيح المحرَّمات أو تُسقِط التكاليف الشرعيّة! ولن يجدوا إلا أكاذيب رُوِّجت في سياق العداء، لا في سياق البحث العلميّ والإنصاف.

إننا ندعو كلَّ مَن يريد معرفة الحقيقة إلى أنْ يقرأ بإنصاف، ويتحرَّى قبل أنْ يتَّهم، ويتجرَّد من الأوهام قبل أنْ يحكم، فإنما الحقّ واضح لمن طلبه، وأما المغالطات فلا تزيد صاحبها إلا انحرافًا عن جادّة الصواب.

المخالف: رواياتكم تَذكُر أنّ زيارة الحسين رضي الله عنه، تغفر الذنوب، ما تقدَّم منها وما تأخَّر، فكيف لا تعني أنّ الإنسان يُصبح حرًّا في فعل ما يشاء بعد الزيارة؟!

الإمامي: إنّ مَن يتصدّى لمناقشة أحاديث أهل البيت عليهم السلام دون أنْ يفقه منهجهم، ولا يعرف سياقات كلامهم، ولا يتذوَّق معاني ولائهم، فلا عجب أنْ يقع في إشكالاتٍ واهيةٍ كهذه، التي لا تعدو كونها سوء فهْمٍ ناشئٍ عن القراءة المجتزَأة للنصوص، أو عن تحميلها ما لا تَحتمِل من معانٍ بعيدةٍ عن مراد المعصوم.

إنك تتوهَّم أنّ المغفرة التي وردت في رواياتنا بشأن زيارة سيِّد الشهداء عليه السلام تعني تفويضًا مفتوحًا للزائر، ورفعًا للحساب عنه بعد الزيارة، كأنها صكٌّ يُجيز له اقتراف المعاصي كيفما شاء، وتلك لعمري قراءةٌ ساذجةٌ لا يقرُّها عقلٌ، ولا يقبلها فكرٌ تأدَّب في مدرسة أهل العصمة عليهم السلام. فإنك إنْ كنتَ تطلب الحقَّ، فأعِرْني سمعك وفتْح بصيرتك، لأكشف لك عن بطلان هذا الإشكال من أساسه.

أما أوّل ما يجب أنْ تعلمه، فهو أنّ المغفرة التي وعدتْ بها هذه الروايات ليستْ عمليّةً آليةً تُعطى لكلِّ من ذهب بقدمَيه إلى قبر الحسين عليه السلام، بل هي لُطفٌ إلهيٌّ مشروطٌ بإخلاص النيّة، وصفاءِ القلب، وصدق التوبة، والزيارة عن معرفةٍ وبصيرةٍ. وهل تظنّ أنّ الله سبحانه - وهو أعدل العادلين - يغفر لمجرَّد المشي،

دون أنْ يكون في قلب العبد يقظةٌ وندمٌ ورغبةٌ في إصلاح النفس؟! إنك تخلط بين الرحمة الإلهيّة التي تتنزَّل على أهل التوبة، وبين تصوُّرك الخاطئ عن المغفرة المطلقة بلا حسابٍ، وهو خلطٌ ناشئٌ عن الجهل بحقائق الدين.

ثم إنّ هذه الروايات قد قيَّدت المغفرة بقيدٍ جليٍّ لا يخفى على مَن له أدنى تأمُّل، إذ يقول الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَن زار الحسين عارفًا بحقِّه غفر اللهُ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر»، فهل المعرفة بحقِّ الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ تعني مجرَّد الذهاب إلى كربلاء جسدًا بلا روح؟! أو أنّ المراد بالمعرفة هو استيعاب مقام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، والإيمان بقضيّته، والارتباط بمبدئه ونهجه، والتحوُّل الداخليّ الذي يجعل الزائر رجلًا جديدًا، مقبلًا على الطاعة، نافرًا من المعصية؟! فإنك إنْ كنت تظنّ أنّ هذه المغفرة تشمل كلّ زائرٍ دون اعتبارٍ لحاله، فكأنك تتجاهل أنّ الله لا يعبث بحكمته، ولا يُخالف سُنَنه التي وضعها لعباده.

أما قولك: إنّ هذه المغفرة تعني أنّ الإنسان يصبح حرًّا في فعل ما يشاء بعد الزيارة، فذاك من أغرب ما يُتصوَّر؛ إذ لا ملازمة بين مغفرة الذنوب الماضية، وبين إطلاق العِنان للإنسان في المستقبل! فإنّ الله إذا غفر لعبده، فإنما يطهِّره من ذنوبه السابقة، لا أنه يعطيه صكًّا مفتوحًا للمعاصي القادمة، وإلّا لكان الدِّين هزلًا، وكان الحساب عبثًا، وكان الجزاء لغوًا، وهذا ما لا يقوله مسلمٌ موحِّد. بل إنّ مَن تاب توبةً صادقةً، وعاد بعدها إلى الذنب، عاد

إلى دائرةِ الحساب، وما كان له أنْ يحتجّ بالمغفرة السابقة، فإنّ ذلك جهلٌ بحقيقة العدل الإلهيّ، وخلْطٌ بين العفو عن الماضي، والإذن في المستقبل، وحاشا أنْ يكون ذلك في دين الله.

ثم تأمَّلْ في جوهر الزيارة، وانظرْ بعين البصيرة، فإنّ الحسين عليه السلام لم يُقتَل ليكون بابًا للفوضى، ولا ليكون منبرًا لمن يتاجر بالمغفرة، بل خرج قائلًا: «إني لم أخرج أشِرًا ولا بطِرًا، ولا مفسدًا ولا ظالمًا، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدِّي»، فكيف يُتصوَّر أنّ زيارته تُصبح ذريعةً للفساد؟! بل إنّ الزيارة الحقّة -كما أرادها أهل البيت عليهم السلام- هي مدرسةٌ تربويّةٌ تهذِّب النفس، وتُحيي الضمير، وتدفع الزائر إلى التغيير، حتى يكون حسينيًّا في سلوكه، كما هو حسينيٌّ في زيارته.

أما مَن ظنّ أنّ الزيارة مجرَّد شعيرةٍ ظاهريّةٍ تكفي وحدها للنجاة، دون أنْ تصحبها معرفةٌ وعزمٌ على الاستقامة، فهذا إنسانٌ لم يفهم دينَه، ولم يفقهْ معنى ولاية الحسين عليه السلام. فإنّ الولاية ليست مجرَّد لَقلقة لسانٍ، ولا مجرَّد خطواتٍ تُقطَع إلى كربلاء، بل هي التزامٌ بمنهج الحسين عليه السلام، وتحمُّلٌ لرسالته، واتِّباعٌ لدربه، فإذا لم يكن ذلك، فزيارة هذا الإنسان لا تساوي عند الله جناح بعوضة.

فإنْ كنتَ منصفًا، وألقيت عنك العصبيّة، علمت أنّ إشكالك هذا لا أساسَ له، وأنّ هذه الروايات لا تمنح أحدًا ترخيصًا للمعصية، وإنما تفتح باب الرحمة لمن وعى معناها، وسلك سبيلها، والتزم

بشـرائطها. فابحـثْ عـن الحـقِّ بإنصـافٍ تجـدْ أنّ أهـل البيـت عليهم السلام أحـرص النـاس علـى تطهيـر النفـوس، وأبعدهـم عـن أنْ يكـونَ دينهُـم مجـالًا للعبـث، والله المسـتعان علـى مَـن جهِـل حقَّهـم أو أراد طمـس نورهـم.

المخالف: هنـاك شـيعة يـزورون الحسـين، ثـم يعـودون إلـى المعاصـي، أ لا يـدلّ ذلـك علـى أنكـم تفهمـون الزيـارة بهـذه الطريقـة؟!

الإماميّ: إنـك تطـرح هـذا الإشـكال متوهِّمًـا أنـك أمسـكتَ علـى شـيعة الحسـين عليه السلام مأخَـذًا، أو أنـك وجـدتَ فـي سـلوك بعـض الأفـراد دليـلًا علـى خلـلٍ فـي العقيـدة أو فسـادٍ فـي المنهـج، ومـا علمـت أنـك بهـذا المنطـق ترتكـب مغالطـةً فاضحـةً؛ إذ تقيـس الحقائـق الدينيّـة بممارسـات بعـض النـاس، بـدل أنْ تقيـسَ النـاس بالحـقِّ الـذي أنزلـه اللـه، وأمـر بـه أوليـاءه عليهم السلام.

فأصـغِ إلـيّ، وتأمَّـلْ مـا أقـول، ولا تتعجَّـل فـي الحكـم، فـإنَّ الحسـين عليه السلام كان بابًـا للـه، وسـفينةً لمـن ركِبهـا، وهاديًـا لمـن تبِعـه، ومـن حـاد عنـه فـلا يلومـنَّ إلا نفسـه. فـإنْ كان بعـضُ مـن يـزور الحسـين عليه السلام يعـود إلـى الذنـب، فهـل ذلـك عائـدٌ إلـى خلـلٍ فـي الزيـارة نفسـها، أو إلـى نقـصٍ فـي التـزام الزائـر واسـتيعابه لحقيقـة الزيـارة؟!

إنـك لـو تأمَّلـت لوجـدت أنّ هـذه الحجّـة التـي تسـوقها لا تليـق بمـن يطلـب الإنصـاف، فـإنّ اللـه سـبحانه أرسـل الأنبيـاء لهدايـة البشـر، فهـل التـزم كلُّ البشـر بهدايتهـم؟! وهـل يـدل وجـود العصـاة بعـد بعثـة

الأنبياء على أنّ دعوتهم كانت خاطئةً أو عديمة الأثر؟! أو أنّ الناس على طبقاتٍ، فمنهم المهتدي، ومنهم الغافل، ومنهم المعاند؟! فكيف تريد أنْ تحاسب مبدأً إلهيًّا بسلوك بعض أتْباعه؟!

ثم تأملْ في صلاتك التي تصلِّيها، وفي صيامك الذي تصومه، هل كلُّ مَن يصلّي يُصبِح مستقيمًا في كل شؤونه؟! وهل كلُّ مَن يصوم يمتنع عن كلِّ المعاصي؟! فإنْ رأيت شخصًا يصلي، ثم يغتاب، أو يصوم، ثم يكذب، فهل تقول: إنّ الصلاة والصيام لا قيمة لهما؟! أو تقول: إنّ هذا الشخص لم يفهم صلاته، ولم يلتزم بمقتضيات صيامه؟! فكيف غاب عنك هذا الميزان حين جئت إلى الزيارة؟!

إنّ زيارة الحسين عليه السلام ليست عملًا سحريًّا يقلب الإنسان بين عشيّةٍ وضحاها إلى معصوم، وإنما هي وسيلةٌ إلى الهداية، وطريقٌ إلى التوبة، فإنْ أَخذ العبد ها، وأحسن الظنّ بالله، وأخلص النيّة، وجد أثرها في نفسه، وإنْ تهاون فيها، واكتفى بالطقوس دون التفاعل القلبيّ والروحيّ، فإنه يكون كمن دخل المدرسة، ولم يتعلَّم، أو كمن شرب الدواء، ولم يلتزم بالعلاج. فهل يكون العيب في المدرسة أو في الطالب؟! وهل يكون الخلل في الدواء أو في إهمال المريض؟!

ثم إننا لا نقول: إنّ مجرَّد المشي إلى الحسين عليه السلام يغسل الذنوب بلا شرطٍ، بل نقول ما قاله الأئمة عليهم السلام: إنّ الزيارة تغفر الذنوب لمن كان «عارفًا بحقِّه»، و«مخلصًا في ولايته»، و«مقبلًا

على الله بصدق»، وأما من زار ببدنه، ولم يزر بروحه، فذلك لم ينل من الزيارة إلا التعب، كما قال الإمام الصادق عليه السلام: «كلّ دعاءٍ محجوبٌ عن السماء حتى يُصلّى على محمدٍ وآل محمد»، أ فلا يكون العمل بلا معرفةٍ محجوبًا عن القبول أيضًا؟!

فالزيارة ليستْ بطاقة عبورٍ إلى الجنّة بلا حساب، بل هي بابٌ يطرقه العبد ليعود إلى الله، فإنْ دخل منه بحقٍّ، فتح الله له أبواب المغفرة والهداية، وإنْ دخل منه متهاونًا، فلا يلوم إلا نفسه. وإنْ كان في الشيعة مَن يزور ثم يعصي، ففي غيرهم مَن يصلي ثم يسرق، ومن يصوم ثم يظلم، ومن يحجّ ثم يرتكب الكبائر، فهل يُقال: إنّ الصلاة والصيام والحجّ لا قيمة لها؟! أو إنّ الإنسان يُحاسَب بفعله، لا بمجرَّد انتسابه إلى العبادات؟!

فإنْ كنت منصفًا علمت أنّ هذا الإشكال لا حظّ له من العلم، وأنك لم تزِدْ على أنِ احتججت بانحراف بعض الناس للطّعن في منهجٍ أراده الله بابًا للرحمة، فإما أنْ تأتيَ بحُجّةٍ متينةٍ، أو تُسلِّم للحقّ، فإنّ أولياء الله لا يضرُّهم جهلُ الجاهلين، ولا تُنقِص من مقامهم غفلة الغافلين، والحسين عليه السلام أكبر مِن أنْ ينال مِن شأنه إشكالٌ ضعيفٌ كهذا.

المخالف: بعض علماء الشيعة يروون عن الأئمة أنّ زيارة الحسين تغفر الذنوب حتى لو كانت مثل زبَد البحر، وهذا يعطي انطباعًا أنّ المغفرة غير مشروطة بالتوبة، مما قد يستغلّه الفاسدون للتّمادي في المعاصي!!

الإماميّ: إنك تتوهّمُ أنّ هذه الروايات تعني مغفرةً غير مشروطة، وأنها تُطلِق العنان للمذنبين ليتمادَوا في غَيِّهم، وحاشا أنْ يكون كلام أهل العصمة عليهم السلام عبثًا، أو أنْ يُفهم على غير قواعد العدل الإلهيّ التي هي أساس الدِّين.

إنّ أهل البيت عليهم السلام حين أخبروا أنّ زيارة الحسين عليه السلام تَغفر الذنوب حتى لو كانت مثل زبَد البحر، لم يكونوا يتحدَّثون عن مغفرةٍ تلقائيّةٍ لكلِّ مَن مشى إلى القبر الشريف بغفلةٍ عن حقيقة الزيارة وغاياتها، بل كانوا يبيِّنون عظيم فضلها، ومدى تأثيرها الروحيّ على مَن وعى حقيقتها، ودخل في رحابها بقلبٍ خاشعٍ ونيّةٍ صادقة. فهل تتصوَّر أنّ الإمام الصادق عليه السلام -وهو الذي كان يُربِّي شيعته على التَّقوى- يُريد أنْ يفتح باب الاستهانة بالمعاصي؟! أو إنك تتغافل عن المعاني الحقيقيّة لهذه النصوص، لتجعلها مطيّةً لإشكالٍ لا يقوم على أساس؟!

إنّ المغفرة ليستْ قانونًا آليًّا، بل هي مشيئةٌ إلهيّةٌ تُمنَح لمن استحقَّها، ولو قرأتَ القرآن لرأيتَ أنّ الله سبحانه يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[١]، فهل يُمكِن أنْ تُقبل الزيارة من مستهترٍ بذنوبه، مصرٍّ على غيِّه، مُتمادٍ في فجوره، ثم يُقال له: هنيئًا لك المغفرة؟! أو إن هذه المغفرة تختصُّ بمن زار، وعينُه تفيض من الدّمع خشيةً لله عزّ وجلّ، واستشعارًا لعظمة ما قاساه الحسين عليه السلام في سبيل إصلاح العباد، فكانت زيارتُه نقطة تحوُّلٍ في حياته،

(١) المائدة:٢٧.

وإقبالًا صادقًا على طريق الاستقامة؟!

ثم أليس القرآنُ نفسُه قد أخبر عن سَعة رحمة الله بقوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[1]؟ فهل يَفهَم أحدٌ من ذلك أنّ الذنوب تُمحَى بلا توبةٍ؟ أو إنّ المغفرة هنا تُبشِّر المذنبين بأنهم ما داموا في دار التكليف، فلهم بابٌ مفتوحٌ إلى الرحمة إذا رجعوا بصدقٍ إلى الله سبحانه؟! فإنْ كان هذا هو ميزان المغفرة في القرآن، فكيف تُريد أنْ تَفهم الروايات بفهمٍ ساذجٍ يُخرِجها عن سياقها؟!

إنّ زيارة الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ليست مجرَّد شعيرةٍ شكليّة، بل هي موقفٌ عقَديٌّ، وإحياءٌ لنهضته، وانخراطٌ في مدرسة الولاء التي تُزكّي النفس، وتُطهِّر القلب، ومَن دخلها بحقٍّ فإنها ستكون سببًا لتغيُّره، وسيكون أثرُها فيه أبلغ من أنْ يُستهان به، أما مَن زار بجسده، ولم يزُرْ بقلبه، فأيّ نصٍّ في الدنيا سيشمله؟! وهل يُعطَى الأجر مَن لم يعمل؟!

أما قولك: إنّ الفاسدين قد يستغلّون ذلك للتمادي في المعاصي، فأقول لك: وهل يُلغّى الحقُّ لأجل أنّ بعض السفهاء لا يفقهونه؟! إنّ في الناس مَن يصلّي ثم يسرق، ومن يصوم ثم يكذب، ومن يحجّ ثم يرتكب الفواحش، فهل نقول: إنّ الصلاة والصيام والحجّ باطلةٌ؛ لأنها لم تمنع هؤلاء من الفساد؟! أو

(١) الزمر: ٥٣.

نقول: إنّ هؤلاء لم يفهموا دينهم، ولم يعيشوا معاني عباداتهم كما ينبغي؟! فإنْ كنت تقول بالثاني، فطبِّق هذا على الزيارة، وإلّا كنت متناقضًا في معاييرك.

ثم إنك لو قرأتَ الروايات لوجدت أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام لم يجعلوا الزيارة بابًا للتجرُّؤ على الله عزّ وجلّ، بل شدَّدوا على أنّ المغفرة لا تشمل إلا مَن كان عارفًا بحقِّ الحسين عليه السلام، مستشعِرًا لعِظَم مصابه، مقبلًا على الله بتوبةٍ صادقةٍ، وإلّا فأين قول الإمام الصادق عليه السلام: «مَن زار الحسين عارفًا بحقّه، غفر الله له»؟! وهل المعرفة بحقِّه مجرَّد ألفاظٍ تُقال؟! أو إنها التزامٌ بعقيدته، وسَيرٌ على نهجه، وإصلاحٌ للنفس؟!

فإنْ كنت منصفًا، علمت أنّ هذا الإشكال لا حظَّ له من العلم، وأنك لم تأتِ بجديدٍ سوى توهُّماتٍ مردودةٍ بالعقل والنقل، فالمغفرة التي تحدَّثتْ عنها الروايات ليستْ فوضى، بل هي وعدٌ إلهيٌّ لمن صدق، ومَن ظنّ غير ذلك، فليَعُد إلى كلام أهل البيت عليهم السلام، قبل أنْ يُسيء فهمهم، ويَجني على نفسه.

والله المستعان على مَن لم يعرف قدر الحسين عليه السلام، فجعل مِن زيارته موضع إشكال، بدل أنْ يجعلها باب رجوعٍ إلى الله سبحانه ووسيلةً إلى النجاة.

المخالف: حتى لو قلنا: إنّ المغفرة مشروطة بالتوبة، فكيف يُعقَل أنْ تكون زيارة قبرٍ سببًا لمغفرة جميع الذنوب، مهما عظُمت، حتى

لو كانت مثل زبَد البحر؟! ألا يدلّ ذلك على الغلوّ في تقديس الحسين رضي الله عنه، وجعْل زيارته أعظم من عباداتٍ ذكرها الله صراحةً في القرآن؟!

الإماميّ: ها أنت قد وضعتَ نفسك في موقفِ مَن يُنكر الرحمة الإلهيّة الواسعة، ويضيِّق ما وسَّعه الله على عباده، لا لشيءٍ إلّا لأنك لم تدرِك حقيقة الوسائط التي جعلها الله سبحانه أبوابًا إلى مغفرته، فظننتُ أنّ جعل زيارة الحسين عليه السلام سببًا لمغفرة الذنوب هو غلوٌّ، متناسيًا أنّ الله جلّ شأنه قد جعل لأوليائه مقامًا لا تدرِكه العقول القاصرة، وأنه سبحانه قد أودَع في بعض الأعمال سرًّا لا يُقاس بالظاهر وحدَه، ولا يُفهَم إلا في ضوء السُّنن الإلهيّة التي اختارها لعباده.

فإنك إنْ تأملتَ قليلًا، لرأيتَ أنّ هذا الإشكال ليس جديدًا، بل هو تكرارٌ لنفس الاعتراض الذي طرحه الجُهّال حين أنكروا الشفاعة، واستغربوا كيف يَغفر اللهُ سبحانه لعباده ببركة نبيِّه وأوليائه، فكان جوابُهم جوابَ الكافرين حين قالوا: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾[1]، إذ أنكرت عقولُهم المحدودة أنْ يكون لله عزّ وجلّ عبادٌ أكرَمهم، وجعَل لهم مقاماتٍ يستنزلون بها رحمته، فظنّوا أنّ كلَّ شيءٍ يجب أنْ يكون في حدود أفهامهم القاصرة.

فهل يُعقَل أنْ تعترض على المغفرة التي يمنحها اللهُ لمن زار الحسين عليه السلام تائبًا، في حين أنك تقرأ في القرآن أنّ الله يغفر

(١) ص:٦٢.

الذنوب جميعًا لمن استغفره بصدقٍ، دون أنْ يحتاج إلى مشقّةِ زيارةٍ، ولا إلى شهادة موقفٍ، ولا إلى ولاء؟! أو إنك نسيتَ قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[1]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[2]؟! فإنْ كنتَ تعترف بأنّ الله يغفر لمن يشاء، فكيف تعترض على أنْ يجعل زيارة الحسين عليه السلام سببًا لهذه المغفرة؟!

ثم إنك لو تأملتَ قليلًا، لعلمتَ أنّ الغفران لا يكون لمجرَّد الزيارة شكلًا بلا روح، بل لمن زار عن معرفةٍ بحقِّ الحسين عليه السلام، فوقف عند قبره، وقلبُه مملوءٌ بندم التائبين، ودمعُه ينهمر استحياءً من الله سبحانه، وعزمُه معقودٌ على تغيير مساره، أ فلا يستحقُّ هذا أنْ يَغفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر؟! أم إنّ الله -حاشاه- يحدِّد رحمته بناءً على تصوُّراتك الضيِّقة؟!

وأما قولك بأنّ هذا غلوٌّ في تقديس الحسين عليه السلام، فاعلمْ أنّ مقام الحسين عليه السلام ليس مقامًا بشريًّا عاديًّا حتى تُقاس زيارته بغيرها من العبادات الظاهرية، بل هو ابن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، وسيِّد شباب أهل الجنة، والمخلَّص الذي قدَّم نفسه وأهل بيته وأصحابه قرابين للإصلاح، حتى قال فيه جدُّه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم: «حسينٌ مني، وأنا من حسين، أحبَّ اللهُ مَن أحبَّ حسينًا»، فهل

(١) البقرة:١٨٦.
(٢) النساء:٤٨.

تتصوَّر أنّ الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي جعل محبة الله مرتبطةً بمحبّة محبِّيه، لا يكون لزيارته سرٌّ لا يُقاس بغيرها؟!

وأما زعمُك بأنّ هذا يجعل زيارته أعظم من عباداتٍ ذُكرت في القرآن، فهذا خلطٌ ناشئٌ عن عدم التفريق بين السبب والمسبَّب، فاللّه سبحانه جعل الحج فريضة، والصلاة عمود الدين، والصيام تهذيبًا للنفس، ولكنْ هل تظن أنّ الأعمال تُقاس بالمشقّة الظاهريّة وحدها، أو بسرِّها وأثرها في القلوب؟! فإنْ كان الله سبحانه قد جعل ليلة القدر خيرًا من ألف شهر، وجعل التوبة الصادقة تهدِم ما قبلها، فلماذا تعترض على أنْ يجعل زيارة الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ بابًا من أبواب الرحمة، وهو القائل جلّ شأنه: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾[1]؟!

ثم إنك لو تدبَّرت في واقع الأمر، لرأيت أنّ زيارة الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ليست مجرَّد انتقالٍ جسديّ، بل هي موقفٌ عَقَديٌّ يتطلَّب انحيازًا إلى خطِّ الأنبياء في مواجهة الظلم، واختيارٌ واعٍ للالتحاق بركب الحقِّ، ومَن يُقدِم على مثل هذا الموقف أليس جديرًا بأنْ تُمحى سيِّئاته، ويُجدِّد عهده مع الله سبحانه؟!

فإنْ كنت منصفًا علمت أنّ اعتراضك لا يرقى إلى مستوى الحجّة، وأنك لم تفعل سوى أنْ ضيَّقت ما وسَّعه الله سبحانه، وضيَّعتَ سرّ الكرامة التي منحها اللهُ لسيِّد الشهداء عَلَيْهِ السَّلَامُ، ظانًّا أنّ الله لا يُكرِم عباده الصالحين بما يليق بمقامهم، وهو الذي قال:

(١) الأعراف:١٥٦.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[١]، فكيف لا يكون للحسين عليه السلام الشهادة العظمى، وقد قدَّم نفسه قُربانًا للإصلاح في أمة جدِّه؟!

فأعِدِ النظر، وارجِع إلى نفسك، واترك عنك هذه الأوهام، فإنك لن تجدَ في كلام أهل البيت عليهم السلام إلا الحقّ الصريح، وما ضلّ من اعتصم بهم، ولا اهتدى مَن تنكَّر لهم، والله المستعان.

المخالف: لكنّ زيارتكم للحسين رضي الله عنه، بهذه الأعداد الضخمة والمواكب والمراسم تجعلها تبدو وكأنها أعظم من أيِّ عبادةٍ أخرى، فهل يُعقَل أنْ يكون الدين كلُّه متوقِّفًا على زيارة قبرٍ؟!

الإماميّ: أنت تنظر إلى ظاهر الأمور، ولم تتوغَّل في حقيقتها، فجعلتَ الأعداد الضخمة والمواكب والمراسم سببًا للاعتراض، وكأنك تجهل أنّ العظمة لا تُقاس بالكثرة العدديّة، بل تُقاس بعمق الأثر وصدْق النيّة وما يتجسَّد فيها من معاني الولاء والالتزام بمبادئ الدِّين.. ولو أنك تأمَّلت في فلسفة زيارة الحسين عليه السلام بعيدًا عن التصوُّرات السطحيّة، لرأيت أنها ليست مجرَّد تجمُّع بشريٍّ عابر، بل هي مدرسةٌ عقَديّة، وموقفٌ إيمانيٌّ، وتجسيدٌ عمليٌّ لحقيقة الولاء لأهل البيت عليهم السلام.

إنك تعترض على هذه الزيارة وكأنها أمرٌ خارجٌ عن الدين، أو

(١) البقرة:١٤٣.

كأنها بدعةٌ استُحدِثت، متناسيًا أنّ مبدأ الزيارة كان من تعاليم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وأنّ أوّل مَن بكاه كان جبرائيل في بيت فاطمة الزهراء عليها السلام، وأنه صلى الله عليه وآله وسلم هو مَن علّم الأمة أنْ تواسي الحسين عليه السلام بمصاب كربلاء، وهو القائل: «حسينٌ مني، وأنا من حسين، أحبَّ اللهُ من أحبَّ حسينًا». فكيف تستكثر على شيعة الحسين عليه السلام أنْ يجعلوا زيارته شعارًا يُعبِّر عن وفائهم لمن بذل دمَه في سبيل بقاء الإسلام؟!

أما قولك بأنّ الدين لا يمكن أنْ يتوقَّف على زيارة قبرٍ، فذاك خلْطٌ بين الوسيلة والمقصد، وبين الرمز والحقيقة.. فنحن لا نقول: إن الدين محصورٌ في الزيارة، ولكننا نقول: إنّ زيارة الحسين عليه السلام من أعظم مظاهر التمسُّك بالدين؛ لأنها تعبيرٌ عن الولاء الصادق لمن جسّد الإسلام في أنصع صُوره، وحمل على عاتقه أعظم مسؤوليّة، وهو الذي قال: «إني لم أخرج أشِرًا ولا بطِرًا، ولا مفسدًا ولا ظالمًا، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدِّي». فإنْ كانت نهضة الحسين عليه السلام أعظم ملحمةٍ في الدفاع عن الدين، فهل يُستكثر على زيارته أنْ تكون محطّةً يتزوَّد منها المؤمنون بالإيمان واليقين؟!

ثم تأملْ في منطقك، فإنك لم تعترضْ يومًا على كثرة الحجّاج في مكّة، ولا على اجتماع الملايين في صلاة الجمعة أو العيدين، فلماذا تُثير الشُّبهة حين ترى الملايين تتقاطر إلى كربلاء، وهم لا يفعلون ذلك إلا امتثالًا لوصيّة النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال: «إني تاركٌ فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي»؟! فإنْ كان الدِّين

يتمثَّل في التمسُّك بالكتاب والعترة، أ فلا يكون إحياءُ أمرِ أهل البيت عليهم السلام عبادةً بحدِّ ذاته؟!

أما هذه المواكب والمراسم التي تراها، فليستْ إلّا امتدادًا لتاريخٍ طويلٍ من الحزن على الحسين عليه السلام، منذ أنْ بكاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم ولادته، ومنذ أنْ طاف رأسه الشريف في الأزقّة والطرقات، حيث كانت الرؤوس تُرفَع على الرماح، والأطفال تُسبَى، والنساء تُضرَب بالسياط.. فإنْ كنت ترى هذه الشعائر ضخمة، فتذكَّر أنّ مظلوميّة الحسين عليه السلام كانت أعظم، وأنَّ ما يُبذَل اليوم في زيارته هو جزءٌ من العزاء العالمي الذي لن ينطفئ حتى يوم القيامة.

ثم لا تقلْ لي: إنّ هذا غلوٌّ؛ لأن الغلوّ يكون في من رفع الإنسان إلى مرتبة الألوهيّة، أما نحن فإنما نزور الحسين عليه السلام لنقتدي به، لا لنعبده، ونبكي عليه لنواسي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لا لنضعه فوق مقام النبوّة، فإنّ الحسين عليه السلام عبدٌ صالحٌ، وإمامٌ هادٍ، وجعَل الله زيارته سببًا لمغفرة الذنوب، كما جعل الصلاةَ سببًا للتطهير، وكما جعل الدعاء سببًا لرفع البلاء، فإنْ كنت ترى ذلك غلوًّا، فراجع فهمك لحقيقة السُّنن الإلهيّة.

فأعِد النظر، وتدبَّر الأمر بعقلٍ منصف، تجدَ أنّ زيارة الحسين عليه السلام ليست مجرَّد تقليدٍ، ولا طقسًا خاليًا من المعاني، بل هي صرخةٌ في وجه الظلم، وبيعةٌ متجدِّدةٌ لمنهج الحقّ، وما ضلّ من تمسّك بالحسين عليه السلام، وما اهتدى مَن أنكر حقَّه، والله المستعان.

الخلاصة والنتائج:

إنَّ ما يُثار من إشكالاتٍ حول زيارة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ليس نابعًا من بحثٍ عن الحقيقة، بل هو استمرارٌ لمحاولات التشويه التي بدأها بنو أميّة منذ واقعة كربلاء، حين ظنّوا أنهم بقتل الحسين سيُنهُون قضيّته، فإذا بها تُصبح شعلةً خالدة لا تنطفئ. إنّ مقولة «زرِ الحسين، وافعلْ ما شئت» ليست إلا كذبة مفضوحة اختلقها مَن أعماهم الحقد على مدرسة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فكل الروايات التي تتحدَّث عن فضل زيارة الحسين تُؤكِّد أنها وسيلةٌ للتوبة، ومدرسة لإحياء الضمير، ومحطّة لتجديد العهد مع الله، لا رخصة للذنوب والمعاصي.

أما الزعم بأنّ الشيعة يجعلون الزيارة أعظم من الفرائض، فهو إما جهل أو سوء نيّة؛ لأنّ الشيعة لم ولن يعتقدوا يومًا بأنّ زيارة الحسين تُغني عن الصلاة أو الصيام أو أيِّ تكليف شرعيّ، بل هي تجسيدٌ عمليٌّ للولاء لله، واستحضارٌ لمعاني التضحية والفداء في سبيله. وإنْ كان المخالف يستكثر هذا الفضل على زيارة الإمام الحسين، فلماذا لا يعترض على الأحاديث التي تتحدَّث عن فضل الحجّ، والصلاة، والصدقة، وذِكْر الله، والتي تذكُر مغفرة الذنوب وإنْ بلغتْ عِنان السماء؟! أم إنّ مشكلتهم ليست مع المبدأ، بل مع الحسين تحديدًا؛ لأنه لا يزال شاهدًا على انحرافاتهم؟!

أما كثرة الزوّار والمواكب والمراسم، فهي ليستْ دليلَ غلوٍّ،

بل هي دليلٌ على أنّ دم الحسين لم يذهب هدرًا، وأنّ الملايين الذين يسيرون إليه هم الامتداد الحقيقيّ لثورته الخالدة. هذه الملايين لا تأتي لزيارة قبرٍ فقط، بل تأتي لتجدِّد بيعتها للحقِّ، وتعلن براءتها من الظلم وأهله؛ ولهذا يُزعجكم هذا المشهد؛ لأنه يُعيد إلى الأذهان صرخة الحسين التي حاولتم طمسها، لكنه أبى إلّا أنْ يكون صوته أعلى من كلِّ الأصوات.

الحقيقة التي لا يريد البعض مواجهتها هي أنّ زيارة الحسين عليه السلام ليستْ مجرَّد شعيرة، بل هي ثورة مستمرّة، ورمزٌ للحريّة والإباء، وصرخة في وجه كل يزيد يتكرَّر في كل عصر. إنَّ مَن يطعن في هذه الزيارة، إنما يُعبِّر عن ضيْقه بها؛ لأنها تعني أنّ الحسين لم يُنسَ، وأنّ ثورته لا تزال حيّة، وأنّ أتْباعه لا يزالون يحملون مشعل رفض الظلم مهما حاول الطُّغاة خنقه. فمَن شاء فليعترض، ومن شاء فليشكِّك، لكنَّ الحقيقة ستظلُّ ثابتة، وهي أنّ الحسين انتصر يوم قُتِل، وأنّ زوّاره اليوم هم امتدادٌ لانتصاره، ورايته ستظلُّ خفّاقة، مهما حاولتم طمسها أو التقليل من شأنها.

❁❁❁

الفَصلُ السَّابعُ

السَّواد في عاشوراء

السَّواد في عاشوراء، رمز الحزن أم بِدعة محرَّمة؟

لطالما حاول المخالفون إنكار شعائر الحزن على الإمام الحسين عليه السلام ومحاربتها تحت ذرائع شتّى، ومنها اعتراضُهم على لبْس السَّواد في عاشوراء، بحجَّة أنه لم يكن في زمن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أو الصحابة، وأنّ الإسلام لم يشرِّع الحداد إلا للنساء على أزواجِهنّ مدَّةَ أربعة أشهر وعشرة أيّام.. هذه الدَّعوى تكشف عن اضطرابٍ في منهجهم؛ إذ إنهم يقبلون بإدخال أمورٍ كثيرة في الدِّين لم يفعلها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، مثل جمْع القرآن في مصحفٍ واحد وتنقيطه وإقامة صلاة التراويح جماعة، ثم يتذرَّعون بذات الحجَّة لمنع إحياء ذكرى الحسين عليه السلام، وكأنَّ البِدعة لا تكون إلا فيما يعارض هواهم.

يدور النقاش في هذا الحوار حول كشف زيف الإشكال المذكور، حيث يردُّ الشيعيّ بإفحام المخالف ببيانِ أنّ عدم فعْل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لشيءٍ لا يعني أنه محرَّم، وإلّا لوجب تحريم كثيرٍ من الممارسات اليوميّة التي يتبنّاها المخالفون أنفسهم دون دليلٍ شرعيّ.. فالإسلام لم يأتِ لاجتثاث العادات والتقاليد، بل لتقويمِها، وقد أقرَّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مظاهر الحزن المشروع، سواء بالبكاء أو الدعوة إلى إحياء ذكرى الشهداء، فلماذا يُستنكَر على الشيعة إظهار الحداد على سيِّد شباب أهل الجَنّة عليه السلام؟

أما استدلال المخالف بأحاديثِ كراهة السَّواد، فهو استدلالٌ فاسد؛ لأن هذه الأحاديث لم تتحدَّث عن الحداد أو إحياء المصائب، بل جاءت في سياقاتٍ مختلفة، كالنهي عن التشبُّه بأهل الجاهليّة أو أهل النار، ولو كان السَّواد مكروهًا مطلقًا، فكيف لبْسه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم نفسه، كما في دخوله مكّة يوم الفتح بعمامةٍ سوداء؟ وكيف وردَ أنّ أهل البيت عليهم السلام لبْسوه في بعض الظروف؟ فهل يُعقَل أنْ يكونوا جميعًا غافلين عن كراهةٍ شرعيّةٍ قطعية، أو إنّ هذا الإشكال ليس سوى تلاعُبٍ بالأدلة؟!

ثم إنّ زعم المخالف أنّ لبْس السَّواد تشبُّهٌ بالكفّار، هو حجَّة متهافتة؛ لأن الإسلام لم يحرِّم كل ما يفعله غيرُ المسلمين، بل نهى عن التشبُّه بهم فيما يميِّزهم دينيًّا، فهل أصبح مجرّد ارتداءِ لون معيَّن كفرًا أو محرَّمًا؟ ولو طبَّقنا هذا المبدأ، لوجب على المخالفين تحريم أمورٍ كثيرة يستخدمونها يوميًّا؛ لأنها في الأصل من ابتكار غير المسلمين!

الحقيقة أنّ كل هذه الاعتراضات ليستْ سوى محاولات لطمس مظلوميّة الحسين عليه السلام وإبعاد الأمّة عن استذكار الجريمة الكبرى التي ارتُكِبت بحقِّه.. فالمشكلة الحقيقيّة ليستْ مع «البِدعة»، ولا مع «التشبُّه بالكفّار»، ولا مع «كراهة السَّواد»، بل مع بقاء اسم الحسين عليه السلام حيًّا في وجدان الأمّة، ومع أنّ عاشوراء ما زالتْ تفضح القَتلة والطُّغاة عبر التاريخ.

الموارد الرئيسة للنقاش:

١ – بطلان دعوى أنّ لبْس السَّواد بِدعة.

٢ – تفنيد الاستدلال بالرِّوايات التي تَذكر كراهة السَّواد.

٣ – إبطال شُبهة أنّ لبْس السَّواد مأخوذٌ من النصارى أو المجوس، وهو من التشبُّه.

٤ – كشف الدافع الحقيقيّ للإنكار على لبْس السَّواد.

انطلاقة الحوار

المخالف: إنّ لبْس السَّواد حدادًا على الحسين بِدعة؛ لأنه لم يكن في زمن النبيّ ﷺ أو الصحابة، والإسلام لم يشرِّع حدادًا إلّا للنساء على أزواجِهنّ مدّة أربعة أشهُر وعشرة أيام!!

الإماميّ: لو أنك تأمَّلت بعين الإنصاف لعلمتَ أنّ احتجاجك على لبْس السَّواد بأنه بِدعة؛ لأن النبيّ ﷺ لم يفعله أو لم يفعله الصَّحابة، هو قياسٌ فاسد مردود بعشرات الأمثلة من أمورٍ لم يفعلها النبيّ ﷺ مباشَرة، لكنها ليستْ بِدعة مذمومة في الدين.. فهل كان جمْع القرآن في مصحفٍ واحد في زمن النبيّ ﷺ؟ وهل كانت صلاة التراويح جماعة في زمنه؟ وهل كان تنقيط المصحَف وتشكيله معمولًا به في حياته؟ أو إنكم تأخذون بما لم يفعله النبيّ ﷺ إنْ وافق هواكم، وتدّعون البِدعة فيما يخالف مذهبكم؟!

ثم دعني أسألْك، إنْ كنتَ ترى أنّ الإسلام لم يشرِّع الحداد

إلا للمرأة على زوجها، فهل يعني ذلك أنَّ أيَّ تعبيرٍ عن الحزن على غير الزوج محرَّم؟! إنْ كان كذلك، فلماذا بكى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على ابنه إبراهيم حتى قال له عبد الرحمن بن عوف: «وأنت يا رسول الله؟»، فقال صلى الله عليه وسلم: إنها رحمة، وإنّ العين لتدمع، والقلب ليحزَن، ولا نقول إلا ما يُرضي ربَّنا، وإنّا بفراقك يا إبراهيمُ لمحزونون»[1]؟ بل حتى بكاؤه صلى الله عليه وآله وسلم على الحسين عليه السلام قبل مقتله ثابتٌ في مصادر السُّنّة أنفسهم، فهل تريد أنْ تحرِّم على الشيعة ما فعله النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بنفسه؟!

وأما قولك بأنّ السَّواد لم يُلبَس حدادًا في زمن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، فهل يمنع ذلك من اتّخاذه رمزًا للحزن على أعظم فاجعةٍ عرفها الإسلام؟ إنْ كنتم تزعمون أنّ كلَّ ما لم يفعله النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ممنوع، فلماذا تلبَسون البِدَل الرسميّة، ولماذا تستخدمون مكبِّرات الصوت في الصلاة، ولماذا تركبون السيارات إلى المساجد بَدَل الدّواب؟ أم إنّ التحريم عندكم انتقائيٌّ حين يتعلَّق بأمرٍ يُذكِّركم بمظلمة الحسين عليه السلام؟!

ثم دعْ عنك هذا التشدُّد غير المبرَّر، وأجبني بإنصافٍ: أ ليس لكلِّ مجتمع طريقته في التعبير عن الحزن والمصيبة؟ أ لا ترى أنّ الشعوب -مهما اختلفت أديانها وثقافاتها- تتّخذ لونًا أو هيأة معيَّنة للدلالة على الحداد؟ فالمسلمون يلبَسون السَّواد عند فِقدان أحبَّتهم، كما يفعل الكثير من الأُمم، بينما ترى في بعض

(١) صحيح البخاري، ج١، ص٤٣٩.

الثقافات الشرقيّة أنهم يلبَسون الأبيض في الجنازات، وفي بعض المجتمعات الأخرى يكون اللون الرماديّ أو الأزرق دلالة على الحزن. فهل هؤلاء جميعًا مبتدِعة لمجرّد أنهم لم يجدوا نصًّا يفرض عليهم لونًا معيَّنًا؟!

بل دعني أضعْك أمام واقعك: أ لا ترى أنكم في مآتمكم وجنازاتكم تلبَسون ألوانًا قاتمة تعبيرًا عن الحزن؟ أ لا يتحرَّج أهل الميت عندكم من لبْس الألوان الفاقعة خلال العزاء؟! فبأيِّ منطقٍ تحرِّم على الشيعة ما تفعله أنت بلسان حالك؟!

إنكارك لهذا الأمر ليس إلا تعصُّبًا مكشوفًا؛ لأنك تعلم أنّ عاشوراء ليستْ مجرّد ذكرى، بل قضيّة تفضح الطغاة عبر التاريخ، والسَّواد الذي يلبَسه الشيعة ليس مجرّد لونٍ، بل هو راية تذكِّر الأمّة بدم الحسين عليه السلام الذي لم يجفّ، وبجرائم بني أميّة التي تريدون طمسها تحت دعاوى البِدعة الواهية!

المخالف: هناك أحاديث تشير إلى كراهة لبْس السَّواد، مثل ما رُوي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يكره السَّواد، أو أنّ أهل النار يُكسَون ثيابًا سوداء، فارتداء الشيعة له يخالف سُنّة النبيّ.

الإماميّ: إنْ كنتَ تستدلُّ بروايات كراهة السَّواد لتجعلها ذريعةً للطعن في إحياء الشعائر الحسينيّة، فاعلم أنك إنما تجادل بغير علم، وتنتقي النصوص على وفق هواك، وإلّا فدعني أسألك: أ ليس النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم نفسُه قد لبِس العمامة السوداء -كما أشرت سابقًا- في

مواطن عديدة، كما جاء في مصادر السُّنة؟! ألم يروِ البخاري ومسلم أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم دخل مكة يوم الفتح وعليه عمامةٌ سوداء[١]؟! فهل كان يرتدي ما يكره، أو أنّ فهمك للروايات مغلوط؟!

ثم إنّ الروايات التي تتحدَّث عن كراهة السَّواد لا علاقة لها بالحزن على مصيبة كربلاء، وإنما وردت في سياقاتٍ أخرى، مثل النهي عن التشبُّه بأهل الجاهلية أو أهل النار في هيآتهم، وليس النهي عن لبْس السَّواد في حدادٍ مشروع، وإلا فهل تقول: إنّ السَّواد حرام مطلقًا، حتى على الكعبة المشرَّفة التي تُلبَس ثوبًا أسودَ؟! ولماذا تلبسونه أنتم في مناسباتكم الدنيويّة دون أنْ ترونه مكروهًا؟!

إنّ احتجاجك هذا ليس إلا محاولة يائسة للتشكيك في شعائر الحزن على الحسين عليه السلام، وبدلًا من أنْ تبحث عن تأويلات ضعيفة لتمنع الناس من إظهار ولائهم لسيِّد الشهداء، انظر في الروايات التي تحدَّثت عن بكاء النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم نفسه على الحسين عليه السلام قبل مقتله، وتأمَّل إنْ كنت حقًّا من أتْباعه، أو إنك تتَّبع نهجًا يريد طمس هذه الفاجعة تحت ذرائع واهية.

المخالف: إنّ قياس لبْس السَّواد على جمع القرآن أو تنقيطه أو استخدام مكبِّرات الصوت قياس مع الفارق؛ لأن هذه أمور تتعلَّق بحفظ الدين وإيصاله، أما لبْس السَّواد فهو أمر تعبُّديّ، والعبادات توقيفيّة لا تُبتدَع فيها أمورٌ لم يفعلها النبيّ صلى الله عليه وسلم!!

(١) صحيح مسلم، ج٢، ص٩٩٠.

الإماميّ: إنّ حجتك ساقطة قبل أنْ تبدأ؛ لأنك ترتكز على تفريقٍ مصطنع بين ما تسمِّيه «حفظ الدين وإيصاله» وبين «الأمور التعبُّديّة»، وكأنك أنت مَن يحدِّد ماذا يدخل في الدين؟ وماذا يخرج منه؟! ولكنْ سأريك كيف أنّ كلامك مجرَّد تهرُّبٍ مكشوف من الحقيقة.

تزعم أنّ لبْس السَّواد حدادًا على الحسين عليه السلام بِدعة؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لم يفعله، بينما لا تعدُّ جمع القرآن في مصحفٍ واحد ولا تنقيطه ولا مكبِّرات الصوت في الصلاة بِدعة، بحجَّة أنها لحفظ الدين! فأين كان هذا «التفريق الذهبيّ» عندما ابتدعتم صلاة التراويح، وجعلتموها «نعمت البِدعة»؟! أين كان حينما أحدثتُم تقاليد لا أصل لها في طريقة خُطَب الجمعة أو حتى في شكل اللباس الإسلاميّ؟! الحقيقة الواضحة أنك تتعامل بازدواجيّة فاضحة، فما يخدم منهجك تجعله مشروعًا، وما يخالفه ترميه بالبِدعة دون أيِّ ميزانٍ شرعيّ أو عقلي ثابت.

ثم مَن قال لك: إنّ لبْس السَّواد شعيرة تعبُّديّة تحتاج إلى نصٍّ شرعيٍّ مباشر؟! منذ متى كانت الرموز الاجتماعيّة بحاجةٍ إلى دليل توقيفيّ؟! هل تحتاج إلى نصٍّ من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لتلبَس بَدْلتك الرسميّة في المناسبات؟! أو إنك تفهم بالفطرة أنّ لكل مقامٍ لباسه المناسب؟! لبْس السَّواد ليس عبادة كالصلاة حتى تحتاج إلى نصٍّ، بل هو مظهر من مظاهر الحزن، وهو امتداد لما قام به النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم نفسه عندما بكى على الإمام الحسين عليه السلام، وأخبر بمقتله قبل وقوعه، ولما بكى على حمزة وغيره من الشهداء.. فإنْ كنت

ترى أنّ الحزن على الحسين عليه السلام أمرٌ مشروع، فكيف تمنع التعبير عنه بوسيلةٍ متعارفة بين الناس؟!

أما قولك: إنّ «العبادات توقيفيّة»، فهو تدليس مفضوح؛ لأنك تتجاهل أنّ ما نحن بصدده ليس عبادة مستقلّة، بل هو تعبير عن الولاء والحزن، كما أنكم أنتم أنفسكم تقيمون مجالس التعزية بأشكالٍ مختلفة دون أنْ تجرّموها! لماذا لا تعدُّ استخدام مكبِّرات الصوت لإيصال الخطبة في صلاة الجمعة بِدعة مع أنه لم يكن موجودًا في زمن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم؟ لماذا لا تَعدُّ بناء المنارات وتزيين المساجد بدعتين؟ لأنك تعلم أنّ هذه الأمور أصبحت عرفًا ومتعارفًا عليه في إيصال الرسالة.. فلماذا إذن تحلِّلون لأنفسكم تطوير الشعائر التي تروق لكم، وتحرِّمون على الشيعة التعبير عن حزنهم بالطريقة التي توافقهم؟!

الحقيقة أنك لا تناقشني بحثًا عن الحقّ، بل تبحث عن طريقةٍ للالتفاف حول واقعٍ لا تريده، وهو أنّ الحسين عليه السلام قُتِل مظلومًا، وأنّ الأمّة تواطأت على نسيان ظلامته، لكن الله شاء أنْ يبقى دمه شاهدًا على الجريمة، ولهذا أنتم تحاولون طمس كلِّ ما يُبقي ذكرَه حيًّا. ولكنْ هيهات! فالسَّواد الذي ترتعد منه ليس مجرّد لونٍ، بل هو راية تُذكِّر العالم بأنَّ هناك حقًّا مغتصَبًا، ودمًا طاهرًا سُفِك بغير حقٍّ، وأنّ هناك من لا يزال يحمل هذه القضية رغم أنف الحاقدين.

إنْ كان السَّواد يؤذيك، فليس لأنه «بِدعة»، بل لأنه يفضح التاريخ الذي تحاول تلميعه، ويذكّرك بأنّ الحسين عليه السلام لم يُقتل

فقط بسيوف بني أميّة، بل يُقتل في كل يوم بألسِنةِ مَن يريدون طمس ذكراه وتبرير جريمة يزيد وجنده.

المخالف: الاستدلال بكون لبْس السَّواد عادة متعارفة بين الشعوب لا يعني أنه مشروع دينيًّا؛ لأن الدين لا يُبنى على الأعراف والتقاليد، وإلا لجاز إقرار عادات أخرى غير شرعيّة بحجَّة أنها شائعة.

الإماميّ: كلامك هذا لا يخرج عن كونه تلاعُبًا بالألفاظ ومحاولة يائسة للهروب من حقيقةٍ واضحة كالشمس، وهي أنّ لبْس السَّواد في عاشوراء ليس مجرّد عادة متعارَفة، بل هو تعبير رمزي عن الحزن والحداد، وهو امتداد لشعائر إحياء ذكرى الحسين عليه السلام التي سنّها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم نفسه حين بكى على مصرعه قبل وقوعه.. فمحاولتك الفاشلة لفصل هذه العادة عن مشروعيّتها الدينية تكشف اضطراب منهجك؛ لأنك تعلم يقينًا أنّ الإسلام لم يأتِ ليجتثّ العادات والأعراف النافعة، بل جاء ليهذّبها، ويقرّ منها ما يتماشى مع مبادئه، وأبقى على الكثير من الأعراف التي لم تخالف الشريعة، فكيف تجعلك هذه الحقيقة تتعامى عن مشروعيّتها هنا؟!

دعني أسألك: هل رفض الإسلام إظهار الحزن على المظلومين؟ هل نهى عن اتّخاذ رموز للتعبير عن الفاجعة والمصيبة؟ إنْ كنت تزعم أنّ الدين لا يُبنى على العادات، فلماذا لم يعترض النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على عادة بكاء العرب على قتلاهم في الجاهلية، بل أقرّها، وشارك فيها بنفسه عندما بكى على حمزة وابنه إبراهيم، حتى تأثر ببكاء النساء وقال: «لكنّ حمزة لا بواكي

له»، فدعا نساء الأنصار للبكاء عليه؟ أكان هذا إقرارًا لعادات غير مشروعة أم أنه تثبيت لمبدأ التعاطف مع الشهيد والمظلوم؟!

ثم أخبرْني، هل يجوز لك أنْ تحتجّ بالعادات والأعراف عندما تناسبك، ثم تنكرها عندما تكون في غير صالحك؟! ألا تستند في لباسك اليوميّ وفي أشكال معاملاتك وحتى في بعض مظاهر عباداتك إلى أعرافٍ لم تكن على عهد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم؟! فلماذا لم تقل: إنّ لباسكم الرسميّ بِدعة؟ ولماذا لم تقل: إنّ بناء المساجد على هذا الطراز الحديث هو إقرار لعاداتٍ غير دينية؟! أم إن إنكارك لا يظهر إلا عندما يتعلّق الأمر بالحسين عليه السلام وإحياء مصيبته؟!

إنّ اعتراضك هذا ليس له أصل من الدين، بل هو مجرّد تهرّبٍ من مواجهة الحقيقة؛ لأنك تدرك أنّ عاشوراء ليست مجرّد يوم، بل هي صرخة في وجه الظالمين.. فمهما حاولت أنْ تتستّر خلف شعارات «عدم البناء على العادات»، فلن تنجح في طمس هذه الحقيقة؛ لأنك تعلم قبل غيرك أنّ هذا الإحياء ليس مجرّد تقليدٍ، بل هو إرساء لمبدأ نصرة الحق، ومواجهة الظلم.

المخالف: لكنْ لا تنسى أنّ لبْس السَّواد عند الحزن عادة مأخوذة من النصارى أو المجوس، وبالتالي فهي تشبُّهٌ بالكفّار، وهو أمر نهى عنه الإسلام.

الإماميّ: إنّ زعمك بأنّ لبْس السَّواد مأخوذ من النصارى أو المجوس؛ لذا فهو تشبُّه بالكفّار، ليس إلا تهربًا من صلب الموضوع ومراوغة

مكشوفة؛ لأنك لو طبَّقت هذا المنطق على نفسك أولًا، لهدمت كثيرًا من ممارساتك دون أنْ تشعر! وسأريك كيف أنّ حجَّتك ليست سوى تناقضٍ صارخ وسقوط في مغالطة لا تقف على أساسٍ متين.

أولًا: مَن قال لك: إنّ كل ما يفعله غير المسلمين يصبح محرَّمًا بمجرّد أنّ المسلمين فعلوه أيضًا؟ أليس النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم نفسه اتّخذ الختم بعد أنْ قيل له: إنّ الملوك لا يقبلون الرسائل إلا بختم؟ فهل كان بذلك متشبِهًا بالكفّار؟! ألم ترِو مصادركم بأنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يأمر بصيام عاشوراء؛ لأنه كان يصومه اليهود؟ فهل توقَّفتم أنتم عن صيامه؛ لأنكم لا تريدون التشبُّه بهم؟!

ثانيًا: مَن قال لك: إنّ لبْس السَّواد في الحزن هو حكرٌ على النصارى أو المجوس؟ هل قرأت التاريخ جيدًا أو إنك تردِّد ما يملى عليك بلا تحقيق؟! إنّ لبْس السَّواد في المصائب ليس شأنًا خاصًّا بملّة معيَّنة، بل هو عادة بشريّة موجودة في مختلف الأمم والشعوب، تمامًا كما أنّ الحزن، والحداد، والبكاء، والشعور بالفقْد، كلها أمور فطريّة لم يبتدعها دين معيَّن.. فهل تقول لنا الآن: إنّ مجرّد الحزن على الميت تشبُّهٌ بالكفّار؛ لأنهم أيضًا يحزنون؟ وهل تريد أنْ تمنع الدموع؛ لأنها تنزل من عيون غير المسلمين أيضًا؟!

أما استدلالك بحديث النهي عن التشبُّه بالكفّار، فهو استدلال في غير موضعه؛ لأن التشبُّه الذي نهى عنه الإسلام هو التشبُّه بهم فيما يميِّزهم على أنهم أمّة أو دين باطل، وليس في العادات الإنسانيّة المشتركة. فلو كان كل ما يفعله غير المسلمين محرَّما

علينا، فلماذا تركب السيارة التي اخترعوها؟! ولماذا تستخدم الكهرباء التي اكتشفوها؟ ولماذا تتعامل بالورق والنقود التي وضعوا أنظمتها؟! أ ترى كيف أنّ استدلالك يهدم نفسه؟!

المخالف: اقرأ حديث الرسول ﷺ: «البْسوا من ثيابكم البياض، فإنها من خير ثيابكم، وكفِّنوا فيها موتاكم»، وحديثه الآخر: «كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يكره السَّواد إلا في العمامة»، فاحتجاجك بلباس النبيّ صلى الله عليه وسلم العمامة السوداء غير صالح هنا؛ لأنه استثناها من الكراهة، مما يؤكِّد أنّ اتّخاذ السَّواد شعارًا للحزن يبقى أمرًا مكروهًا شرعًا.

الإماميّ: إنّ استدلالك بهذين الحديثين لادِّعاء كراهة لبْس السَّواد في الحزن ليس إلّا تدليسًا مكشوفًا وتحريفًا للمعنى؛ لأنك تأخذ الأحاديث بانتقائيّة مريبة، فتجتزئ منها ما يخدم هواك، وتُعرِض عمّا ينقض حجَّتك!

وسأريك كيف أنّ احتجاجك هذا مجرَّد وهْمٍ لا يقوم على أيِّ أساس شرعيٍّ متين.

إنّ حديث «البْسوا من ثيابكم البياض، فإنها من خير ثيابكم، وكفِّنوا فيها موتاكم»، هو توصية بلباس الأبيض باعتباره لونًا حسنًا، ولكنه لا يدل على تحريم غيره، وإلا لكان لبْس أيّ لون آخر حرامًا، وهو ما لا تقول به أنت نفسك.. فهل لديك دليلٌ قطعيّ يقول: إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم منَع المسلمين من ارتداء غير الأبيض؟! أو أنك تقرُّ بأنّ

الحديث جاء في سياق بيان الأفضلية، لا في سياق النهي التحريمي؟!

وأما استدلالك بحديث «كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يكره السَّواد إلا في العمامة»، فهو استدلالٌ باطل لعدّة أسباب، منها أنّ الحديث من حيث سنده ومدى صحّته محلّ خلافٍ بين العلماء، بل لم يَثبت بنحوٍ قطعيّ، وحتى لو صحّ، فهل قال النبيّ ﷺ يحرُم لبْس السَّواد، أو إنه ورد بلفظ الكراهة؟! وهل الكراهة هنا تعني التحريم المطلق أو أنها كراهة تنزيهيّة في الظروف العاديّة، لا في مواضع الحزن والحداد؟ فإنْ كنت تدّعي أنّ الحديث نصٌّ في تحريم السَّواد، فلماذا لم يحرِّم النبيّ ﷺ لباسه في العمامة؟!

غير أنّ عيبك الأكبر هو تجاهلُك لما وردَ في الروايات التي تخالف هواك، ومنها أنّ النبيّ ﷺ دخل مكة يوم الفتح، وهو يرتدي عمامة سوداء، فهل فعل ما هو مكروهٌ؟!

أما احتجاجك بأنّ النبيّ ﷺ لم يلبْسِ السَّواد حدادًا، فدعني أسألك: وهل كل ما لم يفعله النبيّ ﷺ يصبح بِدعة؟ إنْ كان كذلك، فلماذا لم تمنع نفسك من لبْس ما لم يلبْسه النبيّ ﷺ من الملابس الحديثة؟ أترى كيف أنّ حجَّتك تتهاوى أمام أوّل اختبار؟!

الحقيقة أنك لا تمانع في لبْس السَّواد، لكنك ترفض أنْ يُلبَس حدادًا على الحسين عليه السلام.

الخلاصة والنتائج:

يتّضح من هذا النقاش أنّ دعوى المخالف حول بِدعيّة لبْس السَّواد في عاشوراء لا تستند إلى دليل شرعيّ معتبر، بل هي محاولةٌ مكشوفة للتشكيك في الشعائر الحسينيّة التي أراد الله لها أنْ تبقى شاهدًا على أعظم مظلوميّة في التاريخ.

فعدم فعْل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لشيءٍ لا يعني تحريمه، وإلّا لوجب تحريم كثير من الأمور التي أقرّها المخالفون أنفسهم، وإنّ الحداد على الشهداء والمظلومين ليس بِدعة، بل هو أمرٌ أقرّه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم نفسه حين بكى على الحسين عليه السلام وأخبر بمقتله، فكيف يُستنكَر على الشيعة ما فعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟!

أما الاستدلال بأحاديث كراهة السَّواد، فهو تلاعُبٌ واضح بالأدلة؛ إذ إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام لِبسوا السَّواد في مواطن متعدِّدة، مما ينقض دعوى الكراهة المطلقة، ثمّ إنّ الزعم بأنّ لبْس السَّواد تشبُّه بالكفّار مردود؛ لأن الإسلام لم ينهَ عن كلِّ ما يفعله غير المسلمين، بل عن التشبُّه بهم فيما يميِّزهم دينيًّا، وإلا لوجب تحريم أشياء كثيرة يستخدمها المخالفون في حياتهم اليومية.

والحقيقة التي لا يستطيع المخالف إنكارها هي أنّ معركته ضدّ السَّواد ليست إلا امتدادًا لمحاولات طمس مظلوميّة الحسين عليه السلام؛ لأنه يدرك أنّ عاشوراء ليست مجرَّد يوم، بل هي صرخة دائمةٌ في وجه الظلم، وأنّ السَّواد الذي يلبَسه الشيعة ليس مجرّد لونٍ،

بل هو راية تذكّر الأمّة بجريمةٍ لن تُنسى، على رغم أنف كلّ من يحاول طمسها؛ لذلك مهما حاولوا التشكيك أو التحريف، سيبقى السَّواد شاهدًا على الحقّ، ويبقى اسم الحسين عليه السلام منارًا يفضح الظالمين عبر الأجيال.

الفَصْلُ ٱلثَّامِنُ

كربلاء معركة العقيدة وليست نزاعًا سياسيًا

هل كانت كربلاء فتنةً سياسيّة أو امتدادًا لرسالة النبوّة؟

إنّ النقاش حول طبيعة ما جرى في كربلاء ليس مجرَّد اختلافٍ في توصيف الأحداث، بل هو صراعٌ بين منهجَين في قراءة التاريخ الإسلاميّ:

المنهج الأول: يسعى إلى تفريغ هذه الواقعة من مضمونها العقَديّ وحصرها في إطارٍ سياسيّ ضيِّق.

المنهج الثاني: يدرك أنّ كربلاء لم تكنْ مجرَّد «خطإٍ سياسيّ» أو «نزاع داخليّ»، بل كانت امتحانًا إلهيًّا للأمّة، كشف عن مدى انحرافها عن المبادئ التي جاء بها الإسلام.

من يزعم أنّ ما جرى في كربلاء كان مجرَّد نزاعٍ على الحكم أو سوء فهْم بين فريقين متنافسين فذاك يتجاهل الحقائق الدامغة التي تُثبِت أنّ القضيّة لم تكن صراعًا سياسيًّا محضًا، بل كانت صراعًا بين الحقّ والباطل، بين الإسلام المحمديّ الأصيل والانحراف الأمويّ الذي أراد تحويل الخلافة إلى مُلكٍ عضوض.. فكيف يُقال: إنّ قتْل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وسبْي نسائه، ورفْع رأسه على الرمح، وإبادة أهل بيته، كان مجرَّد «خلافٍ سياسيّ»؟! وأيّ منطقٍ يمكن أنْ يقبل أنْ يكون الذبح والتنكيل وحرق الخيام ودهس الأجساد مجرَّد «إجراءات سياسيّة» لا علاقة لها بمبادئ الدين؟!

إنّ الإمام الحسين عليه السلام لم يكن طالبَ حكمٍ، ولم يكن خروجُه سعيًا وراء سلطة، بل كان نهضةً إصلاحيّةً تهدف إلى إنقاذ الإسلام من الانحراف، ويزيد بن معاوية (لعنهما الله) لم يكن مجرَّد «حاكم اجتهد، فأخطأ»، بل كان مُظهِرًا للفساد، ومستبيحًا للحرمات، ومعلنًا لحربه على القِيم الإسلاميّة، كما اعترف بذلك في مجلسه حين قال:

«لعبت هاشم بالملك فلا خبرٌ جاء ولا وحيٌ نزل».

فهل يُعقل بعد هذا أنْ يُقال: إنّ الصراع كان مجرَّد نزاعٍ داخليّ؟!

إنّ محاولة التقليل من أبعاد كربلاء، وتصويرها على أنها قضيّة سياسيّة عابرة، ليست سوى جهلٍ بحقيقتها، أو محاولةٍ متعمدة لتمييع آثارها.. فلو كانت مجرَّد صراعٍ سياسيّ لما بقيت الأمة تبكي الحسين عليه السلام وتُحيي ذكراه لأكثر من ألف عام، ولما كانت كربلاء ملهِمةً لكل الأحرار في كل زمانٍ ومكان، ولكنْ لأنها معركةٌ بين الحقّ والباطل، بين الإسلام المحمدي الأصيل والانحراف الأمويّ المشوَّه، بقيت كربلاء حيّةً وشاهدةً على سقوط الطغيان في كل عصر.

الموارد الرئيسة للنقاش:

١ – حقيقة واقعة كربلاء، نزاعٌ سياسيّ أم صراع عقَديّ؟
٢ – دوافع الإمام الحسين عليه السلام للخروج، هل هو طلب الحكم أو الإصلاح؟
٣ – شرعيّة حكم يزيد بن معاوية وموقف الإسلام منه.
٤ – طبيعة الجرائم التي ارتُكِبت في كربلاء وتأثيرها على الأمة.
٥ – هل كان بإمكان الحسين عليه السلام تجنُّب المواجهة بالمصالحة؟
٦ – أثر كربلاء في حفظ الإسلام من التحريف الأمويّ.
٧ – تداعيات واقعة الطفّ على التاريخ الإسلاميّ والوعي الإنسانيّ.

انطلاقة الحوار

المخالف: ما حدث في كربلاء هو في الواقع «خطأ سياسيّ» أو «نزاع داخليّ»، وليس جريمة دينيّة تهدِّد مبادئ الإسلام.

الإماميّ: إنك بهذا الطرح تحاول أنْ تُفرغ واقعة كربلاء من محتواها العقَديّ والدينيّ، وتسجنها في إطارٍ سياسيّ ضيِّق، وكأنك تريد أنْ تُقنع نفسك بأنّ قتل ابن بنت نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم مجرَّد «نزاع داخليّ» لا يمتُّ إلى مبادئ الدين بصلة، أو «خطأ سياسيّ» يمكن تجاوزه وكأنه لم يكن، وحاشا أنْ يكون الأمر كذلك، فإنّ ما جرى على أرض الطفّ لم يكن نزاعًا على ملكٍ زائل، ولا صراعًا بين شخصين على سلطةٍ دنيويّة، بل كان امتحانًا

إلهيًّا فاضحًا للباطل، كاشفًا عن مدى انحراف الأمة عن مسارها، ومؤكِّدًا أنّ الصراع بين الحقّ والباطل لا يزال قائمًا حتى قيام الساعة.

إنك إنْ كنت تجهل أبعاد كربلاء، فتعال أخبرْك بما لا سبيل لإنكاره: هل كان الإمام الحسين عليه السلام طالب ملكٍ وسلطان؟! وهل كان يزيد بن معاوية حاكمًا شرعيًّا جاءته البيعة عن رضا الأمة واختيارها؟! أو أنّ يزيد كان مُظهِرًا للفساد، ممارسًا للجور، مستبيحًا لحرمات الله، حتى شهد عليه القاصي والداني؟! أليس هو من قال، وهو يضرب رأس الحسين عليه السلام بمجلسه:

«لعبتْ هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل»؟!

وقد ذكرها علماؤكم، فقال ابن كثير بعد أنّ أورد هذه المقولة: «فلعنة الله عليه ولعنة اللاعنين»(١)، وهكذا قال ابن العماد الحنبلي في الشذرات: «إنْ صحت عنه، فهو كافرٌ بلا ريب»(٢).

فكيف تريد أنْ تجعل الصراع بين الحسين عليه السلام ويزيد لعنه الله مجرَّد «خلافٍ سياسيّ»، وقد صرّح يزيد نفسه بأنّ حركته قائمةٌ على هدْم أُسُس الدين؟!

إنْ كنت تظنّ أنّ ما حدث كان مجرَّد «نزاعٍ داخلي»، فقل لي: كيف يُقتل ابن بنت النبي صلى الله عليه وآله وسلم بهذه الوحشيّة، وتُساق بناته سبايا،

---

(١) البداية والنهاية، ج١١، ص٦٣١، تـ. التركي.
(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج١، ص٢٧٨.

وتُرفَع رؤوس أصحابه على الرماح، ويُطاف بها بين البلدان، ثم يُقال: إنها قضيّة سياسيّة؟! وهل السياسة تبرِّر الذبح، وسبْي النساء، وقطع الماء عن الأطفال، والإجهاز على الجرحى، ودهس الأجساد بحوافر الخيول؟! إنّ هذا - والله - هو التدليس بعينه؛ إذ لا أحد يمكنه أنْ يدَّعي أنّ ما جرى لم يكن استهدافًا مباشرًا لرسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولا أحد يملك أنْ يبرِّر هذا القتل بغطاءٍ سياسيّ زائف.. أ ليس قد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «حسينٌ مني، وأنا من حسين» .. وقال علماؤكم، ومنهم المناوي في «فيض القدير»: ««حسينٌ مني، وأنا منه» قال القاضي: كأنّه بنور الوحي علم ما سيحدث بين الحسين وبين القوم، فخصّه بالذكر، وبيّن أنّهما كشيءٍ واحدٍ في وجوب المحبّة وحرمة التعرّض والمحاربة، وأكّد ذلك بقوله: «أَحَب الله من أحبَّ حسينًا»، فإنّ محبّته محبة الرسول ومحبّة الرسول محبة الله»؟![1].. بل جاء الدليل بلزوم نصرته لمن يدركه، فقد ذكر الشوكاني في «درّ السحابة»: «أخرج البغويّ وابن السكن والباوردي وابن مندة وابن عساكر والطبراني في (الكبير) بإسنادٍ رجالُه ثقاتٌ عن أمّ سلمة: أنّ ابني هذا -يعني الحسين- يُقتل بأرضٍ من أرض العراق، يقال لها كربلاء، فمن شهد ذلك منكم فلينصره»[2].

فلو كان مجرَّد نزاعٍ دنيويّ، لما بقيت الأمّة إلى يومنا هذا تبكي على الحسين عليه السلام، وتلطم على فاجعته، وتحيي ذكراه، فإنّ

(١) فيض القدير، ج٣، ص٥١٣.
(٢) درّ السحابة في مناقب القرابة والصحابة، ص٢٩٤.

النزاعات السياسيّة تموت بانتهاء أصحابها، ولكن ما حدث في كربلاء كان صراعًا بين النبوّة والانحراف، بين الحقّ الذي يمثله الحسين عليه السلام والباطل الذي يمثّله يزيد؛ ولهذا بقيت كربلاء حيّة، شاهدةً على سقوط الطغيان في كل عصر.

إنك إنْ كنت تظن أنّ الحسين عليه السلام خرج يطلب الحكم، فقد غاب عنك أنه قالها صريحةً: «إني لم أخرج أَشِرًا ولا بطِرًا، ولا مفسدًا ولا ظالمًا، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي»[1]، فهل يكون الإصلاح نزاعًا سياسيًّا؟! أو يكون وقوفًا أمام الانحراف عندما يُزيِّن الحاكم فجوره باسم الدين؟!

ثم إنك لو كنتَ منصفًا، لأدركت أنّ الحسين عليه السلام لم يكن يطلب حُكمًا، فقد عرضوا عليه أنْ يبايع يزيد، ويعيش آمنًا، لكنه قال: «لا والله، لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفرّ فرار العبيد»[2]، فهل يكون من يرفض المُلك بهذه الطريقة ساعيًا وراء الحكم؟!

أما إنْ كنت ترى أنّ الإسلام لم يكن مهدّدًا في كربلاء، فأخبرني: أيّ تهديدٍ أعظم من أنْ يُقتل سبط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويُذبَح أصحابه، ولا يحرِّك أحدٌ ساكنًا؟! أيّ تهديدٍ أعظم من أنْ يتحوّل الحكم الإسلاميّ إلى ملكٍ عضوضٍ يقوده شاربُ الخمور، وقاتل النفوس المحترمة؟! أيّ تهديدٍ أعظم من أنْ يُصبح المُلك يُورَّث كما تورَّث الأموال، ويُساق الناس إلى البيعة بالسيف؟! إنْ كنت لا ترى في كل

---

(١) مقتل الحسين، للخوارزمي، ج١، ص١٨٩.
(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٣٥٨.

هذا تهديدًا للإسلام، فلا أدري ماذا ترى تهديدًا بعد ذلك!

ثم لا تقل لي: إنّ الإسلام لم يتأثّر، فالإسلامُ الذي جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم شيء، والإسلام الذي أراده بنو أميّة شيء آخر، وكربلاء هي الحدّ الفاصل بينهما، فبفضل دم الحسين عليه السلام بقي خطّ النبوّة نقيًّا، وبفضل نهضته عرف الناس الفرق بين الإسلام الحقيقيّ وإسلام البلاط الأمويّ. ولو كان ما جرى مجرَّد «نزاعٍ داخلي»، لما ظلّ صوت الحسين عليه السلام يدوِّي في ضمير الإنسانيّة، ولما بقيت كربلاء ملهِمةً لكل الأحرار، فهل سمعت عن قضيةٍ سياسيّةٍ تُلهب القلوب بعد أكثر من ألف عام؟!

إنك تحاول أنْ تقلِّل من شأن الفاجعة، وتُلبِسها ثوب الخلاف الدنيويّ، ولكنّ دم الحسين عليه السلام يأبى إلّا أنْ يكون صرخةً في وجه الطغاة، وشعارًا خالدًا لكل مَن يريد أنْ يفهم مبادئ الدين، فإنْ كنتَ تبحث عن الحقيقة، فاعلم أنّ كربلاء ليست نزاعًا بين رجلين، بل هي معركةٌ بين الإسلام المحمديّ والانحراف الأُمويّ، فمَن التبس عليه الأمر فلينظر أين يقف؟ وإلّا فسيجد نفسه واقفًا حيث وقف عمر بن سعد، قاتلًا أو متفرِّجًا، والعياذ بالله.

المخالف: كان بإمكان الحسين رضي الله عنه أنْ يبايع، ويجنِّب الأمة الفتنة، لكنّ إصراره على الرفض هو الذي أدّى إلى وقوع هذه الحادثة، مما يجعلها نزاعًا داخليًّا، وليس قضية عقَديّة.

الإماميّ: كأنك تفترض أنّ بيعة يزيد لعنه الله كانت مجرَّد إجراء

سياسيّ عاديّ، لا علاقة له بمبادئ الإسلام، ولا تأثير له على مصير الأم، ولكن هل تأمّلت في حقيقة هذه البيعة؟ وهل كانت مجرَّد أمر إداري، أو أنها كانت تجذيرًا لمنهجٍ خطيرٍ في الحكم، يُعيد الإسلام إلى جاهليّةٍ مقنَّعة؟! لن نحتكم في هذه المسألة إلى المصادر الشيعيّة، بل سنناقشها من مصادر أهل السُّنة أنفسهم، لترى كيف أنّ هذا الطرح لا يصمد أمام الحقائق.

إذا عدنا إلى صحيح مسلم وغيره من المصادر السُّنِّية المعتبَرة، سنجد أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد حذّر الأمة من الانحراف الذي سيحدث بعده، وكان من أبرز تحذيراته ما جاء في صحيح مسلم (حديث رقم ١٨٤٧) حين قال: «يكون بعدي أئمّة لا يهتدون بهُداي، ولا يستنّون بسنَّتي، وسيقوم فيهم رجالٌ قلوبُهم قلوب الشياطين في جثمان إنْسٍ»(١)، فأخبر عن حكّام لا يمثِّلون الإسلام، بل يتّخذونه وسيلةً للظلم والفساد. والسؤال لك: هل كان يزيد لعنه الله ممن «يهتدون بهدْي النبيّ»؟ أو كان من هؤلاء الحكّام الذين حذَّر منهم رسول الله؟

إنّ شخصية يزيد ليست خافيةً على أحدٍ، وقد وصفه كبار علماء السُّنة بأوصافٍ تنزع عنه أيّ أهليّةٍ للحكم، فقد نقل السيوطي والذهبي أنّ عبد الله بن حنظلة قال -في وصف يزيد بن معاوية-: «أنّه رجل ينكح أمّهات الأولاد والبنات والأخوات،

---

(١) صحيح مسلم، ج٣، ص١٤٧٦.

ويشرب الخمر، ويدَع الصلاة»(١). وقال سعد الدين التفتازاني شيخ الحنفيّة عن يزيد بن معاوية: «والحقّ أنَّ رضا يزيد بقتل الحسين واستبشاره بذلك، وإهانته أهل بيت رسول الله، مِمَّا تواتر معناه، وإنْ كان تفصيله آحادًا.. فنحن لا نتوقَّف في شأنه، بل في كفره وإيمانه، لعنة الله عليه وعلى أعوانه وأنصاره»(٢).

والسؤال هنا: إذا كان هذا هو يزيد، فكيف يُطلب من الحسين عليه السلام أنْ يبايعه، وهو الذي قال جدُّه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في حديثٍ صحيح أخرجه البخاري ومسلم: «إنما الإمام جُنّة، يُقاتل من ورائه، ويُتَّقى به، فإنْ أمر بتقوى الله، وعدل، فإنّ له بذلك أجرًا، وإنْ أمر بغيره فإنّ عليه منه وزرًا»(٣)؟ فهل كان يزيد جُنّةً يُتَّقى به؟ أو كان فتنةً تجرُّ الأمة إلى الضلال؟!

أما مسألة أنّ الحسين عليه السلام لو بايع لتجنّب القتل، فهذا تصوُّرٌ سطحيٌّ لحقيقة الأمر؛ لأن الحسين عليه السلام لم يكن يبحث عن نجاةٍ شخصية، بل كان يبحث عن حفظ الإسلام من التحريف.. ولو أنه بايع لكان ذلك تزكيةً لحكم يزيد، ولكان الناس سيقولون: ها هو سبط النبي قد أقرّ بهذا الحكم، فلا حرج على أحدٍ بعده.. فكان امتناعُه عن البيعة إعلانًا بأنّ هذا الحكم غير شرعيّ، وأنّ يزيد لا يمثل الإسلام، وهذا هو مبدأ القضيّة.

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي، ج٣، ص٣٢٤؛ تاريخ الخلفاء، للسيوطي، ص١٥٩.
(٢) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، للقسطلاني، ج٥، ص١٠٤.
(٣) صحيح البخاري، ج٣، ص١٠٨٠، ـ البغا؛ صحيح مسلم، ج٣، ص١٤٧١، ـ عبد الباقي.

وأما قولك: إنّ الأمر لم يكن قضيةً عقَديّة، بل نزاعًا داخليًّا، فاعلم أنّ الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ نفسه قد ردَّ على هذا الافتراض منذ اللحظة الأولى، ففي خطبته الشهيرة عندما خرج من مكة، قال ما رواه الطبري في تاريخه وابن الأثير في الكامل: «أيها الناس، إنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال: من رأى سلطانًا جائرًا مستحِلًّا لحُرَم الله، ناكثًا لعهد الله، مخالفًا لسُنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيِّر عليه بقولٍ أو فعل، كان حقًّا على الله أنْ يُدخله مدخله، ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن»[١].

فهذا ليس حديث سياسيّين يتصارعون على ملك، بل هو بيانٌ واضحٌ أنّ القضية عقَديّة محضة، لأنها تتعلّق بحفظ الدين من التلاعب.

وأما زعمك أنّ إصراره عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الذي أدّى إلى وقوع الحادثة، فاعلم أنّ المسؤولية لا تقع على من يُطالِب بالحقّ، بل تقع على مَن يمنعه بالقوة، فلو أنّ يزيد لَعَنَهُ اللهُ ترك الناس أحرارًا في بيعتهم، لما احتاج إلى أنْ يقتل الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولكن لأنه أراد أنْ يُجبر الناس على بيعته بالسيف، لم يكن أمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ خيارٌ سوى رفض الخضوع، بل إنّ هذا المنطق الذي تطرحه هو نفسه الذي استخدمه الطغاة عبر التاريخ ضدَّ كل من وقف أمام ظلمهم، فقالوا: «لو لم يعترض علينا فلان، لما قتلناه»!

(١) تاريخ الطبري، ج٥، ص٤٠٣؛ الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ج٣، ص١٥٩.

فهل يُقبَل هذا المنطق من فرعون حين قَتل أنبياء بني إسرائيل؟ أو من النمرود حين تحدّى إبراهيم عليه السلام؟ أو من قريش حين اضطهدتِ المسلمين؟!

إنك إذ تُطالِب الحسين عليه السلام بأنْ يبايع ليتجنُّب الفتنة، فإنما تُطالِب الإسلام نفسه بأنْ يخضع للطغيان من أجل السلامة، ولكنَّ الحسين عليه السلام علّم الأمة أنّ الإسلام لا يُحفَظ بالاستسلام، بل يُحفَظ بالموقف الصادق، ولو كلَّف الدم.. فأعدِ النظر في المسألة، واترك عنك هذه التصوُّرات التي تسلب من الحسين عليه السلام أعظم مواقفه، وتأمّلْ في كلامه وخُطَبه، فإنك ستجد أنه لم يكن رجل سياسة، بل كان رجل مبدأ، والمبدأ لا يُباع ولو اجتمعت عليه سيوف الأرض.

المخالف: إنّ يزيد كان مجرَّد «حاكم بشريّ له أخطاؤه»، وليس عدوًّا للدين كما صُوِّر في الروايات الشيعيّة، بل كان «ملكًا سياسيًّا» تحكمه الظروف.

الإماميّ: إنّ دفاعك عن يزيد لعنه الله بمحاولةِ تصويره «ملكًا سياسيًّا تحكمه الظروف» دون أنْ يكون عدوًّا للدين هو تبريرٌ لا يصمد أمام الحقائق التاريخيّة التي حفظتها كتب أهل السُّنة أنفسهم، وليس كتب الشيعة فقط.. فإنك إذ تحاول أنْ تفصل بين الحكم والسياسة من جهة، وبين الدين من جهةٍ أخرى، تتجاهل أنّ الخلافة الإسلاميّة لم تكن حكمًا دنيويًّا بحتًا، بل كانت امتدادًا لرسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومسؤوليةً لحماية الدين، فأيّ حاكمٍ لا يحفظ

حدود الله، ولا يرعى مصالح الأمة، فإنه ليس مجرَّد «ملكٍ له أخطاؤه»، بل هو عدوٌّ للإسلام؛ لأنه يمثّل خطرًا على الدين في مبادئه، ويُحرِّف مقاصده عن مسارها الصحيح، يقول الآلوسيّ في التفسير: «الذي يغلب على ظني أنّ الخبيث لم يكن مصدِّقاً برسالة النبي وأنّ مجموع ما فعل مع أهل حرم الله وأهل حرم نبيّه عليه الصلاة والسلام وعترته الطيبين الطاهرين في الحياة وبعد الممات وما صدر منه من المخازي ليس بأضعف دلالة على عدم تصديقه من إلقاء ورقةٍ من المصحف الشريف في قذَر؛ ولا أظنّ أنّ أمره كان خافيًا على أجلّة المسلمين»[1].

ثم إنك تعلم كما يعلم كل مسلمٍ أنّ يزيد بن معاوية لم يكن من أهل التقوى والورع، ولم يكن من أهل الفضل والإصلاح، بل شهدت عليه كتب التاريخ والحديث بأنه كان شاربًا للخمر، مستهترًا بحرُمات الله، مقترفًا لأعظم الجرائم في تاريخ الأمة، وأنت إنْ كنت ترى أنه مجرَّد «ملكٍ تحكمه الظروف»، فهل يمكنك أنْ تفسّر لي كيف يمكن أنْ يكون قاتل سبط النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومستبيح مدينة رسول الله مجرَّد «ملكٍ»؟!

أما ما قاله علماء أهل السُّنة عن يزيد لعنه الله، فقد روى الإمام ابن الجوزي في كتابه «الرد على المتعصّب العنيد» أنّ يزيد كان فاسقًا فاجرًا، فقال: «اتفقوا على جواز لعنه؛ لأنه كان مُستَخِفًّا بالدين، يقتل أهل الحرم، ويشرب الخمر، ويقول بالدّعارة، ولم يكن له

(١) تفسير الآلوسي، ج٢٦، ص٧٣.

معرفةٌ بالعلم ولا بالدين»[١]. فإنْ كان هذا وصف علماء أهل السُّنة له، فكيف تُحاول أنْ تجعله مجرَّد «حاكمٍ سياسيّ»؟!

ثم لننظر إلى شهاداتٍ أخرى من علماء السُّنة المعتبَرين، فقد قال عنه الإمام الذهبي في «تاريخ الإسلام»: «كان ناصبيًّا فظًّا، غليظًا، جلفًا، يتناول المسكر، ويفعل المنكر، افتتح دولته بمقتل الحسين، واختتمها بواقعة الحَرّة، فمقَته الناس»[٢]. فهل هذا الوصف يُمكن أنْ يُقال عنه: إنه مجرَّد «ملكٍ اجتهد، فأخطأ»؟ أو إنه وصفٌ صريحٌ لطاغيةٍ فاجرٍ لا صلة له بحاكميّة الإسلام؟!

وأما ما فعله يزيد من جرائم، فأنت تعلم أنّ مصيبة كربلاء لم تكن الفاجعة الوحيدة التي ارتكبها، بل كان هو الذي أمر بإباحة المدينة في وقعة الحَرة، حيث روى ابن كثير في «البداية والنهاية» أنّ جيشه قتل آلاف المسلمين في المدينة المنورة، وانتهك الأعراض، وأباح دماء الصحابة وأبناءهم، حتى قال المؤرِّخون: إنّ عدد مَن قُتل كان بالآلاف، وإنه لم تبق فتاةٌ في المدينة إلا وهُتكت حرمتها[٣]. فهل يكون مَن يفعل هذا مجرَّد «ملكٍ تحكمه الظروف»؟! أو هو نموذجٌ للحاكم الطاغية الذي يُفسِد في الأرض، ويستحقّ اللعنة على ألسِنة المؤمنين؟!

وأما قول الإمام أحمد بن حنبل في يزيد، فهو أوضح شهادةٍ

---

(١) الرد على المتعصب العنيد، ص١٩.
(٢) تاريخ الإسلام، ج٤، ص٣٧.
(٣) يُنظر: البداية والنهاية، لابن كثير، ج١١، ص٦١٤.

على أنه لا يمكن لمؤمنٍ أنْ يُحبَّه أو يُبرِّره، فقد قال ابن حجر الهيتمي في الصواعق: «روى ابن الجوزي عن القاضي أبي يعلى الفراء أنه روى في كتابه المعتمد في الأصول بإسناده إلى صالح بن أحمد بن حنبل، قال: قلت لأبي: إنّ قومًا ينسبوننا إلى تولّي يزيد. فقال: يا بنيّ، وهل يتولّى يزيد أحدٌ يؤمن بالله؟ ولِم لا يلعن من لعنه الله في كتابه! فقلت: وأين لعَن اللهُ يزيد في كتابه؟ فقال: في قوله تعالى ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾[(١)]، فهل يكون فسادٌ أعظم من القتل. وفي رواية: «فقال: يا بني ما أقول في رجلٍ لعنه الله في كتابه، فذكره». قال ابن الجوزي: وصنّف القاضي أبو يعلى كتابًا ذكر فيه بيان من يستحقّ اللعن، وذكر منهم يزيد، ثم ذكر حديث «من أخاف أهل المدينة ظلمًا أخافه الله، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين». ولا خلاف أنّ يزيد غزا المدينة بجيشٍ، وأخاف أهلها»[(٢)].

فإنْ كنت بعد هذا ترى أنّ يزيد مجرَّد «حاكمٍ سياسيّ»، فكيف يقول إمام أهل السُّنة: إنه لا يُمكن لمؤمنٍ بالله واليوم الآخر أنْ يُحبّه؟!

ثم إنك تحاول أنْ تجعل يزيد معذورًا بـ«الظروف السياسيّة»، ولكنْ هل الظروف تبرِّر قتل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟! وهل

(١) محمد: ٢٢-٢٣.
(٢) الصواعق المحرقة، ج٢، ص٦٣٥.

الظروف تبرِّر استباحة المدينة؟! وهل الظروف تبرِّر التلاعب بالدين وشرب الخمور؟! أو إنك ترى أنّ الحكم الإسلاميّ لا علاقة له بالقِيم الدينية، بحيث يُمكن للحاكم أنْ يفعل ما يشاء ما دام في «ظروفٍ سياسيّة»؟!

فإنْ كنت ترى أنّ هذا مقبولٌ، فاعلم أنك بذلك تُسقِط كل معنى للخلافة الإسلاميّة، وتجعلها نظامًا دنيويًّا، لا فرق بينه وبين حكم الطواغيت.

وإنك إذ تحاول أنْ تدافع عن يزيد بهذه الطريقة، لا تفعل إلا أنك تتجاهل ما قاله علماؤك عنه، وتحاول أنْ تُسقِط عنه مسؤوليّة الجرائم التي لم يختلف أحدٌ من أهل السُّنة والشيعة على شناعتها. فإنْ كنت تريد الإنصاف، فارجعْ إلى كتبك، وانظر كيف أنّ يزيد لم يكن مجرَّد «ملك»، بل كان فتنةً للأمة، وعدوًّا للإسلام في أصله، كما وصفه علماء أهل السُّنة بذلك. والله المستعان على من يُحاول طمس الحقائق، وتبرير جرائم لا يُمكن تبريرها شرعًا ولا عقلًا.

المخالف: إنّ ما وقع في كربلاء لم يكن سوى اجتهادٍ متقابلٍ من كلا الطرفين، حيث تصرّف كل منهما على وفق ما رآه صوابًا، وعليه فلا يمكن إلقاء اللوم بالكامل على يزيد أو السلطة الأمويّة وحدها. فالأحداث كانت نتيجة اضطرابٍ سياسيّ، وتصرُّفات جيش يزيد لم تكن بدافع الظلم المطلق، بل كانت استجابةً للفتنة والخوف من وقوع الفرقة والانقسام في الأمة، مما دفعهم لاتّخاذ قرارات قاسية لضبط الأوضاع.

الإماميّ: إنّ تصويـرك لمـا وقـع فـي كربـلاء علـى أنـه «اجتهـاد متقابـل» بيـن طرفيـن متكافئيـن فـي الرؤيـة والنيّـة، وأنّ جيـش يزيـد لـم يكـن ظالمًـا بـل كان يسـعى إلـى ضبـط الأوضـاع ومنـع الفتنـة، هـو تحريـفٌ لحقيقـةٍ شـهدتْ عليهـا كتـب التاريـخ والحديـث عنـد أهـل السُّـنة قبـل غيرهـم.

فإنـك إنْ كنـت تزعـم أنّ مـا جـرى كان نتيجـة «اجتهـاد»، فأسـألك: هـل يُسـمى ذبـحُ ابـن بنـت رسـول اللـه صلى الله عليه وآله وسلم وأهـل بيتـه وأصحابـه وسـبْي نسـائه ورفْـع رأسـه علـى رمـحٍ، اجتهـادًا؟! فـإنّ الاجتهـاد لا يكـون فـي قتـل الأبريـاء، بـل فـي البحـث عـن الحـقّ علـى وفـق مـا أمـر اللـه ورسـوله؟!

إنْ كنـت تـرى أنّ كربـلاء كانـت مجـرَّد «فتنـة» وأنّ الجيـش الأمـويّ لـم يكـن ظالمًـا مطلقًـا، فارجـع إلـى مـا قالـه ابـن تيميـة فـي «منهـاج السُّـنة»، حيـث وصـف مقتـل الإمـام الحسـين عليه السلام بقولـه: «لا ريـب أنّ الحسـين عليه السلام قُتـل مظلومًـا شـهيدًا...»[1]. ونقـل المنـاوي فـي «فيـض القديـر» قـول التفتازانـي فـي يزيـد بـن معاويـة (لعنهمـا اللـه)، ونصّـه: «لا أشـك فـي إسـلامه، بـل فـي كفـره وإيمانـه، فلعنـة اللـه عليـه وعلـى أنصـاره وأعوانـه»[2]، وقـال اليافعـي: «وأمـا حكـم مَـن قتـل الحسـين أو أمـر بقتلـه ممـن اسـتحلّ ذلـك، فهـو كافـر»[3].

(١) منهاج السنة، ج٤، ص٥٥٠.
(٢) فيض القدير، ج١، ص٢٠٤.
(٣) شذرات الذهب، ج١، ص٢٧٩.

فـإنْ كان ابـن تيميـة نفسـه –وهـو مـن شـيوخ الإسـلام عندكـم– يـرى أنّ الحسـين عليه السلام قتـل مظلومـًا شـهيدًا، والتفتازانـي الـذي يُعـدّ إمامًـا مـن أئمـة التحقيـق والتدقيـق – وكذلـك الإمـام اليافعـي – يريـان كفـر يزيـد بـن معاويـة (عليهمـا لعائـن اللـه).. فأيـن هـو الاجتهـاد المزعـوم؟! أم إنّ الفسـق والكفـر يُصبحـان اجتهـادًا إذا وقعـا مـن طاغيـةٍ يُـراد تبريـر فسـقه وكفـره؟!

ثـم أجبنـي: هـل كان الحسـين عليه السلام طالـب حكـمٍ وسـلطة، أو كان خارجًـا للإصـلاح فـي الأمـة؟ فـإنْ عـدت إلـى تاريـخ الطبـري - كمـا مـرّت الإشـارة إليـه – تجـد أنّ الإمـام الحسـين عليه السلام قـال فـي إحـدى خطبـه: «إنـي لـم أخـرج أشِـرًا ولا بطـرًا، ولا مفسـدًا ولا ظالمًـا، وإنمـا خرجـت لطلـب الإصـلاح فـي أمـة جـدّي».. فـإنْ كان خروجـه للإصـلاح، فأيـن هـو «الاجتهـاد المقابـل» مـن جيـشٍ جـاء ليقتلـه، ويمحـو اسـمه؟! وهـل يكـون الإصـلاح نقيضًـا للحـقّ، بحيـث يُعـدُّ قتالـه اجتهـادًا؟!

أما زعمك أنّ الجيش الأموي لـم يكـن مدفوعًا بالظلـم المطلق، بل كان يخشـى الفتنة والانقسـام، فهـذا قلـبٌ للحقائق؛ لأن الفتنـة الحقيقيـة لـم تكـن فـي حركـة الإمـام الحسـين عليه السلام، بـل كانـت فـي إجبـار الأمّـة علـى بيعة رجـلٍ فاسـقٍ لا يمثّـل الإسـلام.. فـإنْ كان الحسـين عليه السلام فتنـةً، فلمـاذا قـال النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «حسـينٌ منـي، وأنـا مـن حسـين، أحـبَّ اللـهُ مـن أحـب حسـينًا»؟! فهـل كان النبـي صلى الله عليه وآله وسلم يُحـبّ الفتنـة؟! أو إنّ الفتنـة كانـتْ فـي يزيـد اللعيـن الـذي قُتِـل الحسـين عليه السلام علـى يديـه؟!

ثـم لننظـرْ إلـى طبيعـة الجيـش الأُمـوي، فإنـك تحـاول أنْ تصـوِّره أنـه جيـشٌ نظامـيٌّ اضطـرّ لاتّخـاذ قـراراتٍ قاسـيةٍ «لضبـط الأوضـاع»، ولكـنْ كيـف تُبـرِّر أنّ هـذا الجيـش لـم يكتـفِ بقتـل الحسـين عليه السلام، بـل أحـرَق خيـام النسـاء، وضـرب السـيدة زينـب عليها السلام، وسـاق بنـاتِ رسـول اللـه صلى الله عليه وآله وسلم سـبايا إلـى الشـام؟! أ هـذه إجـراءاتٌ «لضبـط الأوضـاع»، أم إنهـا وحشـيةٌ لا تُبرِّرهـا أيّ شـريعة؟!

فـإنْ كنـت تـرى أنّ هـذا الجيـش اجتهـد، فبمـاذا تفسِّـر المجـزرة التـي أوقعهـا هـذا الجيـش فـي الحسـين عليه السلام وأهـل بيتـه وأنصـاره، ولـم ينـجُ منهـم حتـى الطفـل الرضيـع؟! أ هـذا اجتهـاد، أم إبـادةٌ بحـقّ آل بيـت النبـي صلى الله عليه وآله وسلم؟!

أمـا زعُمـك أنّ اللـوم لا يقـع علـى يزيـد وحـده، فاسـمع مـا قالـه عنـه الإمـام أحمـد بـن حنبـل فـي كتـاب «السُّـنة» للخـلال، حيـن سـأله ابنُـه عـن يزيـد، فقـال: «هـو الـذي فعـل بالمدينـة مـا فعـل، ومَـن قتـل الحسـين، ونهـب المدينـة، أفـلا يُبغـض؟! واللـهِ لا يُحبّـه أحـدٌ يؤمـن باللـه واليـوم الآخـر»(١).. فـإنْ كان إمـام أهـل السُّـنة يقـول هـذا، فكيـف تأتـي اليـوم لتخفِّـف مسـؤوليّة يزيـد لعنه الله؟!

وإنـك لـن تجـد فـي كتـب التاريـخ والحديـث عنـد أهـل السُّـنة مـا يُمكـن أنْ يُبـرِّر هـذه الجريمـة، ولـن تجـد عالمًـا معتبَـرًا يقـول: إنّ قتْـل الحسـين عليه السلام كان اجتهـادًا، أو إنّ الجيـش الأمـويّ كان «يخشـى الفتنـة»، بـل سـتجدهم يصرِّحـون أنّ الحسـين عليه السلام كان شـهيدًا مظلومًـا،

---

(١) السُّنة، للخلال، ج٣، ص٥٤٥.

وأنّ يزيد كان ظالمًا فاسقًا.. فإنْ كنتَ تُنكِر ذلك، فراجع كتبك، واقرأْها بعقلٍ منصف، وسترى أنّ من يُحاول أنْ يُبرِّر ما لا يُبرَّر، إنما يُجادل بغير علمٍ، وليس بعد الحقِّ إلا الضلال.

المخالف: لكنْ على رغم مأساة كربلاء، إلا أنّ الإسلام لم يُمحَ، وبقيت الشريعة قائمة، مما يعني أنّ الصراع لم يكن على «بقاء الإسلام» كما يُطرَح، بل كان صراعًا على الحكم بين بني هاشم وبني أميّة.

الإماميّ: إنك إذ تحاول أنْ تقلِّل من قيمة كربلاء في الحفاظ على الإسلام، بحجّة أنّ الشريعة لم تُمحَ بعد استشهاد الحسين عليه السلام، وكأنّ الإسلام كان سيبقى كما هو، سواء قُتل الحسين أم لم يُقتَل، فإنك تغفل عن حقيقةٍ أساسية، وهي أنّ الإسلام ليس مجرَّد نصوصٍ محفوظة، بل هو منظومةٌ حيّةٌ تتجسَّد في أفعال القادة والرموز، وأنّ الانحراف في رأس السلطة ليس مجرَّد انحرافٍ سياسيّ، بل هو خطرٌ يُهدِّد مبادئ العقيدة، ويفتح الباب لتحريف الدين من الداخل.

إنك تقول: إنّ الإسلام لم يُمحَ بعد كربلاء، ولكنْ أخبرني: أيّ إسلامٍ بقي؟! أهو إسلام يزيد اللعين الذي كان يُجاهر بشرب الخمر، ويُعلن تلاعبه بالدين، حتى قال كما في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، عندما رأى رأس الإمام الحسين عليه السلام:

«لعبت هاشم بالملك فلا   خبرٌ جاء ولا وحيٌ نزل»![١]

فأيُّ بقاءٍ للإسلام مع حاكمٍ يُعلن أنّ وحي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن إلا خدعةً سياسيّة؟! وأيُّ شريعةٍ يمكن أنْ تُحفَظ تحت حكم رجلٍ يستبيح مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في واقعة الحَرة، كما نَقل ابن كثير في البداية والنهاية: «وانتهبوا المدينة ثلاثة أيام، وقَتلوا خلقًا من الصحابة وأبنائهم، وافتضّوا الأبكار»[٢]؟! فإنْ كنت ترى أنّ الإسلام لم يُمحَ، فهل هذا هو الإسلام الذي كان يريده رسول الله؟!

أما ادّعاؤك أنّ الصراع لم يكن على «بقاء الإسلام»، بل كان مجرَّد صراعٍ سياسيٍّ بين بني هاشم وبني أميّة، فهذا تبسيطٌ ساذجٌ لا يليق بمن يقرأ التاريخ بعقلٍ ناقد.. فإنّ بني أمية لم يكونوا مجرَّد خصومٍ سياسيّين لبني هاشم، بل كانوا أعداء حقيقيّين للإسلام منذ يومه الأول، وكانوا يسعَون لإفراغه من مضمونه، وتحويله إلى أداةٍ لحكمهم.. فإنْ كنت ترى أنّ بني أمية لم يكونوا خطرًا على الدين، فكيف تُفسِّر قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الذي أخرجه الحاكم في مستدركه، حيث قال: «إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلًا، اتّخذوا دين الله دَغَلًا، وعباده خَوَلًا، وماله دُوَلًا»[٣]؟! أليس هذا تحذيرًا نبويًّا صريحًا بأنّ بني أمية سيجعلون الدين وسيلةً لحكمهم، لا منهجًا لقيادتهم؟!

---

(١) شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي، ج١، ص٢٧٣-٢٨٠.
(٢) البداية والنهاية، ج١، ص٦٢٣.
(٣) المستدرك على الصحيحين، للحاكم، ج٤، ص٥٢٧.

إنّ الحسين عليه السلام لم يخرج ليُطالب بملكٍ شخصيٍّ، وإنما خرج ليمنع الإسلام من أنْ يتحوَّل إلى لعبةٍ بيد الطغاة، فقال في خطبته كما رواها الطبري في تاريخه: «ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله، واستأثروا بالفيء، وعطّلوا الحدود، وأخذوا مال الله دُولًا»(١)، فهل ترى أنّ هذا مجرَّد صراعٍ سياسيّ؟! أو إنه إنذارٌ بأنّ الإسلام يتعرَّض للتحريف على يد السلطة الأمويّة؟!

ثم لننظر إلى الواقع بعد كربلاء، فإنْ كنت تزعم أنّ الإسلام لم يتأثَّر، فلماذا تحوّل الحكم الإسلاميّ إلى ملكٍ وراثيٍّ بعد يزيد، حتى صار الخلفاء يتوارثون السلطة كما يتوارث الملوك عروشهم، مع أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال في الحديث الصحيح الذي رواه الترمذي في سننه، وصحَّحه الألباني: «الخلافة في أمتي ثلاثون سنة، ثم يكون ملكًا عضوضًا»(٢)؟! أليس هذا إقرارًا نبويًّا بأنّ بني أمية سيحرِّفون نظام الحكم الإسلاميّ، ويحوّلونه إلى نظامٍ استبداديٍّ؟!

وإنْ كنت ترى أنّ الإسلام لم يُمحَ بعد كربلاء، فاعلم أنّ بقاء الاسم شيء، وبقاء المبادئ شيءٌ آخر، والإسلام الذي جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إسلامًا قائمًا على العدل، أما الإسلام الذي أراده يزيد فكان إسلامًا مشوَّهًا، يُجيز قتل الأبرياء، وانتهاك الحرُمات، واستباحة الأمة.. فلو لم ينهض الإمام الحسين عليه السلام، لكان هذا

(١) تاريخ الطبري، ج٥، ص٤٠٣.
(٢) سنن الترمذي، ج٤، ص٥٠٣.

الإسلام الأمويّ هو الصورة الوحيدة الباقية، ولأصبح الدين وسيلةً في يد الحُكّام، كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن حكّام آخر الزمان في صحيح مسلم: «يكون أمراءُ تَعرِفون، وتُنكِرون، فمَن أنكر فقد بَرِئ، ومن كره فقد سَلِم، ولكنْ من رضيَ، وتابع»[1]، فأيّ إنكارٍ أعظم من نهضة الحسين عليه السلام؟!

فإنْ كنتَ منصفًا، أدركت أنّ ما وقع في كربلاء لم يكن مجرَّد صراعٍ سياسيّ، بل كان معركةً على بقاء مبادئ الإسلام وأصوله، وأنّ الإسلام الذي بقي بعد كربلاء لم يكن الإسلامَ الأُموي، بل الإسلام الذي سُقي بدم الحسين عليه السلام، وما ضلّ من فهِم ذلك، وما اهتدى من أنكر هذه الحقيقة، والله المستعان.

الخلاصة والنتائج:

إنّ النقاش حول واقعة كربلاء يتجاوز كونه مجرَّد استعراضٍ للتاريخ، بل هو قراءةٌ لمرحلةٍ مفصليةٍ شكّلتِ انعطافةً حاسمةً في مسار الإسلام، فمن يظن أنّ ما جرى كان مجرَّد نزاعٍ سياسيّ أو صراعٍ على السلطة، إنما ينظر إلى الأحداث بسطحيّةٍ تُسقِط أبعادها العقَديّة والمعنوية، في حين أنّ الحقيقة التي لا يمكن إنكارها هي أنّ كربلاء كانت مواجهةً بين خطين متناقضين: خطٍّ يمثل الإسلام المحمديّ الأصيل الذي أراده الله سبحانه نورًا وهدايةً للأمة، وخطٍّ آخر يمثل الانحراف الأمويّ الذي أراد أنْ يُلبِس الإسلام

(١) صحيح مسلم، ج٣، ص١٤٨٠، تـ عبد الباقي.

ثـوب الجاهليـة الجديـدة.

لقـد أثبتـت الوقائـع أنّ الإمـام الحسـين عليه السلام لـم يكـن طالـبَ ملـكٍ ولا سـاعيًا وراء سـلطةٍ دنيويـة، بـل كان قائـدًا إلهيًّا خـرج ليحفـظ الديـن مـن التحريـف، ويُعيـد للأمـة وعيهـا بعـد أنْ حـاول الطغـاة تدجينهـا بالخـوف والمـال والتضليـل، ولـو كان خروجُـه صراعًـا سياسـيًّا لانتهـى كمـا تنتهـي النزاعـات السياسـيّة بانتصـار طـرفٍ وهزيمـة آخـر، لكنـه كان ثـورةً ممتـدّةً عبـر الزمـن، لا تـزال تُلهِـب قلـوب الأحـرار، وتفضـح الظالميـن فـي كل عصـر.

إنّ محـاولات تصويـر يزيـد بـن معاويـة أنـه حاكـمٌ سياسـيٌّ اجتهـد، فأخطـأ، مـا هـي إلا تبريـراتٌ واهيـةٌ تُناقـض مـا أجمعـت عليـه مصـادر التاريـخ، التـي نقلـت فسـقه وفجـوره وجرائمـه الكبـرى، وأثبتـت أنّ قتلـه للحسـين عليه السلام لـم يكـن حادثـةً عابـرة، بـل كان حلقـةً فـي مشـروعٍ خطيـرٍ يرمـي إلـى إفـراغ الإسـلام مـن محتـواه، وتحويلـه إلـى أداةٍ بيـد الطغـاة؛ لذلـك لـم تكـن نهضـة الحسـين عليه السلام خيـارًا سياسـيًّا، بـل كانـت فريضـةً عقَديّـة، ولـو لـم يخـرج عليه السلام لـكان يزيـد قـد نجـح فـي دفـن روح الإسـلام تحـت ركام السـلطة الأمويّـة الجائـرة.

والنتيجـة التـي لا يمكـن التغافـل عنهـا هـي أنّ كربـلاء لـم تكـن مجـرَّد حادثـةٍ تاريخيّـة، بـل كانـت ومـا زالـت ميزانًـا يُفـرِّق بيـن الحـقّ والباطـل، وكل مـن يحـاول اختزالهـا فـي بُعـدٍ سياسـيّ أو يتنكَّـر لمظلوميَّتهـا، فإنـه يكـرِّر خطيئـة الذيـن وقفـوا متفرِّجيـن يـوم الطـف، أو اكتفَـوا بتبريـر جريمـة يزيـد وأعوانـه.

إنّ بقاء كربلاء في وجدان الأمة ليس من قبيل العاطفة؛ بل لأنها تمثل أساس الصراع الأزليّ بين الطغيان والمبدأ، بين الدين الذي أراده الله سبحانه والدين الذي أراده بنو أميّة.

وعلى هذا الأساس فإنّ كل محاولةٍ لتبرئة يزيد أو تسويغ ما جرى، ليست سوى امتدادٍ للمشروع الأمويّ الذي لا يزال يجد له أنصارًا حتى اليوم، بينما يبقى نداء الحسين عَلَيهِ السَّلَام خالدًا: «هيهات منّا الذلّة»، ليذكّر كلَّ الأحرار بأنّ الدين لا يُباع، وأنّ الوقوف بوجه الطغاة واجبٌ مهما كانت التضحيات.

الفَصلُ التّاسِعُ

حقيقةُ طاعة وليّ الأمر بين النصّ القرآنيّ والاستغلال الأُمويّ

حقيقةُ طاعة وليّ الأمر بين النصّ القرآنيّ والاستغلال الأُمويّ

إنّ الطعن في ثورة الإمام الحسين عليه السلام ومحاولة تصويرها خروجًا على "وليّ الأمر" هو أحدُ أقدم المغالطات التي صنعها الإعلام الأُمويّ وأتْباعه لتبرير جرائم يزيد بن معاوية لعنه الله، وما أشبَه اليوم بالأمس! إذ لا يزال بعض المغفَّلين يردِّدون هذه الشُّبهة البائسة متناسين أنّ الحسين عليه السلام لم يكن مجرَّد رجلٍ من عامّة المسلمين، خرج ضدَّ طاغيةِ زمانه، بل كان الإمامَ المعصومَ، والحجَّة البالغة، والامتداد الشرعيّ لرسالة جدِّه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن الغريب أنْ تجد القوم يتمسَّكون بحديث "مَن مات، وليس في عنقه بيعةٌ مات مِيتة جاهليّة"، ليجعلوا من كلِّ متغلِّب بالسيف إمامًا شرعيًّا تجب طاعته، وكأنهم لم يقرأوا قول الله تعالى: ﴿لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[1]. فهل كان يزيد العاهر الفاجر الذي استباح المدينة، وقتل العترة الطاهرة وليَّ أمرٍ شرعيًّا؟! وهل جعل الله تعالى للفسَقة والجبابرة ولايةً على رقاب المسلمين؟! بل أيُّ عقلٍ وأيُّ دينٍ يُلزِم سبط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمبايعة رجلٍ مجاهر بالفسق، قاتلٍ للنفس المحرَّمة، حتى يُقال: إنّ الحسين عليه السلام شقّ عصا الطاعة؟!

إنّ مَن يثيرون هذه الشُّبهة يجهلون -أو يتجاهلون- أنّ الطاعة

(١) البقرة:١٢٤.

في الإسلام ليستْ مطلقة لأيِّ حاكم، بل هي مشروطةٌ بالحقِّ والعدل؛ ولهذا جاء حديث الثقلين صريحًا في وجوب اتِّباع الكتاب والعترة، وليس اتِّباع الظالمين والطغاة.. وقد نصّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم على إمامة الحسين عليه السلام بقوله: «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا»، فهل يكون الإمام الشرعيّ الذي أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بطاعته خارجًا على الدين، بينما يكون يزيد الذي تبرَّأت الأمة من أفعاله، هو الإمام الحق؟!

هذه السفسطة لا تصمد أمام أيِّ دليلٍ قرآنيّ أو نبوي، بل هي انعكاس لمنهج بني أميّة في تحويل الدين إلى أداةٍ لخدمة الطغيان، ولكنْ على رغم قرونٍ من التحريف والتضليل، بقي دمُ الحسين عليه السلام هو البرهان الذي لا يُدحَض، والحقيقة التي لا تُمحَى، واللعنة الأبديّة التي تطارد بني أميّة وأعوانهم إلى يوم القيامة.

الموارد الرئيسة للنقاش:

١ – خرافة الخروج على وليّ الأمر وتزييف الدين لتبرير الطغيان.

٢ – إمامة الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ووجوب طاعته بنصوص النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

٣ – استحالة أنْ يكون يزيد الفاسق "وليَّ أمرٍ" شرعيًّا؟!

٤ – يزيد قاتل الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلا تنطلي عليكم أكاذيب التبرئة.

٥ – ثورة الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، انتفاضةٌ إلهيّة لكشف زيف الحكم الأُمويّ.

٦ – هل كانت خيانة الكوفة سببًا في فشل النهضة أو سقوطًا للأمّة؟

٧ – هل كان يمكن للإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ تجنُّب المواجهة؟

٨ – تخاذل بعض الصحابة، فهل يكون الجُبن ميزانًا للحقّ؟!

٩ – دم الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ لعنةٌ أبديّة على بني أميّة وإحياءٌ للإسلام الحقيقيّ.

انطلاقة الحوار

المخالف: إنّ خروج الحسين رضي الله عنه على يزيدَ كان خروجًا على وليّ الأمر، وهو أمرٌ منهيٌّ عنه في الإسلام، بدلالة أحاديث طاعة الحُكّام وعدم شقِّ عصا الطاعة، ومنها حديث: «مَن مات، وليس في عنقه بيعةٌ مات مِيتة جاهليّة».

الإماميّ: إنّ طرحك لهذا الإشكال يكشف عن جهلٍ فاضحٍ بحقيقة الإمامة ومعايير القيادة الشرعيّة في الإسلام، كما يُظهِر انسياقك الأعمى وراء الفكر الأُمويّ الذي حوّل مفهوم "وليّ

الأمر" إلى غطاءٍ للظلَمة والطْغاة.. وهنا دعني أصحّح لك الفهم من جذوره؛ لأن مشكلتك ليست في حديثٍ تجهل تأويله، بل في عقيدةٍ فاسدةٍ ورثْتَها عن سلفك الذين وضعوا الحديث في خدمة الجبابرة، وجعلوا من الإسلام دينًا يُشرعِن الاستبداد، ويؤلِّه الفسَقة.

إنْ كنتَ تظن أنّ حديث «من مات، وليس في عنقه بيعةٌ مات مِيتة جاهليّة» يُلزِم الناس بمبايعة أيّ متغلِّبٍ بالسيف، فأنت تهرف بما لا تعرف؛ لأن الحديث ليس مطلقًا، بل يتحدَّث عن البيعة للإمام الحقّ الذي يكون على منهاج النبوّة، لا لمن استولى على الحكم بالقوة والظلم، وإنْ كنت تجهل ذلك، فارجع إلى كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين قال: «الإمام من بعدي علي، ثم الحسن، ثم الحسين، ثم تسعةٌ من صلب الحسين، هم أئمةٌ أبرار، إنْ أطاعوهم اهتدوا، وإنْ عصوهم ضلّوا»[١].

فالإمامةُ ليستْ سلطةً دنيويّة تُنتزَع بالسيف، بل هي عهدٌ إلهيٌّ لا يناله الظالمون، كما قال تعالى: ﴿لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[٢]، فكيف تزعم أنّ يزيد الفاجر شارب الخمر، قاتِل العترة الطاهرة، وليّ أمرٍ تجب طاعته؟! أيُّ دينٍ هذا الذي يُنصِّبُ الظالمين حكّامًا، ويجعل طاعتهم من أصول العقيدة؟!

ولكنْ دعني أضعْ لك الحجَّة الدامغة التي تقطع كل تأويلٍ

(١) ينابيع المودة، للقندوزي الحنفي، ج٣، ص٣٨٠.
(٢) البقرة:١٢٤.

سقيمٍ تحاولون به شرعَنة الطغيان، وهي حديثُ الثقلين، الذي رواه علماء المسلمين من مختلف المذاهب، حيث قال النبي ﷺ: «إني تاركٌ فيكم ما إنْ تمسَّكتم به لن تضلّوا بعدي، أحدهما أعظمُ من الآخر: كتاب الله، حبلٌ ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يرِدا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»(١)، فهذا الحديث نصٌّ قاطعٌ على أنّ الهداية الحقيقيّة بعد رسول الله ﷺ لا تكون إلا باتّباع الكتاب والعترة، وليس بموالاة الطغاة والجبابرة.

ولكنك قد تسأل: من هم العترة؟ أقول لك: إنّ النبي ﷺ لم يترك الأمر غامضًا حتى تتيه فيه عقول من أعْمَتْهم الدنيا، بل بيَّن بوضوحٍ من هم العترة، وذلك في حديث الكساء، الصحيح، بل المتواتر حيث روى مسلم في صحيحه أنّ النبي ﷺ جمع عليًّا وفاطمة والحسن والحسين تحت الكساء، وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي، فأذهِبْ عنهمُ الرجس، وطهِّرهم تطهيرًا»(٢). فهذا يعني أنّ العترة الذين أمرنا النبي ﷺ باتّباعهم هم هؤلاء الخمسة أولًا، ثم الأئمة من ذرية الحسين عليه السلام، كما نصّت الروايات المتواترة.

وعليه، فإنّ الإمام الحسين عليه السلام كان الإمام الشرعيَّ الذي فرض اللهُ طاعته على الأمة، وكان يزيدُ مجرَّد طاغيةٍ مارق، لا يمتُّ للإسلام بصلةٍ.. فأيّ بيعةٍ هذه التي تطلبها منه؟ هل تريده

(١) مختصر صحيح الجامع الصغير، للسيوطي والألباني، رقم الحديث ١٧٢٦ - ٢٤٥٨.
(٢) صحيح مسلم، ج٧، ص١٣٠.

أنْ يبايع مَن خالف وصيّة جدِّه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم واستباح دم أهل بيته؟ أيُّ دينٍ هذا الذي يجعل طاعة الفاسق مقدَّمة على طاعة أوصياء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ أليس هذا عين الضلال الذي حذّر منه حديث الثقلين؟

إنْ كنتُم تحتجّون بحديث البيعة، فنحن نحتجّ بحديث الثقلين الذي يربط النجاة باتِّباع العترة، فهل كان يزيدُ من العترة؟ أو كان قاتل العترة وسفّاك دمائهم؟ إنْ كنتم صادقين فأجيبوا، وإلّا فاعلموا أنكم تنصرون منهج بني أميّة الذين جعلوا من الدين مطيّةً لظلمهم، وشرعَنوا الطغيان تحت عباءة الإسلام، وستعلمون يوم الحساب أنكم كنتم في ضلالٍ مُبيْن!

ثم إنني أراك تتشدّق بأحاديث الطاعة، ولكنك تتعامى عن أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم التي حذّرت من طغيان بني أميّة، ومنها قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلًا، اتخذوا مالَ الله دُولًا، وعباد الله خولًا، ودين الله دغلًا». وصحَّحه الحاكم، ووافقه الذهبي(١).. فهل تريد من الحسين عليه السلام أنْ يبايع مَن حذّر جدُّه من حكمهم؟! أو أنك تريد أنْ تقنعنا بأنّ يزيد كان إمامًا معصومًا حتى تجب طاعته بلا قيدٍ ولا شرط؟!

ثم بأيّ عقلٍ تتجرّأ على وصف ثورة الحسين عليه السلام بأنها "شقٌّ لعصا الطاعة"؟ أيُّ طاعةٍ تلك التي تُلزِم ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالخضوع لطاغيةٍ سكّير؟! وهل كان الصحابةُ الذين خلعوا

(١) المستدرك على الصحيحين، للحاكم، ج١٨، ص٢٨٢.

يزيد في المدينة وأهل مكة والكوفة وكلّ الأمة الذين أنكروا عليه حكمه أيضًا خوارج على وليّ الأمر؟! إنما هذا المنطق هو منطقُ الجاهليّة التي تُؤلِّه الحكّام، وتُسوِّغ ظلمهم، بينما الإسلام يأمر بمواجهة الظلم، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «وما أخذ الله على العلماء أنْ لا يُقارّوا على كظّة ظالمٍ ولا سغب مظلومٍ»[(١)]. فهل تطلب من الحسين عليه السلام أنْ يُقرّ بظلم يزيد؟!

إنْ كنت ترى أنّ يزيدَ كان وليّ أمرٍ شرعيًّا، فإني سائلك سؤالًا واحدًا: هل كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يرضى بيزيد خليفةً على أمّته؟ إنْ قلت: نعم، فقد كذّبت النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي لعن بني أميّة، وإنْ قلت: لا، فقد أسقطت ولايته من أساسها.. فاخترْ لنفسك، ولا تكن من الذين اتّخذوا دينهم مطيّةً للطغاة، فوالله إنّ مَن رضي بيزيد وليًّا فقد أشرك بالله تعالى؛ لأنه جعل الطاعة المطلقة لغير أهلِها، وخالف ما أمر اللهُ عزّ وجلّ به من اتِّباع أوليائه المعصومين عليهم السلام.

المخالف: إنّ يزيد لم يكن مسؤولًا مباشرًا عن قتل الحسين رضي الله عنه، وإنما فعل ذلك عُبيد الله بن زياد والي الكوفة، وإنّ يزيد لما بلغه الخبر أظهر الحزن والأسف، وقد تبرَّأ من قتل الحسين، وألقى اللوم على ابن زياد.

الإماميّ: أراك تحاول أنْ تبرّئ يزيد بن معاوية من دم الحسين عليه السلام، مستندًا إلى رواياتٍ واهيةٍ صنعتْها الأقلام الأُمويّة المأجورة، ولكنك تخدع نفسَك قبل أنْ تخدع غيرك! فوالله، لو كانت كلُّ

(١) نهج البلاغة، الخطبة:٣.

قطـرةٍ دم سُـفكت فـي كربـلاء تصـرخ باسـم قاتلهـا، لمـا نـادت إلا بـ"يزيـد"! وهـل تظـن أنّ الأمـة قـد تنسـى مَـن هـو الـرأس المدبِّـر لـكلِّ مـا جـرى؟ أو إنـك تظـن أنّ محاولـة التبرئـة الهزيلـة هـذه سـتغيِّر مـن حقيقـةٍ شـهد عليهـا التاريـخ، ونطـق بهـا القاتـل نفسُـه بلسـانه قبـل أنْ ينطـق بهـا أعـداؤه؟

لتعلـمْ إذن أنّ يزيـد بـن معاويـة لـم يكـن بريئًـا مـن دم الحسـين عليه السلام، بـل كان هـو العقـل المدبِّـر، وهـو الآمـر الأول، وهـو الـذي هيّـأ كل مقدّمـات الجريمـة، وأرسـل أوامـرَه الصريحـة إلـى عبيـد اللـه بـن زيـاد بقتـل الحسـين عليه السلام أو إذلالـه.. ومـن يجهـلْ ذلـك فليقـرأ مـا كتبـه كبـار علمـاء أهـل السُّـنة مثـل المحقِّـق التفتازانـي فـي شـرح "العقائـد النسـفيّة"، حيـث قـال: «بعـض السـلف المجتهديـن والعلمـاء الصالحيـن أطلـق اللعـن عليـه؛ لأنـه كفـر حيـن أمَـر بقتـل الحسـين رضـي اللـه تعالـى عنـه»[1].. فـأيّ عقـلٍ يقبـل أنْ يكـون هـذا المجـرم باكيًـا علـى جريمـةٍ كان هـو المحـرِّض عليهـا والآمـر بهـا؟!

ثـم لا تكذبـوا علـى أنفسـكم بادّعـاء أنّ يزيـد نـدم أو تبـرَّأ مـن دم الحسـين عليه السلام، فقـد كشـف لسـانه عمّـا فـي قلبـه، حيـن جهَـر بكفـره الصريـح فـي مجلسـه بعـد أنْ رأى رأس الحسـين عليه السلام بيـن يديـه، فقـال مسـتهزئًا:

لعبتْ هاشمُ بالملكِ فلا خبرٌ جاءَ ولا وحيٌ نزلْ[2]

---

(١) دستور العلماء، ج٣، ص١٢٢.

(٢) تاريخ الطبري، ج٤، ص٣٥٨.

أيّ تبرئةٍ ليزيد بعد هذا؟ إنّ مَنْ ينسبه إلى الإسلام بعد أنْ صدح بهذا الكفر البواح، فهو إمّا أعمى القلب، وإمّا عبدٌ لسلاطين الجور، لا يعرف للحقِّ وجهًا.

كيف تزعم أنه ندم، وهو الذي طرب فرحًا لرؤية رأس سبط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين يديه؟ وكيف تزعم أنه لم يكنْ راضيًا، وهو الذي أمر بسبْي بنات النبي صلى الله عليه وآله وسلم من كربلاء إلى الشام، وأمر أنْ يُطاف بهنّ في الأسواق كالأسرى؟ وهل كان عاجزًا عن محاسبة ابن زياد إنْ كان حقًّا لا يرضى بفعلته؟ أو إن سلطته المطلقة توقَّفت فجأة عند الاقتصاص من سفّاحٍ ارتكب جريمةً يزعمون أنه "لم يأمر بها"؟

ثم أسألك بإنصاف: هل تبريرُك هذا هو دفاعٌ عن الحقِّ، أو مجرَّد تكرارٍ أصمّ لما قاله بنو أميّة منذ قرونٍ لتضليل العوامّ؟ فإنْ كنت تزعم أنّ يزيدَ لم يكن مسؤولًا، فلماذا احتفظ بالولاية لابن زياد بعد الجريمة، ولماذا كرّمه، وأغدق عليه الهبات؟ بل لماذا لم يعاقِب شمرًا، أو عمر بن سعد، أو أحدًا من المجرمين الذين نفّذوا المذبحة؟ أم إنه لم يجد جرمًا ليحاسبهم عليه؛ لأنهم نفّذوا ما كان يريد بالضبط؟!

ولكن هيهات أن تُخفى شمس الحقيقة بغربال الأكاذيب، فإنْ كان يزيد حقًّا "بريئًا" من دم الحسين عليه السلام، فلماذا بقيتْ لعنة الأمّة عليه تتوارثها الأجيال جيلًا بعد جيل؟ ولماذا لم يبرِّئه الصحابة والتابعون الذين رأوا في حكمه أبشع صور الاستبداد والانحراف؟

بل كيف نفسّر موقف الإمام زين العابدين عليه السلام الذي لم يتركْ فرصةً إلّا وأعلن فيها أنّ يزيد هو القاتل الحقيقي، على رغم كونه سجينًا في قصره؟

إنّ محاولة التبرئة هذه ليست سوى إعادةٍ ركيكةٍ لمسرحيّة التوبة الزائفة التي حاول يزيد نفسه أنْ يؤدِّيها حين رأى موجة السخط تجتاح الأمة بعد استشهاد الحسين عليه السلام، ولكنه على رغم كل ما أظهره من "حزنٍ" مزعوم، لم يغيِّر شيئًا من سياساته، ولم يُدِنْ سفّاحيْه، ولم يندم على شيءٍ، بل واصل نهجه الإجراميّ بانتهاك المدينة المنوَّرة في وقعة الحرة، وقتل فيها خيرة الصحابة، وأباحها لجُنده ثلاثة أيامٍ حتى ارتُكِبت فيها الفواحش، وهُتِكت الأعراض. فهل هذا هو الحاكم "النادم" الذي تدّعون أنه لم يرضَ بقتل الحسين عليه السلام؟ أو إنكم تريدون أنْ تقنعونا بأنّ الذي سفك دم الحسين الطاهر كان مجرَّد يدٍ منفِّذة، بينما الرأس المدبِّر ظلَّ طاهرًا بريئًا من الدماء؟

كلا، إنّ هذه الدماء الزكيّة ستبقى شاهدةً على أنّ يزيد هو القاتل الحقيقيّ، وأنّ التاريخ لن يرحم من يحاول تبييض صفحته السوداء، وأنّ الأمة التي تُنكِر هذه الجريمة أو تحاول الالتفاف حولها، إنما تشارك في جريمة دفن الحقّ كما فعل أسلافُها يوم أنكروا وصيّة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بآل بيته، فابتُلُوا بطغيان بني أميّة، وسقطوا في مستنقَع التبرير للظلَمة. فإنْ كان يزيد بريئًا، فأين عدالتُه؟ وأين محاسبته للقتَلة؟ وأين إنكاره الصريح للجريمة دون مواربة أو

نفاق؟ أم إنكم تبرِّئون مَن أمر بقتل الحسين عليه السلام لأنه لم يلطِّخ يديه بالدم مباشرةً، كما يبرّئ الجبناءُ سادتهم السفّاحين؟!

كلا، بل هو القاتل الأوّل، والمجرم الأكبر، والخزيُ يلاحقه إلى يوم القيامة، ومَن يتولّاه فقد اختار أنْ يكون مع الظالمين، فليتحمّلْ تبِعات موقفه، فإنّ يوم الحساب قريب.

المخالف: إنّ الحسين رضي الله عنه خرج إلى كربلاء دونَ أنْ يمتلك قوةً عسكريّةً كافية، بعدما تخلّى عنه أهل الكوفة، ونكثوا بيعتهم، وكان على علم مسبقٍ بأنّ هذا الطريق سينتهي به إلى الاستشهاد، ومع ذلك أصرّ على المضيّ فيه على رغم إدراكه للعواقب.

الإماميّ: إنك تزن الأمور بميزان السياسة الدنيويّة، وتتصوّر أنّ الثورات تُقاس بعدد الجنود والعدّة، متناسيًا أنّ نهضة سيد الشهداء عليه السلام لم تكن صراعًا على السلطة، بل كانت امتدادًا لمنهج النبوّة، وسيفًا إلهيًّا مسلولًا على الباطل. ولو كانت الحسابات الماديّة هي المقياس، لما حمل النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعوته في وجه قريش، وهو فردٌ لا ناصر له ولا معين، ولكنّ الله أراد أنْ يكون الدين قائمًا بالحقّ، لا بالقوة وحدها.

إنّ خروج الحسين عليه السلام إلى كربلاء -على رغم خذلان أهل الكوفة- لم يكن غفلةً منه، بل كان وعيًا مطلقًا بحقيقة المعركة. ولم يكن عليه السلام ليسكت على الطغيان الأمويّ، الذي حوّل الإسلام

إلى ملكٍ عضوض، يُباع فيه الدين بالدِّرهم والدينار. ولم يكن ليقبل العيش تحت سلطةٍ دنّست شريعة جده المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، وأرادت تحويل الرسالة الإلهية إلى إرثٍ وراثيّ يتلاعب به الفسَقة والفجّار. ولو كان الإمامُ الحسين عليه السلام يبحث عن سلامة نفسه لرضي بما ارتضاه المتخاذلون من السكوت، لكنه حمل راية «هيهات منّا الذلة» ليكشف زيف الظالمين، ويحيي الضمير الإسلاميّ الذي أرادوا إماتته بالخداع والترهيب.

أما قولك: إنه كان يعلم أنّ خروجه سيؤدِّي إلى مقتله، فهذا هو عين الحكمة والاصطفاء الإلهيّ، فقد شاء اللهُ أنْ تكون دماء الحسين عليه السلام طوفانًا يجرف عروش الظالمين، وأنْ تكون شهادته لعنةً أبديّةً على بني أميّة، حتى لا يبقى للإسلام وجهٌ مشوّه يُبرِّر الظلم باسم الدين. فهل كان الإمام الحسين عليه السلام يرضى أنْ يكون شريكًا في هذا الانحراف بالصَّمت والسكوت؟ أيّ إسلام يبقى بعد أنْ يصبح المتسلّط على رقاب المسلمين فاسقًا يشرب الخمر، ويقتل النفس المحرَّمة، ويستبيح المقدَّسات؟

إنك لا تدرك معنى الشهادة في قاموس أهل البيت عليهم السلام، فالنصر في منطق السماء لا يعني الغلَبة العسكريّة، بل يعني إبقاء راية الحقِّ مرفوعةً ولو تحت السيوف. فانظر كيف تحوّلتْ كلمات الإمام الحسين عليه السلام التي أطلقها يوم العاشر في كربلاء إلى زلزالٍ هزّ عروشَ الطغاة، حتى سقطت دولة بني أُميّة بعد سنواتٍ قليلةٍ من كربلاء، وبقي اسم الحسين عليه السلام خالدًا، فيما صار يزيد وأمثاله

لعناتٍ تجري على ألسِنة المؤمنين إلى يومِ القيامة.

أما استدلالك بأنّ الحسين عليه السلام كان يعلم أنه سيُقتل، فهو ليس حجّةً عليه، بل هو دليلٌ على عظمته؛ لأنه لم يتحرَّك على وفق حسابات دنيويّة، بل كان تحرُّكه إحياءً للدين. وقد نقل الحاكم النيسابوريّ في "المستدرك على الصحيحين" بسندٍ صحيح أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخبر أمّ سلمة بأنّ الحسين سيُقتل في كربلاء، وأعطاها تربةً من الأرض التي يُقتَل عليها[1]. فكيف يكون علم الحسين عليه السلام بقتله حجّةً عليه، بينما هو تنفيذ لوعد النبيّ؟ وهل كان عليه أنْ يخالف وصية جدِّه، ويبايع يزيد ليسلمَ من القتل؟

لا تنظر إلى قضيّة الحسين عليه السلام كأنها مجرَّد معركةٍ عسكريّةٍ تُحسَب بموازين الربح والخسارة، بل انظر إليها على أنها حركةٌ إصلاحيّةٌ أنقذت الإسلام من أنْ يصبح ألعوبةً بيد الطغاة. ألم يقل الحسين عليه السلام: «إني لم أخرجْ أشرًا ولا بطرًا، ولكنْ خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدِّي»[2]؟ فهل تريد أنْ تجعل من سعيه للإصلاح ذنبًا؛ لأنه لم يكنْ لديه جيشٌ جرّار؟!

إنْ كنتَ ترى أنّ الحسين عليه السلام أخطأ؛ لأنه واجه الظلم دون قوةٍ كافية، فأنت بذلك تنتقد جميع حركات الإصلاح في التاريخ، وتبرِّر لكلِّ طاغيةٍ أفعاله؛ لأن النتيجة هي التي تهمّك، وليس

(١) المستدرك على الصحيحين، ج٤، ص٤٤٠.
(٢) الأخبار الطوال، الدينوري، ص٢١٩؛ مقتل الحسين، الخوارزمي، ج١، ص١٨٩؛ المناقب، لابن شهرآشوب، ج٤، ص٨٩.

المبدأ.. لكنّ الإسلام لم يُبنَ على منطق القوة فقط، بل بُني على مقاومة الظلم مهما كان الثمن، والحسين عليه السلام جسّد هذا المبدأ بأعظم صورةٍ، حتى اعترف بذلك المنصفون من أهل السُّنة أنفسهم، فقد أشار ابن الجوزي في "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم" إلى أنَّ الحسين عليه السلام أكرمُ مقتول، فقد قتلوه ظمآن، وجزُّوا رأسه، وحملوه إلى ظالمٍ، لكنْ بقي دمه غضًّا لا يندرس ذكره[1].

فكيف بعد كلِّ هذا تريد أنْ تجعل خروج الحسين عليه السلام خطأً؛ لأنه لم يكن يملك جيشًا كافيًا؟ أ ليس موقفه هو الذي حفظ الإسلام من أنْ يتحوَّل إلى ملكٍ أمويٍّ وراثيٍّ لا يمتّ للدين بصلة؟ أ ليس دمه هو الذي فضح الطغيان، وأيقظ الضمائر؟

فكفاك تبريرًا للظلم، فالتاريخ لا يرحم، والحقّ لا يُقاس بالقوة، بل بالعدل والمبدأ، والإمام الحسين عليه السلام كان مثالًا للعدل، ويزيد كان رمزًا للطغيان، وهذه هي المعادلة التي لا تستطيع أنْ تنكرها.

المخالف: صحيح أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخبر بمقتل الحسين رضي الله عنه، لكنّ هذا لا يعني أنّ الحسين كان ملزَمًا بالذهاب إلى كربلاء، بل كان يمكنه تجنُّب القتل، فلماذا لم يبقَ في المدينة أو يذهب إلى مكة أو أيّ مكانٍ آخر؟

الإماميّ: قولك هذا ليس إلا محاولة للهروب من حقيقة أنّ خروج الحسين عليه السلام لم يكن اختيارًا شخصيًّا، بل كان ضرورة

(١) يُنظر: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج٥، ص٣٢٣.

شرعيّة وإصلاحيّة فرضتها الظروف، وأكَّدتها حتى مصادر أهل السُّنة.

إذا كنت تعتقد أنّ الحسين عليه السلام كان يمكنه البقاء في المدينة، فهل تجهل أنّ والي المدينة آنذاك، الوليد بن عتبة، استدعاه، وطلب منه مبايعة يزيد، وأنّ الإمام الحسين عليه السلام رفض ذلك؟ كما يروي ابن كثير في "البداية والنهاية" أنّ مروان بن الحكم نصح الوليد بقتل الحسين عليه السلام فورًا إنْ لم يبايع، قائلًا: «واللهِ لئن فارقك، ولم يبايع الساعة ليكثرنّ القتل بينكم وبينه، فاحبسْه، ولا تخرجه حتى يبايع، وإلا ضربت عنقه»[1]. فهل بعد هذا تقول: إنّ المدينة كانتْ خيارًا آمنًا له؟ وهل كان على الحسين عليه السلام أنْ يبايع يزيد الفاسق ليحفظ حياته؟ أيُّ منطقٍ هذا الذي تبرِّر به بقاء سبط النبي صلى الله عليه وآله وسلم تحت حكم رجلٍ يعترف مؤرِّخوك بأنه كان شاربًا للخمر، مستهترًا بالدين، كما ذكر الذهبيّ في "سِير أعلام النبلاء" بقوله: «كان ناصبيًّا فظًّا، غليظًا، يتناول المسكر، ويفعل المنكر»[2]؟ فهل كان على الحسين عليه السلام أنْ يبايع رجلًا كهذا حتى لا يُقتل؟

أما إنْ كنت تقول: إنّ مكة كانت خيارًا آمنًا له، فارجع إلى "تاريخ الطبري" حيث يذكر أنّ يزيد أرسل عمرو بن سعيد الأشدق، ومعه جيشٌ لملاحقة الحسين حتى في مكة، وكانوا ينوون قتله هناك ولو عند الكعبة، فاضطرّ الحسين عليه السلام إلى الخروج منها

---

(١) البداية والنهاية، ج٨، ص١٥٧، ت شيري.
(٢) سِير أعلام النبلاء، ج٤، ص٣٧.

حتى لا تُنتهَك حرمة الحرم بسببه[1]. وقد نقل الطبري أيضًا وابن الأثير في الكامل، قول الإمام الحسين عليه السلام وهو في مكة: «واللهِ لأنْ أُقتَل خارجًا منها بشبرٍ أحبّ إليّ من أن أُقتَل فيها، ولأنْ أُقتَل خارجًا منها بشبرين أحبّ إليّ من أنْ أقتَل خارجًا منها بشبر، وايم اللهِ لو كنت في جحر هامّة من هذه الهوامّ لاستخرجوني حتى يقضوا بي حاجتهم! والله ليعتدُنّ عليّ كما اعتدتِ اليهودُ في السبت»[2].

فهل تقول: إنه كان يمكنه البقاء هناك والمخاطرة بجرّ الدماء إلى أقدس بقاع الإسلام؟! أو كان عليه أنْ يتّخذ موقفًا يتجنَّب به سفك الدم الحرام داخل الحرم المكّي؟!

أما قولك: إنه كان يمكنه الذهاب إلى مكان آخر، فهو مجرَّد افتراضٍ لا يستند إلى الواقع؛ لأن الحسين عليه السلام لم يكن مطارَدًا فقط، بل كان في موقفٍ يجب فيه أنْ يواجه الظلم، ولم يكن هدفه مجرَّد النجاة بنفسه، ولو كان يريد الفرار لكان بإمكانه ذلك، لكنه اختار أنْ يكون الصوتَ الذي يفضح يزيد وفساده؛ لأن بقاءه صامتًا كان سيعطي الشرعيّة لحكم يزيد، الذي أراد أنْ يجعل البيعة له إجباريّة.

ثم دعني أسألك: هل ترى أنّ الإمام الحسين عليه السلام كان مخطئًا؛ لأنه لم يسلك طريق السلامة؟ إنْ كنت تقول ذلك فهل تقبل أنْ

(١) يُنظر: تاريخ الطبري، ج٥، ص٣٨٥.
(٢) تاريخ الطبري، ج٣، ص٢٩٥؛ الكامل في التاريخ، ج٣، ص١٤٨.

يُقال الشيء نفسه عن الصحابة الذين قاتلوا في بدر وأُحُد؟ ألم يكن بإمكانهم تجنُّب القتال والبقاء في بيوتهم؟ لماذا إذن خرجوا؟ هل كان خروجهم "خطأً سياسيًّا" لأنهم لم يبحثوا عن النجاة فقط؟!

لا تحاول أنْ تبرِّر موقف يزيد وجريمته بحجّة أنّ الإمام الحسين عليه السلام كان يمكنه الهروب، فالحسين عليه السلام لم يكنْ ممن يهربون من مسؤوليّاتهم، بل كان صاحب موقف، ولو لم يكن خروجه ضروريًّا لما بقيت ثورته رمزًا لكلِّ الأحرار حتى اليوم.. إنما الخطأ كان في يزيد الذي حوّل الحكم إلى طغيان، وأراد أنْ يجعل سبط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبايع بالإجبار، فلما رفض قتله.. فبدل أنْ تسأل: لماذا خرج الحسين عليه السلام؟ اسأل: لماذا قتل يزيد لعنه الله الحسين عليه السلام؟ وستجد حينها أنّ المشكلة ليست في قرار الحسين عليه السلام، بل في ظلم بني أميّة، الذي اعترف به حتى علماؤكم المنصفون.

المخالف: إنّ بعض الصحابة الكبار لم يخرجوا على يزيد، فلو كان الحسين رضي الله عنه على الحقِّ، لخرجوا معه.

الإماميّ: قولك هذا قائمٌ على مغالطة واضحة؛ لأن الحقَّ لا يُعرف بكثرة مَن يؤيِّده أو قلة من يناصره، بل يُعرَف بالدليل والبرهان، وهل هناك برهانٌ أعظم من موقف سبط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي شهدتْ له الأمة بالصدق والطهارة والورع، وهو سيد شباب أهل الجنّة بنصِّ حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبإجماع المسلمين؟

أتجعل ميزان الحقِّ في مواقف رجالٍ لم يكن لهم من الشجاعة ما يكفي ليقفوا أمام طاغيةٍ مستهتر كيزيد، وتترك موقف الحسين عليه السلام الذي هو الامتداد الشرعيّ لرسالة جدِّه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم؟!

إنْ كنت تحتجُّ بعدم خروج بعض الصحابة، فاعلمْ أنهم لم يخرجوا خوفًا أو تردُّدًا أو ميلًا إلى الدنيا؛ لا لأنهم يرَون يزيد إمامًا شرعيًّا.. فعبد الله بن عمر الذي تتمسَّكون بموقفه لم يكن يرى في يزيد خيرًا، لكنه جبُن عن المواجهة، وكان منهجه في الحياة التسليم لكلِّ حاكم جائر، حتى أنه بايع الحجاج بن يوسف السفاح، فأيّ قيمةٍ لموقفه؟ هل يُتّخذ الجبنُ دليلًا على شرعيّة يزيد؟ وهل يُقاس الحقُّ بمواقف من رضُوا بالسكوت؟ ألم يكن في زمن موسى عليه السلام مئات من بني إسرائيل لم يخرجوا معه ضدَّ فرعون؟ فهل كان موسى على خطأ؛ لأنهم لم يخرجوا معه؟ أو إنّ هؤلاء خانوا الحقّ؟!

ثم لنفرض جدلًا أنّ بعض الصحابة لم يخرجوا، فهل تُقارنهم بالحسين بن علي عليهما السلام، الذي هو أحد الثقلين اللذين أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأمة بالتمسُّك بهما؟ هل تساوي بين رجلٍ قال فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «حسينٌ مني، وأنا من حسين، أحبَّ الله من أحبَّ حسينًا»[1]، وبين رجالٍ كان بعضُهم يبحث عن السلامة؟ هل كان على الإمام الحسين عليه السلام أنْ يترك الدفاع عن الإسلام؛ لأن غيره لم يتحرَّك؟! وهل تقبل أنْ يُقال: إنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخطأ؛ لأنه دعا الناس للإسلام

(١) المستدرك على الصحيحين، ج٣، ص١٩٤.

بينما أكثرهم لم يؤمنوا به في البداية؟!

ثم مَن قال لك: إنّ الحسين عليه السلام كان بحاجةٍ لخروج الصحابة معه ليكون على الحقّ؟ ألم يكن جدّه صلى الله عليه وآله وسلم وحده في غارِ حراء عندما بدأ الدعوة؟! ألم يكن وحده في مكة يتحمَّل الأذى قبل أنْ يهاجر؟! فالحقُّ لا يُعرف بعدد الأنصار، بل بمن يحمل رايته، ومن كان في صفّ الإمام الحسين عليه السلام يكفيه أنْ يكون الحسين عليه السلام نفسُه إمامَه، فماذا تفيده مواقف المتخاذلين؟!

فلا تحتجَّ علينا بالمتخاذلين، ولا تجعل الجبناء ميزانًا للحقِّ، فالحسين عليه السلام هو الامتداد الشرعيّ للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهو الحجّة القائمة، ومن تخلَّف عنه فقد أضاع نصيبه من الشرف، وليس العكس.

المخالف: الحسين رضي الله عنه لم يكن يمتلك المعلومات الكافية عن خيانة أهل الكوفة، وإنه وقع في خطإٍ بتقديره لمدى استجابتهم، مما أدّى إلى مقتله، وكان يمكنه تجنُّب ذلك لو لم يعتمد على وعودهم!!

الإماميّ: هذه ليستْ إلا محاولة يائسة لإلقاء اللوم على سيد الشهداء عليه السلام بدلًا من كشف خيانة القوم الذين كتبوا إليه بالآلاف، ثم تراجعوا تحت سياطِ بني أميّة.

أما زعمك أنّ الحسين عليه السلام كان يجهل مصير الكوفة، فهل غاب عنك أنه إمام معصوم منصوص العصمة، وأنّ علمه ليس علمَ

رجلٍ عاديٍّ يقيس الأمور بالموازين الدنيويّة، بل هو امتدادٌ لعلم جدِّه المصطفى ﷺ وأبيه أمير المؤمنين عليه السلام؟ ألم ينقل علماؤكم قبل علمائنا أنّ النبي ﷺ أخبر بمقتل الحسين عليه السلام في كربلاء، بل وبمكان استشهاده وتفاصيل الواقعة؟ فهل يُعقل أنْ يكون النبي ﷺ يعلم والحسين عليه السلام يجهلُ؟! أو إنّ مقام الإمامة الذي أنكرتموه عنادًا يجعلكم تتخبَّطون بين نفي العصمة عن الحسين عليه السلام من جهةٍ، والاحتجاج بأحكامٍ دنيويّة من جهةٍ أخرى؟!

ثم إنْ كنتَ تزعم أنّ الحسين عليه السلام وقع في "خطإِ التقدير"، فهل قرأتَ تاريخ الكوفة يوم أرسل مسلمَ بن عقيل سفيرَه إليها؟ ألم يكن أهلها قد بايعوه بعشرات الآلاف، حتى أنّ الطبري يروي في "تاريخه" أنّ العدد بلغ اثني عشر ألفًا[١]، وفي بعض الروايات خمسين ألفًا؟ فهل يُعقل أنّ الإمام الحسين عليه السلام لم يكن على درايةٍ بواقع الكوفة، وهو وريث النبوّة؟! أو إنك تريد أنْ تتغافل عن خيانة القوم، وتحاول تبرئة بني أميّة الذين بثّوا الرعب، واشتروا الذِّمم، ونشروا الإرهاب بيد عُبيد الله بن زياد؟!

ثم إنّ خروج الحسين عليه السلام لم يكن مشروطًا بانتصارٍ عسكريٍّ كما تحاول أنْ تصوِّر، وكأنّ الإمام كان مجرَّد قائدٍ دنيويٍّ، يقيس الأمور بمنطق القوة والغلَبة.. كلا، بل هو حاملُ لواء الإصلاح، كما قال بنفسه: «إني لم أخرج أشِرًا ولا بطرًا، ولا مفسدًا ولا ظالمًا، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدِّي».. وهل كان

(١) يُنظر: تاريخ الطبري، ج٥، ص٣٤٨.

الإصلاح ليتحقَّق لو أنه بقي في المدينة مستكينًا، أو لو أنه هرب كما هرب غيره من طلاب الدنيا؟! أو إنّ الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ أراد أنْ يفضح الطغاة، ويقيمَ الحجّة، ويسقط شرعيّة يزيد إلى الأبد؟! وها قد تحقَّق ما أراده، فما زال ذكرُه حيًّا، بينما يزيد يُلعَن على المنابر.

فلو كنتَ منصفًا لقلت: إنّ الذين وقعوا في الخطإ هم الذين خذلوا الإمام، وليس الإمام الذي كشف بدمه مدى انحراف الأمة.. الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن يخطئ في تقدير الأمور، بل أنتم من أخطأتم في فهْم معنى الإمامة، وفي إدراك أنّ ثورته لم تكن لأجل ملكٍ زائل، بل لأجل إحياء الدين، وما كان للدين أنْ يُحفَظ لولا دم الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الخلاصة والنتائج

إنّ محاولة تصوير ثورة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ على أنها خروجٌ على "وليّ الأمر" ليست سوى تكرارٍ مشوَّهٍ لدعاية بني أميّة الذين أرادوا شرعَنة ظلمهم وتحويل الإسلام إلى أداةٍ تخدم ملكهم العضوض، فالحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن رجلًا عاديًّا يعارض حاكمًا دنيويًّا، بل كان الإمام المفترض الطاعة بنصوص النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وكان يزيد أُنموذجًا صارخًا للفسق والانحراف، حتى شهد عليه مؤرِّخو أهل السُّنة قبل الشيعة.. فكيف يكون وليًّا شرعيًّا، وهو الذي أباح دماء المسلمين، وانتهك الحرُمات، واستباح المدينة المنوَّرة؟!

إنّ الطاعة التي يأمر بها الإسلام ليست طاعةً عمياء للحكّام،

بل هي طاعةٌ مشروطة بالعدل والالتزام بشرع الله سبحانه، والإمامة ليست مُلكًا دنيويًّا يتوارثه الطغاة، بل هي عهدٌ إلهيٌّ لا يناله الظالمون، وقد جاءت ثورة الحسين عليه السلام لتكون صرخةً في وجه هذا التحريف، حتى لا يتحوَّل الدين إلى ستارٍ يُخفي جرائم الحكّام، فلو كان يزيد إمامًا شرعيًّا، فلماذا بقي الحسين عليه السلام خالدًا رمزًا للحقّ، بينما تحوَّل يزيد إلى لعنةٍ تلاحقه عبر الأجيال؟!

أما مَن يدّعي أنّ الحسين عليه السلام أخطأ في تقدير الأمور أو كان بإمكانه تجنُّب القتل، فهو ينظر إلى المسألة بمنطقٍ دنيويٍّ ماديٍّ لا يفقه طبيعة الرسالات الإلهيّة، فالإمام الحسين عليه السلام لم يكن يبحث عن نصرٍ عسكريٍّ، بل كان يسعى إلى إحياء ضمير الأمة وإسقاط الشرعيّة عن حكم بني أميّة، وقد نجح في ذلك؛ لأن دم الحسين عليه السلام كان أقوى من سيوف الطغاة. فلو كان الحسين عليه السلام قد بايع يزيد، وسكت، لكان الإسلام قد انحرف تمامًا، ولأصبح الظلم جزءًا من الدين نفسه.

إنّ ثورة كربلاء كانت -ولا تزال- الفاصل بين الحقِّ والباطل، بين الإمامة الشرعيّة والملك الجائر، بين الإسلام الأصيل والإسلام المزيَّف الذي أرادت السلطة الأُمويّة تكريسه.

فالحسين عليه السلام لم يكن الخارج عن الدين، بل كان الحامي له والمدافع عن دين جدِّه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، ويزيد لم يكن "وليّ أمرٍ" تجب طاعته، بل كان طاغيةً فاسقًا فاجرًا، انكشف زيفُه أمام التاريخ، ولم يبقَ له إلا اللعنة التي تلاحقُه في الدُّنيا قبل الآخرة.

الفَصلُ العَاشِرُ

تعدد أدوار الأئمة عليهم السلام امتداد لثورة الحسين عليه السلام ونهجها الإلهي

ثورة الحسين عليه السلام وتعدُّد أدوار الأئمّة، حكمة إلهيّة أم تراجع؟

إنّ إشكال المخالف في هذا الطرح ينبع من تصوُّرٍ قاصر لطبيعة الإمامة وأثرها، وكأنّ الأئمة عليهم السلام كانوا مجرَّد زعماء سياسيّين يُطالبون بأنْ يسلكوا ذات الطريق في كلِّ ظرف وزمان، غافلين عن أنّ الأئمة عليهم السلام هم حجَج الله في أرضه، وحركتُهم ليستْ مجرَّد اجتهادٍ بشريّ، بل هي تجلٍّ لإرادة الله في إدارة الصراع بين الحقِّ والباطل. فالقولُ بأنّ عدم خروج الأئمة بالسيف -كما فعل الإمام الحسين عليه السلام- دليلٌ على تراجعهم عن نهجه، هو قياسٌ فاسد يضرب بعرض الحائط سُنَن الله في التغيير، ويتجاهل حقيقة أنّ لكلِّ إمامٍ تكليفه الخاصّ المستمدّ من الحكمة الإلهيّة.

إنّ الإمام الحسين عليه السلام قام بثورته؛ لأنّ الظروف استوجبتِ المواجهة العلنيّة، حيث وصل الانحرافُ إلى مستوًى لم يَعُدْ يَحتمل السكوت، وكان يزيد بن معاوية أُنموذجًا للطاغية الذي لا يُمكن القبول بحكمه تحت أيِّ تبريرٍ. ولكنْ هل كانت الظروف نفسُها قائمةً بعد كربلاء؟ هل كانت الأمةُ مهيَّأة لتكرار ذات المواجهة؟ إنّ الذي يقرأ التاريخ بوعيٍ يدرك أنّ الأمّة بعد كربلاء كانت تعاني من الانكسار والخذلان، ولم تكنْ تمتلك القاعدة التي تستطيع حمل مشروع الثورة من جديد؛ ولذلك انتقل عمل الأئمة عليهم السلام إلى ترسيخ العقيدة، وإعداد الأمة فكريًّا ونفسيًّا لتكون

مؤهَّلة لحمُّل الراية في الوقت المناسب.

وهنا نرى أنّ الإشكال المطروح من المخالف ينبع من تصوُّرٍ جامدٍ لمعنى الثورة، حيث يحصرها في القتال العسكريّ فقط، متجاهلًا أنّ الثورة على الظلم ليستْ مجرَّد مواجهةٍ بالسيف، بل هي مشروعٌ ممتَدٌّ تتعدَّد أساليبُه، فمنها السيف حين يكون هو الوسيلة الفعّالة، ومنها التربيةُ والتأسيس حين يكون ذلك هو الأنجع. ألم يسجن الإمامُ الكاظم عليه السلام لأنه كان مصدر قلقٍ لهارون الرشيد؟ ألم يُقتَل الإمام الرضا عليه السلام بالسُّم؛ لأنّ المأمون لم يتحمَّل تأثيره على رغم إدخاله في بلاطه؟ أليس ذلك دليلًا على أنّ مواجهتهم للطغاة لم تتوقَّف، وإنما اتّخذت أشكالًا تتناسب مع المرحلة؟

فإنْ كنتَ ترى أنّ نهج الحسين عليه السلام هو النموذج الوحيد لمواجهة الطغيان، فراجع سيرة الأنبياء عليهم السلام، هل كان كل نبيٍّ مأمورًا بحمل السيف؟ أو إنّ الله سبحانه أعطى لكل منهم عمله على وفق مقتضيات زمانه؟ فكما أنّ النبي عيسى عليه السلام لم يحمل السيف ضدَّ الرومان، والنبي نوح عليه السلام بقي ألف سنةٍ إلا خمسين عامًا يدعو قومه بالحكمة، بينما موسى عليه السلام واجه فرعون بالقوة، فكذلك الأئمّة عليهم السلام كلٌّ منهم تحرَّك على وفق ما أراده الله له، وكانوا جميعًا في معركةٍ واحدة، وإنِ اختلفت أساليبها.

فالقول بأنّ الأئمة عليهم السلام لم يثوروا كما ثار الحسين عليه السلام هو قولُ مَن لم يعرف حقيقة الإمامة، ولم يدركْ أنّ الثورة ليستْ لحظةً تنتهي، بل مسارٌ مستمرٌّ، وأنّ الإمام المهديَّ عجل الله تعالى فرجه الشريف حين يظهر،

فإنّ حركته ستكون تتويجًا للنهج الذي سار عليه الأئمّة قبله، كلٌّ بحسب تكليفه، حتى تتحقَّق الغاية الكبرى بملء الأرض قسطًا وعدلًا بعدما مُلِئت ظُلمًا وجورًا.

الموارد الرئيسة للنقاش:

١ - اختلاف التكليف على وفق الظروف كما اختلفت تكاليف الأنبياء عليهم السلام.

٢ - قيام الحسين عليه السلام لمواجهة الانحراف الخطير في حكم يزيد.

٣ - تغيُّر الواقع بعد كربلاء استلزم البناء الفكريّ بدل الثورة المسلَّحة.

٤ - الثورة لا تقتصر على السيف، بل تشمل الجهاد العلميّ والتربية العقَديّة.

٥ - الأئمة عليهم السلام واصلوا المواجهة بوسائل أخرى، كالسجن والاغتيال.

٦ - غياب القاعدة الشعبيّة حال دون القيام بثورةٍ أخرى.

٧ - ثورة الحسين عليه السلام مشروعٌ مستمرٌّ بوسائل تناسب كلّ مرحلة.

٨ - اختلاف نهج الأئمة عليهم السلام امتدادٌ لحكمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

٩ - عدم الثورة المسلَّحة ليس تراجُعًا بل هو اختيارٌ للحكمة الأنجع.

١٠ - امتداد النهج حتى ظهور الإمام المهديّ عجل الله تعالى فرجه الشريف لإقامة العدل التام.

انطلاقة الحوار

المخالف: إذا كانتْ ثورة الحسين رضي الله عنه واجبةً، فلماذا لم يَثُرِ الأئمة الآخرون من بعده ضدَّ الحكّام؟

الإماميّ: إنّ سؤالك هذا مبنيٌّ على قياسٍ فاسد، وكأنك تتوهَّم أنّ التكليف واحدٌ في كل الظروف، ولا تفرِّق بين اختلاف الأزمنة والأحوال، وهذا جهلٌ واضح بمقتضيات السُّنن الإلهيّة في حركة الأنبياء والأوصياء عليهم السلام. فإنْ كنت تقرأ القرآن فسترى كيف أنّ الأنبياء اختلفت تكاليفُهم تبعًا للظروف التي أحاطتْ بكل واحدٍ منهم، فمنهم مَن كان مأمورًا بالمواجهة بالسيف كداود وسليمان عليهما السلام، ومنهم مَن كان مأمورًا بالصبر والتبليغ كنوحٍ ولوط عليهما السلام. فهل تقول: إنّ عيسى بن مريم عليه السلام كان مخطئًا؛ لأنه لم يحمل السيف ضدَّ الرومان، بينما موسى عليه السلام كان على حقٍّ؛ لأنه واجه فرعون؟ أو إنك تعترف بأنّ اختلاف الظروف يفرض اختلاف التكليف؟

وهكذا كان حالُ الأئمة عليهم السلام، فالإمام الحسين عليه السلام قام بثورته المباركة؛ لأن الانحراف بلغ ذروته، وبلغتِ الأمّة مرحلةً من الضياع لم يَعدْ يُمكن السكوت عليها، حيث تولّى يزيد بن معاوية، الطاغية الفاسق المستهتر، الذي شهِد عليه مؤرِّخوك قبل علمائنا بأنه كان شاربَ الخمر، قاتلَ النفس المحترمة، مستحلَّ الحرُمات، كما قال الذهبي في سِيَرَ أعلام النبلاء[1]: «كان ناصبيًّا،

---

(١) سِيرَ أعلام النبلاء، ج٤، ص٣٧.

فظًّا، غليظًا، يتناول المسكر، ويفعل المنكر»، فكيف يسكت الإمام الحسين عليه السلام على بيعة مثل هذا الرجل، وهو الإمام المفترض الطاعة، والحجّة القائمة لله على خلقه؟

لكنْ بعد شهادة الحسين عليه السلام، تغيَّرت المعادلة، فكانت الأمّة تعاني من الانكسار والتراجع، ولم تكنْ قادرة على تحمُّل ثورةٍ مماثلة؛ لأن التضحيات الجسام تحتاج إلى قاعدةٍ شعبيّة واعية، تستعدّ لحمل الرسالة؛ ولذلك انتقل عمل الأئمة عليهم السلام إلى بناء الأمة علميًّا وفكريًّا، وترسيخ العقيدة الصحيحة، وإعداد النفوس لنُصرة الحقّ، لا مجرَّد رفع السيف في وجه الطغاة؛ لأن المعركة لم تكن عسكريّة فحسب، بل كانت معركةَ وعيٍ وبناء أمة.

ولعلك تجهل أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال: «لو كان لي شيعةٌ بعدد هذه الجداء لما وسعني القعود»[1]، أفلا تسأل نفسك: أين كانت الأمة بعد كربلاء؟ وأين كانت أيام الحسين عليه السلام؟! وهل يجوز للإمام أنْ يثور دون أنْ تكون لديه قاعدة قادرة على نصرة الحقّ؟!

ثم هل تتوهَّم أنّ الأئمة عليهم السلام سكتوا عن الظلم؟ والجواب: لا، بل كانت مواجهتُهم قائمةً بأشكال مختلفة، فقد سُجِن الإمام الكاظم عليه السلام؛ لأنه كان شوكةً في عين هارون، وسُقي الإمام الرضا عليه السلام السم؛ لأنه كان خطرًا على حكم المأمون حتى وهو في قصره، وأما الإمام الصادق عليه السلام، فقد نشر علوم أهل البيت عليهم السلام

(١) الكافي، ج٢، ص٢٤٣.

حتى صارت مدرسته منارًا للفكر الإسلاميّ، وها هو مذهبه يضيء العقول إلى يومنا هذا، يقضّ مضاجع الطغاة، ويهزّ عروش المستكبرين.

فلا تقسِ الأئمة عليهم السلام بمعاييرك الضيّقة، فإنهم نورٌ واحد، كلٌّ منهم أدّى دوره على وفق ما أراده الله سبحانه، ولو كان الظرف يقتضي الثورة المسلَّحة لكانوا أول الخارجين، ولكنّهم أرادوا أنْ يبقى نهج الحسين عليه السلام مُشعًّا إلى يوم القيامة، لا أنْ يُدفن في مواجهةٍ عسكريّة عابرة. فاعرفْ مقاماتهم، ولا تجعل جهلك بتاريخهم حجّة عليك، فإنّ نهجهم واحدٌ وإن تعدَّدت أساليبه، وكلهم كانوا -وما زالوا- حاملي لواءِ العدل الإلهيّ في وجه الظالمين.

المخالف: إنّ هذا التفريق بين نهج الأئمة هو مجرَّد تبريرٍ لموقفٍ سياسيّ اضطراري، أي إنّ الأئمة الذين لم يثوروا كانوا عاجزين، وليس لأنهم اختاروا ذلك عن وعيٍ استراتيجي!!

الإماميّ: إنّ تصوُّرك بأنّ اختلاف نهج الأئمة عليهم السلام بين الثورة المسلَّحة والصبر الطويل هو مجرَّد تبرير لعجزٍ سياسي، يكشف عن جهلٍ بحقيقة الإمامة وطبيعة التكليف الإلهيّ. فالأئمة عليهم السلام ليسوا زعماء سياسيّين تُحرِّكهم الظروف، ولا ثورتهم ضدّ الظلم مجرَّد ردةِ فعلٍ اضطراريّة، بل هم حجَج الله على خلقه، يتحرَّكون على وفق تخطيطٍ إلهيٍّ حكيم، يعلمون متى يكون السيف وسيلةً لنصرة الحقّ، ومتى تكون التربية والتأسيس الفكريّ هما المقدمة الضرورية للنصر المستقبلي.

أما قولك: إنّ الأئمة الذين لم يثوروا كانوا عاجزين، فهو قياسٌ باطل؛ لأن العاجز هو الذي لا يستطيع التحرُّك حتى لو شاء، أما الحكيم فهو الذي يختار أسلوب المواجهة الذي يحقِّق الهدف بأفضل الطرق. فإنْ كنت ترى أنّ الثورة تعني فقط المواجهة العسكريّة، فإنك لم تفهم مبدأ الصراع بين الحقّ والباطل، فالثورة الحقيقيّة ليست مجرَّد رفعِ السيف، بل هي صناعة وعيٍ يقلب الموازين، ويعيد الأمور إلى نصابها. ولو كان الأئمة عاجزين كما تزعم، فلماذا كانوا أكبر مصدرِ قلقٍ للطغاة حتى وهم في السجون؟ أ فترى العاجز يُسجَن؛ لأنه يشكل تهديدًا؟ أم إنّ التهديد الحقيقيّ كان في مشروعٍ بعيد المدى لا يستطيع الطغاة إيقافه بالسيف وحده؟

أما الإمام الحسين عليه السلام فقد كان يعلم أنّ الظرف يتطلَّب مواجهة علنية؛ لأن الانحراف بلغ أوجَهُ بوجود يزيد الفاسق المستهتر، فكانت ثورته إعلانًا بأنّ الأمة وصلت إلى نقطة اللاعودة، وأنّ المواجهة المباشرة أصبحت ضرورة. ولكنْ بعد عاشوراء تغيَّرت المعادلة، وأصبحت الأولوية لإعادة بناء الأمة المدمَّرة؛ لأن أيَّ مواجهة مسلَّحة أخرى دون قاعدة شعبيّة واعية ستكون مجرَّد انتحارٍ سياسيّ وعسكري.

إنّ الأئمة عليهم السلام لم يكونوا متردِّدين عن مواجهة الظالمين، ولكنهم كانوا يعرفون أنّ الثورة الحقيقية تحتاج إلى أُسُس قوية، ولو كانت الثورة المسلَّحة وحدها كافية لإزالة الظلم لكان الله سبحانه قد أمر جميع أنبيائه بحمل السيف، لكنه تدرَّج معهم،

فجعـل لموسـى عَلَيْهِ السَّلَامُ مواجهـة فرعـون، ولعيسـى عَلَيْهِ السَّلَامُ منهـج الصبـر والتبشـير، ولنبينـا محمـد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ سـنوات مـن الدعـوة قبـل أنْ يحمـل السـيف، فهـل تتهمُهـم بالعجـز أيضًـا؟ أو إنـك لا تـرى إلا ظواهـر الأمـور دون فقـهِ حكمتِهـا؟!

فـإنْ كنـت تـرى أنّ الجهـاد لا يكـون إلا بالسـيف، فاعلـم أنّ الجهـاد أنـواع، وأعظمُهـا الجهـاد العلمـيّ والفكـري الـذي دمَّـر أساسـات الباطـل، وأزال الشـرعيّة عـن كل حاكـمٍ جائـر، حتـى أن سـلطان بنـي العبـاس وبنـي أميّـة كان يرتعـد لمجـرَّد انتشـار فكـر الأئمـة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، بينمـا سـقطت عروشُـهم علـى رغـم مـا كانـوا يملكونـه مـن جيـوشٍ وقـوة.

فـإنْ كنـتَ تطالـب بثـورةٍ فاعلـم أنّ نهـج الأئمـة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هـو الثـورة المسـتمرّة، لكنهـا ليسـت ثـورة الجهَلـة الذيـن يواجهـون دون حسـابٍ، بـل ثـورة الحكمـاء الذيـن يرسـمون الطريـق للأمـة حتـى تسـتعيد حقَّهـا فـي الوقـت المناسـب. فتعلّـمْ قبـل أنْ تتّهـم، وارجـع إلـى كتـب التاريـخ قبـل أنْ تَسـقط فـي وهـم العجـز!

المخالف: إنّ الإمـام الحسـين رضـي اللـه عنـه بصفتـه معصومًـا هـو قـدوةٌ للأمـة، فـكان ينبغـي علـى الأئمـة الآخريـن أنْ يحـذوا حـذوه فـي الثـورة، وإلّا كان فـي ذلـك تراجُـع عـن نهجـه، وكأنهـم رأوا خطـأً فيمـا فعـل.

الإماميّ: أنـت الآن حشـرت نفسَـك فـي قوالـب ضيِّقـة لا تليـق بمـن يدّعـي البحـث عـن الحـقّ. فهـل تظـن أنّ الإمامـة مجـرَّد نهـجٍ واحـد متكـرِّر عبـر الزمـان؟ أو تظـن أنّ الأئمـة معصومـون فـي الفتـوى

والتشريع فقط، وليس في أفعالهم وتقديرهم لمقتضيات الزمان والمكان؟!

إنّ الإمام الحسين عليه السلام لم يَثُر لأجل الثورة، ولم يحملِ السيف لأجل الصِّدام المجرَّد، بل نهض؛ لأنه كان يرى أنّ الموقف يتطلَّب المواجهة العلنيّة وإراقة دمه الطاهر ليوقظ الأمة من سباتها، ولو أنّ الظروف كانت تقتضي غير ذلك، لما تأخَّر عن فعل ما هو أصلح، فهو الحجّة على الخلق، وما يفعله إنما يفعله بأمر الله سبحانه لا برأي البشر.. أما الأئمّة من بعده عليهم السلام فلو كان الظرف يستدعي ذات المواجهة، لما توانَوا عن حمل السيف، ولكنْ أين الأمة بعد كربلاء؟! وأين القاعدة القادرة على نصرة الحقّ؟! ألم تسمع قول الإمام الصادق عليه السلام: «لو كان لي شيعة بعدد هذه الجداء لما وسعني القعود»؟ أفترى الإمام الحسين عليه السلام كان يرى مناصرًا لدينه، فخرج، بينما الصادق عليه السلام وجد الساحة خاليةً فلم يخرج؟ وهل ينهض الإمام لمحرقة لا تؤدّي إلّا إلى استئصال شيعته دون أنْ تحقِّق الهدف الذي خرج لأجله الحسين عليه السلام؟

أنت تقيس نهج الحسين عليه السلام بمعاييرك البشريّة القاصرة، فتظن أنّ الأئمة بعده خالفوه حين لم يحملوا السيف، في حين أنهم كانوا استمرارًا لثورته، ولكنْ بأساليب تتناسب مع المرحلة. وهل غاب عنك أنّ الحسين عليه السلام نفسه لم يبدأ حياته بالسيف؟ ألم يعايشْ حكم معاوية دون أنْ يثور؟! فهل كان في ذلك تراجع عن نهج عليّ عليه السلام؟ أو إنّ لكل إمامٍ عمله على وفق ما يريده الله سبحانه؟

فإنْ كنت تظن أنّ عدم حمل السيف تراجع، فهل تجرؤ أنْ تقول: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين عاهد المشركين في الحديبية كان متراجعًا عن نهج بدر وأحُد؟ أو إنّ الحكمة تقتضي أنْ يكون لكل مرحلة تكليفها؟!

إنك تتوهّم أنّ الثورة الحسينيّة كانت قالبًا جامدًا يجب على كل إمام أنْ يكرِّره، وكأنك لم تفهم أنّ الحسين عليه السلام كان يريد من ثورته أنْ تكون مشروعًا مستمرًّا، لا معركة واحدة تموت بانتهائها؛ ولذلك استمر الأئمة عليهم السلام في النهج نفسه، ولكنْ بأساليب مختلفة، تارة بنشر العلم وتربية القواعد، وتارة بالصبر والتقيّة، وتارة بالمواجهة الصلبة كما فعل الكاظم عليه السلام حين تحدَّى الطاغية في سجنه، والرضا عليه السلام حين أربك المأمون حتى في قصره. فإنْ كنت ترى أنّ الثورة لا تكون إلا بالسيف، فاعلم أنك لم تفهم مدرسة أهل البيت عليهم السلام؛ لأنهم كانوا في ثورة دائمة، ولكنّ الثورة عندهم ليست مجرَّد قتال، بل هي مشروع إلهيّ ممتدّ، وكل إمام كان يمارس عمله بما يحقِّق هذا المشروع بأفضل وجه.

أما زعمك أنّ عدم تكرار النهج الحسيني بالسيف يعني أنهم رأوا خطأً فيما فعل؟ فهذا أوهن من بيت العنكبوت؛ لأن الأئمة عليهم السلام كانوا يرون أنفسهم امتدادًا للحسين عليه السلام، بل كانوا يشيرون إليه على أنه المثل الأعلى، بل هم الذين حفظوا نهجه، وأبقوا صوته مدوِّيًا إلى يومنا هذا، فلو أنهم حملوا السيف بعد كربلاء كما تتوهّم، لما بقي لهم أثر، ولما بقي للحسين عليه السلام ذكرٌ،

ولكنهم أبقوا نهضته خالدة بوعيهم وحكمتهم، حتى صار الحسين عليه السلام اليوم رمزًا للحقّ في وجه كل طاغية.

فكُفّ عن قياس الأئمة عليهم السلام بمقاييسك السطحيّة، فإنهم نور واحد، وعملهم متكامل، وكل منهم أدّى ما عليه على وفق مقتضيات الزمان، لا على وفق أهواء العقول القاصرة.

المخالف: الإمام الحسين رضي الله عنه، لم يثُر بسبب خصوصية ظرفيّة فقط، بل خرج استنادًا إلى مبدأ ثابت، وهو وجوب مواجهة الظلم مهما كان الثمن، فإذا كان هذا المبدأ ثابتًا، فلماذا لم يطبِّقه الأئمة الآخرون بالطريقة نفسها؟ وإنْ لم يكن ثابتًا، فكيف يُقال: إنّ نهجه قدوة دائمة؟

الإماميّ: إنّ تصوُّرك بأنّ نهج الإمام الحسين عليه السلام يجب أنْ يتكرّر بالصورة العسكرية نفسها في كل زمان، وإلّا فإنّ نهجه ليس قدوة دائمة، هو استدلال قاصر مبنيّ على نظرة سطحيةٍ لمفهوم الإمامة ومبدأ مقاومة الظلم. فالإمام الحسين عليه السلام لم يثُر لأن القتال هو الخيار الوحيد، بل لأنه كان الحلّ الذي فرضته طبيعة المرحلة التي عاشها، حين بلغ الانحراف مداه، وأصبحت المواجهة المسلَّحة هي السبيل الوحيد لفضح الطغيان وإحياء الضمير الإسلامي.

ولكنْ هل كل مواجهةٍ للظلم يجب أنْ تكون بالسيف؟ وهل كان كل نبيّ وإمام مأمورًا بالخروج المسلح؟ إنك حين تزعم أنّ الأئمة من بعد الحسين عليه السلام لم يطبِّقوا نهجه، فإنك تتجاهل

حقيقة أنّ المقاومة ليست دائمًا بالسيف، بل قد تكون بالكلمة، بالصبر، بنشر الفكر، ببناء القاعدة الشعبية، وكلها وسائل تضمن استمرار المشروع الإلهيّ بأقل خسارة وأعظم أثر.

لو كان خروج الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الخيار المطلق في كل زمان، فلماذا لم يخرج هو نفسه في حياة معاوية؟ هل كان عاجزًا؟ أو أنّ الموقف حينها لم يكن يتطلّب المواجهة المسلّحة بعد؟ هذه الحقيقة وحدها تهدم استدلالك؛ إذ تثبت أنّ الحكمة هي التي تحكم قرارات الأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، لا مجرَّد تكرار تجربة واحدة بغضّ النظر عن ظروفها.

أما قولك: إنّ الأئمة بعده لم يطبِّقوا مبدأ مقاومة الظلم، فهو مغالطة كبرى؛ لأن تاريخهم حافل بالمواقف التي كانت أقوى من أيّ مواجهة عسكرية. فالإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ حوّل نكبة كربلاء إلى مدرسةِ وعي وبناء، والإمام الباقر والصادق عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أسسا نهضة علميّة حطمت أركان الباطل فكريًّا، والإمام الكاظم عَلَيْهِ السَّلَامُ واجه الطغاة بثبات حتى استشهد في سجونهم، والإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ أربك السلطة العباسية بحضوره حتى اضطروا للتخلُّص منه بالسُّم. فهل هؤلاء كانوا ساكتين عن الظلم، أو إن نهجهم كان أكثر تأثيرًا واستدامة من مواجهة تنتهي في معركة؟

إنك لا تفرِّق بين الهدف والوسيلة، فثورة الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ لم تكن مجرَّد معركة عسكرية، بل كانت صرخةَ حقٍّ في وجه الباطل، وهي الصرخة التي واصلها الأئمة من بعده، كلٌّ على وفق

مقتضيات زمانه. ولو كانت الظروف تقتضي المواجهة المسلحة، لما توانَوا عن ذلك، ولكنَّ الحكمة كانت تقتضي بناء الأمة، لا تعريضها للدمار بمواجهات غير محسوبة.

فلا تجعل من فهمك الضيِّق للثورة مقياسًا للحقيقة، ولا تفرض على الأئمة عليهم السلام نهجًا واحدًا، بينما كانوا هم الأعلم بطرق نصرة الحق. فإنْ كنت ترى أنّ مقاومة الظلم لا تتحقق إلا بالسيف، فمشكلتك ليست مع الأئمة، بل مع سُنن الله في خلقه، التي جعلت لكل مرحلة أسلوبها، ولكل قائد تكليفه الخاص.

المخالف: أنتم تقيسون اختلاف نهج الأئمة رضي الله عنهم على اختلاف الأنبياء، ولكنّ هذا قياس فاسد، فالأنبياء جاؤوا بشرائع مختلفة، أما الأئمة فهم امتداد لشريعة واحدة. فإنْ كان الحسين رضي الله عنه، قد ثار على وفق مبدأ ثابت في مواجهة الظلم، فلماذا لم يلتزم الأئمة من بعده بهذا النهج؟ هل يمكن أنْ تختلف مواقفهم على رغم أنّ شريعتهم واحدة، أو إنكم تبرِّرون واقعهم السياسي بالعجز لا بالحكمة؟

الإماميّ: إنك تتوهّم أنّ اختلاف نهج الأئمة عليهم السلام يعني اختلافًا في المبدأ، وكأنك لم تدرك أنّ الشريعة الواحدة لا تعني وحدة الأسلوب، وأنّ الثبات على المبدأ لا يعني الجمود في الوسيلة. فالإمامة ليست اجتهادًا بشريًّا، ولا هي عملٌ سياسيٌّ خاضعٌ للمصالح والاضطرار، بل هي تجلٍّ لإرادة الله في الأرض، والهداة إلى الحق لا يتحرَّكون اعتباطًا، بل هم مأمورون بأمر الله،

ينهضـون حين يقتضي التكليـف النهضـة، ويصبرون حين يقتضي التكليـف الصبر، وهـم في كل ذلـك في مواجهـة الظلـم والباطـل، لكـنْ بأساليب تتغيَّـر على وفـق الحكمـة والمصلحـة الإلهيّـة.

أما اعتراضك بأنّ الأنبياء جاؤوا بشرائع مختلفة، بينما الأئمة هم امتداد لشريعة واحدة، فلا ريب أنّ هذا القول مغالطة واضحة؛ لأن الشريعة الواحدة لا تعني أنّ التكليف التفصيلي فيها لا يتغيَّر بحسب الظروف.. وهل يخفى على من له أدنى إلمام بسيرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنه واجه أعداء الدين بأساليب متعدِّدة، على وفق ما تقتضيه الحكمة الإلهيّة؟ فمرةً جاهدهم بالسيف في بدر وأُحُد، ومرةً واجههم بالصلح كما في الحديبية، حيث بدا في ظاهره تراجعًا عن المواجهة، لكنه كان انتصارًا استراتيجيًّا للإسلام.. أ فنقول –والعياذ بالله–: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان متردِّدًا في نهجه؛ لأنه لم يحمل السيف في كل موقف؟ أو إننا نوقن بأنه كان يتحرَّك على وفق إرادة الله سبحانه، فيضع كل خطوة في موضعها المناسب، ليكون منهاجًا لمن بعده بأنّ مواجهة الباطل لا تكون بأسلوبٍ واحد، بل بكل وسيلة تحقق الغاية الإلهيّة؟!

وأما احتجاجك بأنّ الحسين عليه السلام ثار على وفق مبدأ ثابت في مواجهة الظلم، فلماذا لم يلتزم الأئمة بعده بالنهج نفسه؟ فهذا لا يصدر إلا عن جهل بحقائق التاريخ وسُنن التشريع، فالإمام الحسين عليه السلام لم يخرج طلبًا للقتال، بل خرج امتثالًا لوظيفته الإلهيّة بعد أنْ استُكمل الظرف الذي استدعى ثورته، فحين راسله أهل الكوفة،

وبايعوه، وحين فُرِضت عليه بيعة يزيد الفاسق، وجد أنّ الموقف يستلزم منه فضح الحكم الأموي بدمه الطاهر، أما الأئمة من بعده، فهل كانت الأمة مهيَّأة لنصرتهم كما ادّعى أهل الكوفة نصرة الحسين عليه السلام؟ وأين القاعدة التي تسند الثورة؟ أم تظن أنّ الإمام يخرج دون أنْ يكون له ناصر؟!

ثم أخبرني، إنْ كنت ترى أنّ على الأئمة عليهم السلام تكرار نهج الإمام الحسين عليه السلام في كل زمان ومكان، فلماذا لم يخرج هو نفسه على معاوية، على رغم أنه كان طاغية لا يقل عن يزيد في ظلمه واستبداده؟ ولماذا لم يحمل السيف طيلة حياته، إلا حين استنفدت كل الوسائل الأخرى، وبلغ الانحراف مداه، وأصبح الصمت إقرارًا ببيعة يزيد الفاسق المتهتك؟ أكان الإمام الحسين عليه السلام - وحاشاه - مخطئًا في عدم خروجه على معاوية؟ أم إنك تعترف بأنّ تكليف الإمام ليس قرارًا شخصيًّا، بل هو استجابة دقيقة للحكمة الإلهيّة التي تتغيّر حسب مقتضيات الواقع؟

وإذا كنت تزعم أنّ الجهاد لا يكون إلا بالسيف، فهل تتّهم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بالتخاذل -والعياذ بالله- لأنه بقي في مكة ثلاثة عشر عامًا لم يحمل فيها السيف، ولم يأمر أصحابه بالقتال، على رغم الأذى والتعذيب والمقاطعة التي تعرّض لها هو وأتْباعه؟ أو إنك تدرك أنّ الجهاد ليس مجرَّد معركة عسكرية، بل هو مشروع إلهيّ يحتاج إلى بصيرة في التوقيت، وحكمة في الأسلوب، حتى يتحقَّق الهدف، وتُحفظ بيضة الإسلام؟ فإنْ كنت منصفًا، فاعلم

أنّ الأئمة عليهم السلام كانوا يجاهدون على وفق ما تقتضيه حكمة الله سبحانه، لا على وفق أهواء الجاهلين!

أما زعمك أننا نبرِّر مواقف الأئمة عليهم السلام بالعجز السياسي، فهو افتراء باطلٌ يفضحه التاريخ قبل أيِّ شيء آخر. فالأئمة لم يكونوا عاجزين، بل كانوا شوكة دائمة في أعين الطغاة، حتى وهُم في سجونهم أو تحت المراقبة المشدَّدة. فهل ترى أنّ الإمام الكاظم عليه السلام الذي أمضى سنوات عمره في ظلمات السجون كان مستسلمًا؟ أو إن الإمام الرضا عليه السلام الذي اضطر المأمون إلى استدعائه قسرًا، ثم لم يجد سبيلًا للخلاص منه إلا بقتله بالسم، كان متخاذلًا؟

العاجز هو من يُترك في حاله، أما هؤلاء الأطهار فقد أرّقوا عروش الظالمين حتى وهُم في قيد الأسر، وقضّوا مضاجع الطغاة دون أنْ يحملوا السيف؛ لأن سلاحهم كان أقوى من الحديد، إنه سلاح الموقف الذي يهز أركان الباطل من أساسه.

فلتعلم أنّ الثورة ليست مجرَّد مواجهة عسكرية تُحسب بانتصار أو هزيمة آنيّة، بل هي مشروع إلهيّ ممتد، يستهدف اقتلاع جذور الظلم لا مجرَّد مواجهة سطحية معه. فكل إمام من أئمة الهدى واجه الظلم بأسلوبٍ يتناسب مع مقتضيات زمانه. وكما واجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم الباطل تارة بالسيف وتارة بالصبر، وكما رفع الحسين عليه السلام سيفه في وجه الطاغوت، واجه الصادق عليه السلام بجهاده العلمي، وواجه الكاظم عليه السلام بصموده في السجون، وواجه الرضا عليه السلام بموقفه السياسي الذي بعثر حسابات العباسيين، وأربكهم حتى قتلوه غيلةً.

فنهجهم واحد، وإنْ تعدَّدت أساليبه؛ لأن الغاية هي نفسها: إعلاء كلمة الحق وإسقاط حجج الباطل، سواء كان ذلك بحدِّ السيف أو بحدِّ الكلمة أو بالصبر الممنهج. فأما أنت، فإنْ كنت عاجزًا عن إدراك هذه الحقيقة، فلا تجعل جهلك بها حجّة على غيرك.

المخالف: تزعمون أنّ الأئمة بعد الحسين رضي الله عنه لم يثوروا لعدم وجود أنصار، لكنْ ألم يخرج الحسين على رغم قلة الناصر؟ فلماذا لم يكن العدد القليل مانعًا له، وأصبح مانعًا لمن بعده؟ أم إنكم تتناقضون، فتجعلون قلة الناصر سببًا للثورة حينًا، وسببًا لعدمها حينًا آخر؟

الإماميّ: إنك تطالبنا بمنهجٍ ثابت لا يراعي الظروف، وكأنك تغفل عن سُنن الله في التغيير ومقتضيات الحكمة الإلهيّة التي تتجلّى في كل زمان بأسلوبها الخاص. تزعم أنّ خروج الإمام الحسين عليه السلام بالسيف كان واجبًا مطلقًا على كل إمامٍ من بعده، وإلا كان ذلك تراجعًا عن نهجه، ولكنْ هل سألت نفسك: هل الواجبات الشرعية والأحكام الإلهيّة تُفرض على الإنسان بمعزل عن الزمان والمكان؟ وهل الثبات على المبادئ يعني الجمود على الوسائل؟

إنك تزعم أنّ الأئمة بعد الإمام الحسين عليه السلام كان عليهم أنْ يكرروا فعل جدهم، ولكنك تغفل عن حقيقة أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم نفسه لم يحمل السيف في كل مقام، بل كان لكل مرحلة أسلوبها، فها

هو في مكة يصبر، ويأمر أصحابه بالكفِّ عن المواجهة، على رغم ما كانوا يعانونه من تعذيب المشركين، بل حتى بعد الهجرة لم يواجه قريشًا عسكريًّا في البداية، بل أبرم معهم صلح الحديبية، حتى اعترض بعض الصحابة عليه ومنهم عمر بن الخطاب كما في صحيح البخاري، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يا ابن الخطاب، إني رسول الله، ولن يضيعني الله أبدًا»[١]. فهل كان صلح الحديبية تخاذُلاً عن نصرة الحقّ؟ أو إنه كان تدبيرًا إلهيًّا لحفظ الإسلام وتقويته؟

ثم تأمل في نهج الإمام الحسين عليه السلام نفسه، ألم يكن حاضرًا في عهد معاوية؟ فلماذا لم يرفع السيف آنذاك؟ أوَليس يزيد امتدادًا لحكم معاوية؟ أم إنّ الظروف التي حالت دون خروجه في زمن معاوية تغيّرت حين تولّى يزيد لعنه الله، فاقتضى الحال إعلان الثورة؟ فإنْ كنتَ ترى أنّ اختلاف الظروف لا يغيِّر التكليف، فهل تقول: إنّ الحسين عليه السلام كان مقصرًا -وحاشاه- حين لم يَثر ضدّ معاوية؟ أو إنك تعترف أنّ لكل إمامٍ تكليفه على وفق الواقع الذي يعيشه؟

أما احتجاجك بأنّ الإمام الحسين عليه السلام خرج على رغم قلة الناصر، فلماذا لم يخرج الأئمة من بعده بحجّة عدم وجود الأنصار، فهو مغالطة واضحة؛ لأن الإمام الحسين عليه السلام لم يكن وحيدًا عند خروجه، بل خرج بناءً على دعوات أهل الكوفة الذين كتبوا إليه آلاف الرسائل، وقدّموا له البيعة، فلما واجه جيش يزيد

(١) صحيح البخاري، ج٣، ص١١٦٢.

لعنه الله انكشف زيف ادِّعاءات القوم، وتخاذلوا عنه، فبقي مع الصفوة الصادقة من أهل بيته وأصحابه الذين ثبتوا حتى آخر لحظة، بينما الأئمة من بعده لم تكن لديهم حتى هذه البيعة الظاهريّة، ولم يكن هناك تحرُّك شعبي يحمل أدنى مقومات الاستعداد لمواجهة النظام القائم، بل كانت الأمة في حالة من الاستضعاف والقمع الشديد، فكيف تطالب بثورةٍ دون وجود أدنى مقوِّمات النجاح؟!

ثم انظر إلى واقع الدولة الأموية والعباسيّة بعد كربلاء، ألم يكن القمع أشد وأوسع؟ ألم ينقل السيوطي أن عبد الملك بن مروان قال: «لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد يومي هذا إلا ضربت عنقه»[(١)]؟ فكيف تظن أنّ الإمام الصادق عليه السلام كان يستطيع أنْ يواجه طغاة بهذه الوحشية، وهم يقتلون كل معارضٍ قبل أنْ يُفكر في الثورة أصلًا؟ وهل غاب عنك أنّ المنصور الدوانيقي قال: «إني قتلت من ذرية فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ألفًا أو يزيدون، وقد تركت سيدهم... جعفر بن محمد»[(٢)]؟ فهل تريد من الإمام الصادق عليه السلام أنْ يقود شيعته نحو مذبحة جماعية دون أيِّ أملٍ في النجاح؟!

ثم تأمل في مواقف الأئمة، هل كانوا في راحةٍ وسكون، أو إنهم واجهوا الظالمين بأساليب مختلفة؟ ألم يسجن الكاظم عليه السلام سنين طويلة حتى مات مسمومًا؟ ألم يكن الإمام الرضا عليه السلام شوكة

(١) تاريخ الخلفاء، للسيوطي، ص١٦٥، تـ الدمرداش.
(٢) عيون المعجزات، ص٨٠.

في حلق المأمون حتى اضطرّ إلى اغتياله؟ فهل تظن أنّ المواجهة لا تكون إلا بحمل السيف، وأنّ من واجه الظلم بالصبر والكلمة والوعي لم يكن ثائرًا؟ إنْ قلت ذلك، فأنت تتّهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم نفسه بالتراجع؛ لأنه في مكة واجه قريشًا بالكلمة، وفي المدينة واجههم بالسيف، فهل كان موقفه الأول خطأً والثاني صوابًا، أو إنّ لكل مرحلةٍ حكمها؟

إنك يا هذا تخلط بين المبدأ والوسيلة، وبين الهدف والطريقة، فلو كانت الثورة بحمل السيف هي السبيل الوحيد لنصرة الحقّ، لكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد قاتل في مكة، ولكان الإمام الحسين عليه السلام قد حمل السيف ضد معاوية، ولكان الأئمة من بعده قد دخلوا في مواجهةٍ مفتوحة دون حسابٍ للعواقب، ولكنّ الحكمة الإلهيّة تقتضي أنْ يتحرك كل إمام على وفق مقتضيات زمانه، فكانت ثورة الحسين عليه السلام بالدم، وثورة الصادق عليه السلام بالعلم، وثورة الكاظم عليه السلام بالصبر، وكلهم كانوا في مواجهة الظلم، ولكنْ بأساليب مختلفة.

فإنْ كنت ترى أنّ الأئمة بعد الإمام الحسين عليه السلام تراجعوا عن نهجه، فأنت لا تفهم حقيقة ثورته، ولا حقيقة الإمامة.. أما نحن فنرى أنّ كل إمام كان استمرارًا للحسين عليه السلام، حتى وإن اختلف أسلوبه؛ لأن الثورة ليست مجرَّد سيف، بل هي مشروعٌ إلهيٌّ ممتد، وكل إمامٍ جسّده بما يناسب مرحلته، حتى وصلت الراية إلى القائم عجل الله تعالى فرجه الشريف، الذي سيملأ الأرض قسطًا وعدلًا بعدما ملئت ظلمًا وجورًا، وعندها ستفهم -ولكنْ بعد فوات الأوان- أن مدرسة

أهل البيت عليهم السلام لم تكن ثورةَ لحظةٍ، بل ثورة أبديّة باقية إلى يوم القيامة.

الخلاصة والنتائج:

إنّ الإشكال المطروح حول عدم تكرار الأئمة عليهم السلام لنهج الإمام الحسين عليه السلام في الثورة المسلحة يكشف عن سوء فهم لطبيعة الإمامة ووظيفتها الإلهية، حيث أنّ تكليف كل إمام يتحدد على وفق مقتضيات الزمان والمصلحة الإلهيّة، وليس على وفق الأهواء البشرية أو التصورات السطحية.. فثورة الإمام الحسين عليه السلام لم تكن مجرَّد مواجهة عسكريّة، بل كانت صرخة في وجه الطغيان حين بلغ الانحراف ذروته، بينما اقتضت الحكمة بعد كربلاء أنْ يكون عمل الأئمة عليهم السلام في بناء الأمة وإعدادها فكريًّا وروحيًّا حتى تكون مؤهَّلة لحمل مشروع العدل الإلهي.

لم يكن الأئمة عليهم السلام عاجزين عن الثورة، بل كانوا يدركون أنّ المواجهة لا تكون فقط بالسيف، بل بالكلمة والصبر والجهاد العلمي، وهو ما جعلهم شوكة دائمة في عيون الطغاة، حتى وهم في السجون أو تحت القمع السياسيّ.. فغيابُ القاعدة الشعبيّة القادرة على نصرة الحقّ لم يكن تبريرًا للتراجع، بل كان سببًا في تبني أساليب أخرى تحفظ المشروع الإلهيّ، وتضمن استمراريته.

إنّ الذين يظنون أنّ الحسين عليه السلام خرج بلا أنصار وأنّ على الأئمة من بعده تكرار ذلك يجهلون أنّ الإمام الحسين عليه السلام لم

يخرج إلا بعدما بايعه أهل الكوفة، بينما لم يحظ الأئمة بعده حتى بهذه البيعة الظاهرية. ولم يكن خروج الحسين عليه السلام مجرَّد عمل فرديّ، بل كان على وفق تكليفٍ إلهي، وصبر الأئمة عليهم السلام بعده كان كذلك بأمر الله سبحانه، امتدادًا لمنهج النبوة الذي اقتضى في بعض مراحله المواجهة المسلحة، وفي أخرى الصلح أو التربية.

وهكذا، فإنّ نهج الإمام الحسين عليه السلام لم يتوقَّف، بل استمرّ بوسائل مختلفة عبر الأئمة عليهم السلام، وصولًا إلى إمام الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف، الذي سيظهر حين تتهيَّأ الأرض لنصرة العدل الإلهيّ، فيكمل مشروع أهل البيت عليهم السلام بإقامة الدولة الإلهيّة الكبرى، حيث يتحقَّق الوعد الذي وعد الله سبحانه به عباده المستضعفين، ليجعلهم أئمة، ويجعلهم الوارثين.

الفصل الحادي عشر

النساء والأطفال في ركب الحسين عليه السلام شراكة في الثورة وإرث في التحدي

لماذا اصطحب الإمامُ الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ عياله؟

لطالما كانت ثورة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ شوكةً في عيون الطغاة، ومشكاةً للهدى في دروب السالكين؛ ولذلك لم تتوقَّف محاولات التشكيك فيها، ولا تزال شُبهات أهل الضلال تتكرَّر على ممرّ العصور، في مسعًى يائس لإطفاء نورها الإلهيّ. ومِن بين هذه الشُّبُهات ما يطرحه المخالفون حول اصطحاب الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ لنسائه وعياله إلى كربلاء، متوهِّمين أنَّ ذلك كان خروجًا غير محسوب العواقب، أو أنه يتنافى مع الحكمة، وكأنهم يجهلون -أو يتجاهلون- أنّ حركة الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ لم تكن مجرَّد معركة سياسيّة، بل كانت مشروعًا إلهيّا متكاملًا، أُريدَ به إحياء الدين وفضح الباطل وكشف زيف الحكم الأُمويّ.

في هذا الحوار، تتجلّى المواجهة بين مَن يزِن الأمور بميزان الدنيا، وبين من ينظر إليها بمنظار الرسالة الإلهيّة. المخالف يتحدَّث عن الحكمة بمنطق أهل الدنيا، وكأنه يجهل أنّ الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن قائدًا دنيويًّا يخطِّط لمكاسب سياسيّة، بل كان إمامًا معصومًا يعلم بما سيجري عليه، ويدرك أنّ دماءه الطاهرة لن تُهدَر، بل ستكون وقودًا لإحياء الأُمّة. فما كان اصطحاب النساء والأطفال تفصيلًا عابرًا في نهضته، بل كان ركنًا أصيلًا في المنهج الإلهيّ الذي أراده الله سبحانه لهذه الثورة، تمامًا كما شاء

أنْ يكـون لعيسـى عليه السلام شـهادة أمـه، وكمـا شـاء أنْ يكـون لرسـول اللـه صلى الله عليه وآله وسلم شـهادة فاطمـة عليها السلام علـى ظلـم القـوم بعـد وفاتـه.

يأتـي هـذا الحـوار ليكشـف زيـف القيـاس الفاسـد الـذي يقـارن الحسـين عليه السلام بالطغـاة الذيـن يتّخـذون مـن أهلهـم دروعًـا تحتمـي خلفهـا الجاهليّـة، فـي حيـن أنّ الحسـين عليه السلام خـرج ليكـون الـدمُ حجـةً، والسـبيُ صاعقـةً تـدوِّي فـي أرجـاء الأُمّـة، وتفضـح بنـي أميّـة إلـى يـوم الديـن. إنّهـا المواجهـة بيـن مَـن يريـد تقزيـم كربـلاء إلـى صـراعٍ علـى السـلطة، وبيـن مَـن يـدرك أنهـا كانـت أعظـم مـن ذلـك، فهـي امتـدادٌ لمنهـج الأنبيـاء الذيـن لـم يكـن جهادهـم محصـورًا بالسـيف، بـل بالكلمـة، وبالموقـف، وبالـدم الـذي يوقـظ القلـوب، وبالنسـاء اللواتـي يكـنّ لسـانًا يـروي للأجيـال حقيقـة الجريمـة التـي أراد أعـداء اللـه طمسـها.

فليقـرأ مَـن كان فـي قلبـه ريـب، وليعلـم أنّ كربـلاء لـم تكـن معركـةً تنتهـي فـي لحظـةٍ، بـل كانـت بدايـةً لمسـيرة تمتـدّ إلـى يـوم القيامـة، تحمـل فيهـا زينـب عليها السلام لـواء الـدم المظلـوم، وتـردِّد كلماتهـا الخالـدة فـي قصـر الطاغيـة يزيـد: «فكِـدْ كيـدك، واسـعَ سـعيك، وناصـبْ جهـدك، فواللـه لا تمحـو ذكرنـا، ولا تميـت وحينـا».

الموارد الرئيسة للنقاش:

١ – خروج الإمام الحسين عليه السلام لم يكن مغامرة سياسيّة، بل مشروعًا إلهيّا لهدف إصلاحيّ واضح.

٢ – اصطحاب النساء والأطفال كان جزءًا من التخطيط الإلهيّ، وليس قرارًا غير حكيمٍ.

٣ – طبيعة المواجهة لم تكن عسكريّة تقليديّة، بل كانت نهضة شاملة تتجاوز القتال المسلّح.

٤ – النساء في كربلاء لم يكنَّ مجرَّد مرافقات، بل شريكات في إتمام الرسالة ونقل تفاصيل المأساة.

٥ – الأنبياء والأولياء اصطحبوا أهلهم في مواقف الابتلاء، على وفق سُنَن إلهيّة واضحة في التاريخ.

٦ – الإمام الحسين عليه السلام كان عالمًا بمصيره المحتوم، وسار على وفق تكليفٍ إلهيّ واضح.

٧ – سبْي العيال أسهم في نشر قضية كربلاء وكشف مظلوميّة أهل البيت عليهم السلام للعالم الإسلاميّ.

٨ – نهضة الإمام الحسين عليه السلام لا تقارَن بالمعارك الدنيويّة التي تدار بمنطق المصالح السياسيّة.

٩ – مشيئة الله سبحانه اقتضت أنْ يكون اصطحاب العيال ركنًا من أركان الثورة لإبقاء أثرها حيًّا عبر الأجيال.

١٠ – نصوص الإمام الحسين عليه السلام وخُطبه توضِّح بجلاءٍ الأهداف الحقيقيّة لخروجه وأبعاد ثورته.

انطلاقة الحوار

المخالف: إذا كان الحسين رضي الله عنه يعلم بالمخاطر التي تنتظره في كربلاء، فلماذا أخذ معه النساء والأطفال؟ أليس من غير الحكمة أن يصطحب أهله إلى ساحة معركةٍ يعلم أنها قد تنتهي بقتله؟ لو كان هدفه القتال فقط، لكان من الأولى أنْ يترك عائلته في مأمن، كما يفعل القادة في الحروب. فكيف نبرِّر هذا التصرُّف؟ ألا يدل ذلك على أنّ خروجه لم يكن محسوب العواقب؟

الإمامي: للأسف أنت تتعامل مع خروج الإمام عليه السلام وكأنه مجرَّد مغامرةٍ عسكريّة أو صراع دنيويّ على الحكم، متجاهلًا أنّ ثورة الحسين عليه السلام كانت مشروعًا إلهيًّا متكاملًا يستهدف إنقاذ الإسلام من التحريف الأُمويّ، وإعادة الأُمّة إلى صراطها المستقيم.

أما عن اصطحاب النساء والأطفال فهو ليس أمرًا عارضًا أو تصرُّفًا غير مدروس، بل هو جزء من التخطيط الإلهيّ الذي رسمه الحسين عليه السلام لحركته الإصلاحية، فالإمام لم يكن مجرَّد قائدٍ عسكريّ خرج طلبًا للنصر الماديّ، بل كان إمامًا معصومًا مكلَّفًا بحمل رسالة الحقّ حتى النهاية، ومن مقتضيات هذه الرسالة أنْ تشارك النساء في الثورة، ليس بصفتهنَّ مجرَّد مرافقات، بل بصفتهنَّ شاهدات على الجريمة التي سيرتكبها بنو أمية، وناقلات لقضية الحسين عليه السلام بعد استشهاده.. فالأُمّة التي سُلب وعيُها،

ودُجّنت عقولها تحتاج إلى صدمة كربلاء بكل تفاصيلها، تحتاج إلى زينب عليها السلام وهي تخطب في مجلس الطاغية يزيد، تحتاج إلى بكاء الأطفال وأنين اليتامى حتى تفيق من سُباتها.

أما القول بأنّ القادة العسكريين لا يصطحبون أهلهم إلى الحرب، فهو قياسٌ فاسد لا ينطبق على حركة الإمام الحسين عليه السلام؛ لأنه عليه السلام لم يخرج ليقود جيشًا نظاميًّا في حرب تقليدية، بل خرج بثورةِ الحقّ التي لا تنحصر في القتال فقط، بل تتجاوز ذلك إلى تجذير المبادئ الإلهيّة في الوجدان الإسلاميّ، ولو كان هدفه القتال فقط، لما انطلق أصلًا بسبعين رجلًا في مواجهة جيشٍ جرّار من عشرات الآلاف.. فهل من الحكمة أنْ نقيس حركة الحسين عليه السلام على معارك الطامعين في الملك؟ أو ينبغي أنْ نقيسها على منهج الأنبياء الذين كانوا يصطحبون أهلهم في مسيرة التبليغ والجهاد، كما فعل الأنبياء نوح ولوط وإبراهيم عليهم السلام؟

ثم إنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم نفسه قد أخرج معه النساء والأطفال في مواطن متعدِّدة، ومنها خروجه في بيعة الرضوان، ومنها اصطحابه الحسنين عليهما السلام في قضية المباهلة، كما ورد في صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص، قال: «لما نزلت هذه الآية: فقل تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم... دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًّا وفاطمة وحسنًا وحسينًا، وقال: اللهم هؤلاء أهلي»[1]. فهل كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتصرّف بغير

(١) صحيح مسلم، ج٧، ص١٢٠، ط التركية.

حكمة - حاشاه - حينما أخرج أهل بيته لمواجهة النصارى؟!

والأمر الأبرز أنّ الإمام الحسين عليه السلام قد بيّن علنًا أنه يعلم بمصيره المحتوم، وأنه يسير بقضاء الله وقدره، كما روى الإمام أحمد في مسنده بسندٍ صحيح أنّ ابن عباس قال: «رأيت النبي صلى الله عليه وسلم، في المنام بنصف النهار أشعث أغبر، معه قارورة فيها دم، فقلت: يا رسول الله، ما هذا؟ قال: هذا دم الحسين وأصحابه، لم أزل أتتبّعه منذ اليوم»[1]. فإذا كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد أخبر بمقتل الحسين عليه السلام قبل وقوعه، وكان يعلم بذلك، فهل تتصوَّر أنّ الحسين عليه السلام لم يكن يعلم؟ أو أنه خرج بوعيٍ كامل ليحقِّق الهدف الذي أراده الله سبحانه له؟!

إنّ اصطحاب الإمام الحسين عليه السلام للنساء لم يكن خطأ في التخطيط، بل كان ركنًا أساسيًّا في إتمام الثورة، وهو الذي أبقى قضية كربلاء حيّةً في وجدان الأُمّة.. وإلا فليخبرنا المخالفون: لو لم تكن زينب عليها السلام في كربلاء، ولو لم تُسَقِ السبايا إلى الشام، فكيف كان خبر مقتل الحسين عليه السلام سيصل إلى الناس؟ إنّ بني أميّة كانوا سيقتلون الحسين عليه السلام وأصحابه، ويدفنون أجسادهم، ويطمسون ذكرهم، كما حاولوا طمس ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولكنّ إرادة الله عزّ وجلّ اقتضت أنْ يكون هناك صوت مدوٍّ يكمل رسالة الدم.. فهل يجهل الإمام الحسين عليه السلام - حاشاه - هذا الأمر؟! أو إنّ الجهل به هو عين الجهل بمنهج أهل البيت عليهم السلام في مواجهة الطغيان؟!

(١) مسند أحمد، ج٢، ص٥٥١، ت أحمد شاكر.

أما من يتوهم أنّ الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ لو ترك النساء في المدينة لكان ذلك أكثر أمانًا، فنقول: وأيّ أمان هذا؟ ألم يقتل بنو أمية مسلم بن عقيل في الكوفة بعد أنْ أعطوه الأمان؟ ألم يقتلوا حجر بن عدي في الشام على رغم أنهم تعهّدوا له بالأمان؟ أيعقل أنْ يترك الإمام عياله في قبضة بني أمية ليكونوا رهائن ضغط عليه؟! ثم ألم يُهجَم على بيت فاطمة الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ وهي في دارها؟ فهل يُتصوَّر أنّ نساء الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ كنّ سيُترَكن بسلام في المدينة لو لم يصطحبهنَ الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ معه؟!

فاسأل نفسك: لو كان الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يصطحب النساء والأطفال، هل كان يمكن أنْ تصل كربلاء إلى ضمير الأُمّة كما وصلت اليوم؟ هل كان يمكن لثورة الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ أنْ تبقى متّقدة في الوجدان الإسلاميّ لأكثر من ألف عام؟ ألا تعلم أنّ من أعظم مآسي كربلاء هي سبي النساء وحرق الخيام؟ فكيف يمكن للدم أنْ ينتصر على السيف إنْ لم يكن هناك لسان يروي تلك المأساة؟!

وإنّ اصطحاب النساء كان جزءًا من البلاغ الإلهيّ، وكما أنّ الله سبحانه شاء أنْ يرى الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ قتيلًا، فقد شاء أنْ يرى عياله سبايا، كما قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إنّ الله قد شاء أنْ يراهنّ سبايا»(١). فمن كان يؤمن بمشيئة الله سبحانه فليس له إلا أنْ يسلِّم بهذه الحكمة الإلهيّة، وأما من ينظر إلى الأمور بعيون مادّية قاصرة، فلن يدرك عظمة قضية كربلاء، ولن يفهم أبعاد هذه الثورة الخالدة.

---

(١) بحار الأنوار، ج٤٤، ص٣٦٤.

المخالف: إنّ مقارنة اصطحاب النبي ﷺ لأهل بيته في المباهلة مع اصطحاب الحسين رضي الله عنه لعياله في كربلاء غير دقيقة؛ لأن النبي ﷺ لم يكن ذاهبًا إلى معركة عسكرية، ولم يكن ذاهبًا إلى الموت المحتوم، بل كان في مقام حوار دينيٍّ مع النصارى، فكيف يُقاس ذلك على اصطحاب الحسين رضي الله عنه لأهله إلى أرض المعركة؟

الإماميّ: تصورك أنّ اصطحاب النساء يتناقض مع الحكمة، يشي بأنك لم تقرأ القرآن الكريم، وإلا لعلمت كيف كان الأنبياء عليهم السلام يصطحبون أهلهم في مواطن البلاء والمواجهة مع الطواغيت.. فلو كان اصطحاب الأهل من النساء والأطفال في ساحات الصراع خطأً أو تهوُّرًا، فلماذا نجد هذا الفعل متكرِّرًا في تاريخ الأنبياء عليهم السلام الذين هم هداة البشرية وسادة الحكمة والعقل؟!

ألم يأخذ نبي الله إبراهيم عليه السلام زوجته هاجر وابنه إسماعيل عليه السلام إلى صحراء قاحلة لا ماء فيها ولا زرع؟ أليس هو الذي تركهما في مكة بأمر الله سبحانه، حيث لا توجد أدنى مقومات الحياة، فكان ذلك امتثالًا لأمر الله عزّ وجلّ وتحقيقًا لحكمته الإلهيّة في تأسيس البيت العتيق ليكون مهوى أفئدة الناس؟!

فهل قال إبراهيم عليه السلام: «إنّ ترك زوجتي وطفلي في أرض قاحلة لا حكمة فيه»؟ أو إنه سلّم لإرادة الله سبحانه، وكان اصطحابهما جزءًا من التخطيط الإلهيّ لنشر التوحيد؟!

ألم يأخذ نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ نساء بني إسرائيل معه حينما خرج بهم من مصر فارًّا من بطش فرعون؟! هل قال: «لا داعي لأخذ النساء والأطفال؛ لأن هذا خطر عليهم»؟ أو إنّ خروجهم كان جزءًا من إرادة الله سبحانه ليشهدوا بأنفسهم هلاك الطاغية، وليكونوا شهودًا على معجزة انفلاق البحر؟!

فلو لم يكن النساء والأطفال في تلك الرحلة، لربما قال البعض لاحقًا: «إن بني إسرائيل لم يخرجوا، وإنّ فرعون لم يُغرَق»، ولكنّ حضورهم كان جزءًا من تثبيت الحقيقة في وجدان الأُمّة.

ألم يأخذ نبي الله نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أهله معه في السفينة عندما حلّ الطوفان؟ أليس القرآن الكريم يخبرنا أنّ الله أمره بذلك بقوله: ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾[1]؟ فهل كان نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مخطئًا حين اصطحب أهله معه، أو أنه كان ينفذ أمر الله سبحانه، على رغم أنّ السفينة كانت في مواجهة طوفان عظيم؟!

وإذا جئنا إلى سيرة النبي الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ألا نجد أنه كان يصطحب أهل بيته في مواقف المواجهة الكبرى؟ ألم يأخذ الحسن والحسين عَلَيْهِمَا السَّلَامُ معه في بيعة الرضوان، وهم لا يزالون صغارًا؟!

ألم يأخذهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في المباهلة مع نصارى نجران ليعلن أمام الأُمّة أنّ هؤلاء هم الامتداد الحقيقي لرسالته؟! فإذا كان اصطحاب النساء والأطفال خطأً كما تدّعون، فلماذا لم يُبقِ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فاطمة

---

(١) هود: ٤٠.

عليها السلام في المدينة، ويرسل الصحابة فقط للمباهلة؟!

والأدهى من ذلك أنك تتحدَّث وكأنّ الإمام الحسين عليه السلام خرج إلى كربلاء، وهو لا يعلم المصير، في حين أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم نفسه قد أخبره بأنه سيُقتل هناك، كما روى ابن حجر في «الإصابة» عن أنس بن الحارث أنه قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: «إنّ جبريل أخبرني أنّ ابني هذا يُقتل بأرضٍ يقال لها كربلاء»»(١).. فإذا كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعلم بذلك، وأخبر الأُمّة، فكيف تتصوَّر أنّ الإمام الحسين عليه السلام لم يكن يعلم؟!

إنك تريد أنْ تحاكم الإمام الحسين عليه السلام بمقاييس القادة العسكريين الذين يبحثون عن النصر السياسي، في حين أنه إمامٌ معصوم تحرك على وفق تكليف إلهيّ، وكانت مهمته ليست إسقاط يزيد فقط، بل فضح بني أمية وكشف زيفهم، وهذا لا يمكن أنْ يتحقَّق إلا بوجود النساء في كربلاء ليشهدْنَ المجزرة، وينقلن صوت المظلومية، ويؤدِّين العمل الذي أدَّته زينب عليها السلام حينما وقفت في مجلس يزيد، وقالت: «فكدْ كيدك، واسعَ سعيك، وناصب جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا، ولا تميت وحينا»(٢). فلو لم تكن زينب عليها السلام هناك، ولو لم يكن معها العيال، فكيف كان يمكن لهذه الثورة أنْ تبقى حيّةً؟!

وفي ضوء ما تقدَّم، يتّضح أنّ اصطحاب الإمام الحسين عليه السلام

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، ج١، ص٢٧١.
(٢) اللهوف في قتلى الطفوف، ص٩٣.

لعياله لم يكن تهوُّرًا –حاشاه– ولا خطأً، بل كان جزءًا من التخطيط الإلهيّ كما كان اصطحاب الأنبياء لأهلهم جزءًا من رسالتهم.

المخالف: القول بأنّ اصطحاب الإمام الحسين رضي الله عنه، لعياله كان جزءًا من «المشيئة الإلهيّة» أو «التخطيط الإلهيّ» هو استدلال قدريّ(١) لا يُثبِت صحة الفعل؛ لأنّ أيَّ شخص يمكنه الادّعاء بأنه تصرف على وفق مشيئة الله دون أنْ يكون ذلك حجّة مقبولة، فكيف نميِّز بين ما هو أمر إلهيّ حتمي وما هو اجتهاد شخصي؟

الإماميّ: ضع في حسبانك أنّ الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ليس رجلًا اجتهد في قراره كما يجتهد غيره من البشر، بل هو إمامٌ معصوم، مفترض الطاعة، يتحرك على وفق إرادة الله سبحانه ومشيئته، كما تحرك جده رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأمر الله عزّ وجلّ، وكما تحرك أبوه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ على وفق ما قضاه الله سبحانه، فكما لم يكن فعل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ اجتهادًا، لم يكن فعل الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا امتدادًا للرسالة السماوية.

إنك تريد أنْ تقيس فعل الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ على أفعال الناس العاديين، وتظن أنّ كل من أراد أنْ يبرِّر سلوكه يستطيع أنْ يحتج بالمشيئة الإلهيّة، ولكنك تتجاهل أنّ الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن شخصًا

---

(١) يُقصد به الاستدلال بقدر الله سبحانه على وقوع الأحداث، سواء كان ذلك في الخير أو الشر. مثلًا، قد يقول شخصٌ: لو لم يُقدَّر لي هذا الفعل لما وقع، وهو استدلال يستند إلى القضاء والقدر.

عاديًّا، بل هو ابن بنت النبي ﷺ، وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «حسينٌ مني، وأنا من حسين، أحب الله من أحبّ حسينًا»(١)، فهل يمكن لمن هو «من رسول الله» أنْ يتحرك من تلقاء نفسه؟ أو إنّ إرادة الحسين عليه السلام هي انعكاس لإرادة الله سبحانه، كما كانت إرادة جده النبي ﷺ انعكاسًا للوحي؟!

إنك تعترض على الاحتجاج بالمشيئة الإلهيّة، وكأنك لم تقرأ أنّ النبي ﷺ نفسه قد أخبر بمقتل الحسين عليه السلام وأبكى أم سلمة وأم أيمن والصحابة جميعًا على مصابه قبل وقوعه، فهل تظن أنّ النبي ﷺ بكى على أمرٍ لم يكن داخلًا في مشيئة الله سبحانه؟ أ لم يروِ الطبراني في معجمه الكبير، بسند صحيح عن أم سلمة أنّ النبي ﷺ قال لها: «دخل عليّ جبريل، فقال: إنّ أمتك ستقتل هذا ابنك بأرض يقال لها كربلاء، ثم ناولني تربة حمراء»(٢)؟!

فإنْ كنت تعتقد أنّ النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى، فاعلم أنّ ما جرى على الحسين عليه السلام كان أمرًا مقضيًّا، شاء الله تعالى أنْ يكون عبرة للأمة، وميزانًا يُعرف به أهل الحقّ من أهل الباطل.

ثم إنك تظن أنّ الإمام الحسين عليه السلام كان يتحرك بقرارٍ شخصي، وكأنك لم تقرأ أنّ القرآن الكريم ينطق بوضوح أنّ الله تبارك وتعالى هو الذي يُجري الأحداث على وفق مشيئته، فهو الذي قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ

(١) مسند أحمد، ج٢٩، ص١٠٣، ط الرسالة.
(٢) المعجم الكبير، للطبراني، ج٣، ص١٠٨، تـ السلفي.

﴿الْأَمْـوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَـرَاتِ وَبَشِّـرِ الصَّابِرِيـنَ﴾(١)، فكيـف تريـد أنْ تفصـل بيـن مـا جـرى فـي كربـلاء وبيـن سـنة اللـه سـبحانه فـي امتحـان عبـاده؟ أ لـم يكـن البـلاء فـي قتـل الحسـين عليه السلام وسـبْي عيالـه هـو ذاتـه الامتحـان الإلهـيّ الـذي أظهـر للعالميـن زيـف بنـي أميـة، وأثبـت أنّ الحسـين عليه السلام لـم يكـن خارجًـا علـى طاعـة السـلطان، بـل كانـت طاعـة اللـه تعالـى تتجسَّـد فـي ثورتـه؟!

ثـم إنـك تتسـاءل كيـف نميِّـز بيـن المشـيئة الإلهيّـة والادّعـاء الباطـل لهـا، وأنـت غافـل عـن أنّ الإمـام الحسـين عليه السلام لـم يكـن يحتـاج إلـى أنْ يدّعـي، فقـد كانـت نصـوص النبـي صلى الله عليه وآله وسلم تسـبقه فـي بيـان مقامـه، ولـو كان الأمـر مجـرَّد ادّعـاء، فلمـاذا تهافـت الصحابـة والتابعـون علـى البـكاء علـى الحسـين عليه السلام؟ ولمـاذا نقـل أصحـاب الصحـاح والسُّـنن حديـث النبـي صلى الله عليه وآله وسلم عـن استشـهاد الحسـين عليه السلام بهـذه التفاصيـل؟ أ لأنهـا حادثـة عاديـةٌ أم لأنهـا جـزءٌ مـن القضـاء الإلهـيّ؟!

أمـا قولـك بـأنّ الإمـام الحسـين عليه السلام لـو لـم يصطحـب النسـاء لـكان يمكـن للقضيـة أنْ تصـل إلـى النـاس بطـرق أخـرى، فهـو جهـل بحقائـق التاريـخ وسُـنن اللـه سـبحانه فـي تبليـغ الرسـالات.. ولـم يكـن اصطحـاب النسـاء مجـرَّد أمـر عابـر، بـل كان جزءًا مـن التخطيـط الإلهـيّ لإكمـال الثـورة وإدامـة أثرهـا؛ إذ لـو لا لسـان زينـب عليها السلام الـذي دوّى فـي قصـور الظالميـن، فزلـزل عروشـهم، وكشـف زيفهـم، لـم يكـن ليبقـى لـدم الحسـين عليه السلام صـدى.. أ تظـن أنّ الطغـاة الذيـن أخفـوا أحاديـث

---

(١) البقرة:١٥٥.

النبي ﷺ وكتموا فضائل أهل البيت عليهم السلام كانوا سيسمحون ببقاء ذكر الحسين عليه السلام بعد مقتله؟ كلا، بل لطمسوا معالم الجريمة كما فعلوا بغيرها، ولكنّ الله سبحانه أراد للحقيقة أنْ تُنطَق وللظلم أنْ يُفضَح، فجعل من زينب عليها السلام سيفًا يكمل ما بدأه الحسين عليه السلام بدمه، فكانت هي الصوت الذي هزم يزيد في عقر داره، كما كان الحسين عليه السلام هو الدم الذي هدم أركان حكمه.. فافهم إنْ كنت تفهم، وإلّا فابكِ على نفسك؛ لأنك لا تزال تغفل عن سرّ الثورة الحسينية، ولا ترى إلا قشور التاريخ، في حين أنّ الحسين عليه السلام لم يمت يوم عاشوراء، بل خلّده الله تعالى في ضمائر الأحرار، وجعل من زينب عليها السلام لسانًا ينطق بالحقّ إلى يوم القيامة.

المخالف: لا يمكن مقارنة اصطحاب الأنبياء عليهم السلام لأهلهم في مواطن معيَّنة باصطحاب الحسين رضي الله عنه لعياله في كربلاء؛ لأن كل موقف له سياقه الخاص. فإبراهيم عليه السلام لم يأخذ هاجر وإسماعيل عليهما السلام إلى معركة، بل تركهما في مكة استجابة لأمر الله، وموسى عليه السلام خرج ببني إسرائيل هربًا من فرعون، وليس إلى ميدان قتال، ونوح عليه السلام حمل أهله في السفينة للنجاة من الطوفان، بينما الحسين رضي الله عنه كان ذاهبًا إلى مواجهة عسكرية يعلم أنها ستنتهي بقتله، فكيف يصطحب معه النساء والأطفال إلى معركةٍ محتومة النتائج؟

الإماميّ: لم يكن خروج الإمام الحسين عليه السلام إلى كربلاء مجرَّد معركة، بل كان صفحةً من صفحات الامتحان الإلهيّ، الذي شاء

الله تعالى أنْ يكون الحسين عليه السلام محورًا فيه، تمامًا كما كان ذبح إسماعيل امتحانًا لإبراهيم عليه السلام، وكما كان طوفان نوح اختبارًا لعقيدة قومه، وكما كان صبر موسى أمام طغيان فرعون ميزانًا لثبات بني إسرائيل، كذلك كانت كربلاء محنةً للأمة، بل كانت الامتحان الأعظم الذي ميّز بين من انحاز إلى الحقّ ومن سقط في وحل الباطل.. لهذا كان الحسين عليه السلام هو الامتداد الحقيقيّ لمسيرة الأنبياء، والاختبار الذي شاء الله به أنْ يفرز أولياؤه من أعدائه.

أما استدلالك بأنّ إبراهيم عليه السلام لم يأخذ هاجر وإسماعيل عليهما السلام إلى معركة، بل تركهما في مكة استجابة لأمر الله سبحانه، فإنّ ذلك يفضح ضعف حجتك؛ لأن الأمر الإلهيّ لا ينحصر في صورة واحدة، فهل الابتلاء بالموت في الحرب أعظم من الابتلاء بالموت جوعًا وعطشًا في صحراء قاحلة؟ أليس ترك هاجر وابنها في وادٍ غير ذي زرع هو ابتلاء عظيمًا، كشف عن مدى تسليمهم لأمر الله عزّ وجلّ؟ فإنْ كنت ترى أنّ اصطحاب النساء في موقع البلاء خطأ، فهل ستقول: إنّ إبراهيم عليه السلام كان مخطئًا حين ترك أهله في صحراء مكة حيث لا طعام ولا ماء؟ أو إنك لا تفهم أنّ سنة الله سبحانه في امتحان أوليائه تتجسد في صور متعدِّدة، وكلها تؤول إلى تحقيق الغاية الإلهيّة؟!

وأما موسى عليه السلام فقد خرج ببني إسرائيل هربًا من بطش فرعون، ومع ذلك أخذ النساء والأطفال معه على رغم أنّ الخروج كان محفوفًا بالمخاطر، بل إنّ الله تعالى شاء أنْ يكون

معهم ليشهدوا معجزة انفلاق البحر بأعينهم؛ لأن الحجة لا تكتمل إلا بشهادة من ينقلها للأجيال القادمة. فكما كان لا بدّ لبني إسرائيل أنْ يشهدوا هلاك فرعون حتى لا يُقال بعد ذلك: إنه لم يغرق، كان لا بد أنْ تكون زينب عليها السلام في كربلاء لتشهد بعينها ما جرى، حتى لا يُقال: إنّ الحسين عليه السلام لم يُقتل مظلومًا، وحتى لا يستطيع بنو أمية طمس الحقيقة كما طمسوا غيرها من حقائق الإسلام.

وأما نوح عليه السلام فقد أمره الله بحمل أهله في السفينة على رغم أنّ الغرق كان عقوبة للكافرين، وكان يمكنه أنْ يترك أهله في مكانٍ آمن، لكنه امتثل لأمر الله سبحانه؛ لأن نجاتهم كانت جزءًا من المشيئة الإلهيّة، وكما كانت سفينة نوح عليه السلام سببًا في نجاة أتْباعه من الغرق، كانت كربلاء سفينة نجاة الإسلام، وكما أنجى الله أهل نوح عليه السلام في السفينة ليشهدوا على الطوفان، فقد شاء الله سبحانه أنْ تُسبى عائلة الحسين عليه السلام ليكون سبيهم فضيحة لبني أميّة وشاهدًا على جريمتهم إلى يوم القيامة.

أما احتجاجك بأنّ الإمام الحسين عليه السلام كان يعلم أنه سيُقتل، فكيف يصطحب عياله إلى معركة محتومة النتائج؟ فهو يعكس جهلك بحقيقة نهضة الحسين عليه السلام؛ لأنك تظن أنه كان يبحث عن نصرٍ عسكري، بينما هو خرج ليحقِّق انتصارًا إلهيًّا، ولو كان يريد النصر بالسيف، لما اصطحب معه العيال، ولكن الله تبارك وتعالى شاء أنْ يكون الدم هو المنتصر، وأنْ يكون صوت زينب عليها السلام هو الذي يزلزل عروش الطغاة.

فهل تظن أنّ كل هذا كان صدفة؟ أو إنه كان إرادة إلهيّة اقتضت أنْ تكون النساء شاهداتٍ على كربلاء، تمامًا كما اقتضت أنْ يكون أهل موسى عليه السلام شاهدين على إغراق فرعون؟!

إنك تحاول أنْ تتعامل مع ثورة الإمام الحسين عليه السلام وكأنها حركة سياسيّة، بينما نحن نقول لك: إنّ الله سبحانه أراد لها أنْ تكون ملحمة خالدة، فلا تزن كربلاء بموازين الدنيا؛ لأن موازين السماء هي التي حكمتها.. فإذا كان مقتل الحسين عليه السلام ظاهريًّا مأساة، إلا أنه في الحقيقة كان إحياءً للدين.

إذا كنت ترى أنّ اصطحاب النساء في كربلاء كان بلا حكمة، فهل تعتقد أنّ الحسين عليه السلام -وهو الذي خرج ليصلح حال الأُمّة- لم يكن يدرك تبعات قراره؟ أو تراك تظن أنّ نهضته كانت مجرَّد مواجهة عسكرية لا تتعدَّى يوم العاشر من المحرم؟ إنّ التفكير بهذه الطريقة يُسقط البعد الرسالي والاستراتيجي لثورة الحسين عليه السلام ويجعلها مجرَّد حركة اعتيادية، بينما الواقع يشهد بأنها كانت ثورة ممتدّة في الزمان والمكان، وكان لعنصر النساء فيها عملٌ لا يقل قيمة عن عمل الرجال.

إنّ بني أمية لم يكونوا يخشون فقط السيف، بل كانوا يرتعبون من الكلمة الصادقة؛ لأن الكلمة هي التي تفضح الطغيان، وتقلب الموازين، وتوقظ ضمير الأُمّة، وهنا كان وجود السيدة زينب عليها السلام ومن معها ضرورة لا يمكن فصلها عن جوهر الثورة.. فبعد أنْ سقطت السيوف على الأجساد في كربلاء، كان لا بد أنْ تُسقط

الكلمات هيبة بني أمية في عروشهم، وهذا ما فعلته زينب عليها السلام عندما واجهت ابن زياد في الكوفة، ويزيد في الشام، وقلبت موازين الرأي العام ضدّ الحكم الأُمويّ.

ثم تأمل جيدًا، كيف كان سيصل إلينا خطاب الحسين عليه السلام يوم عاشوراء؟ من كان سينقل تفاصيل المأساة، ويدوّن ظلامة أهل البيت عليهم السلام؟ من كان سيحوّل السبي من وسيلة إذلال إلى أداة فضح للطغيان؟ فلولا زينب عليها السلام، لكان من السهل على بني أمية أنْ يطمسوا الحقيقة، ويدفنوا ذكر الحسين عليه السلام، كما حاولوا فعل ذلك مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قبل.

فإنْ كنت ترى أنّ اصطحاب النساء لم يكن حكيمًا، فراجع التاريخ، وانظر كيف أنّ أعظم الثورات لم تقتصر على السيف وحده، بل احتاجت إلى من يحمل صوتها بعد سقوط الأبطال في الميدان. والحسين عليه السلام لم يكن بعيدًا عن هذه الحكمة، بل كان هو قائدها، وهو الذي شاء الله أنْ يكون دمه ودم أهل بيته صرخة دائمة في وجه الظلم، فلا يُمكن فصل قرار اصطحاب النساء عن جوهر نهضته المباركة.

وإنْ كنت ترى أنّ كل شيء يُقاس بالعقل السياسي المجرَّد، فنحن نقول لك: إنّ كربلاء لم تكن صراعًا سياسيًّا، بل كانت صراعًا بين الحقّ والباطل، ولو كنت تفهم الدين كما نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلمت أنّ الحسين عليه السلام لم يُقتل ليُهزم، بل قُتل لينتصر، وأنّ العيال لم يُسبوا لإهانتهم، بل كانوا جزءًا من ملحمة

جعلت الإسلام حيًّا إلى يومنا هذا، وإنْ كنت لا ترى ذلك، فمشكلتك ليست مع الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، بل مع سُنن الله تعالى التي جرت على أوليائه منذ بدء الخليقة.

الخلاصة والنتائج

إنّ قضية اصطحاب الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ لعياله إلى كربلاء ليست مسألةً تُفهم بالعقلية الدنيويّة المجرَّدة، ولا يمكن أنْ تُقاس بموازين السياسة وأحكام الحروب التقليدية، بل هي امتداد لمنهج الإمامة الإلهيّة التي تتحرّك على وفق التخطيط الربانيّ. ولم يكن خروج الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ مجرَّد ثورة على سلطان جائر، بل كان امتدادًا للخط الإلهيّ في مواجهة الطغيان، وامتثالًا للأمر الإلهيّ الذي سار عليه الأنبياء والأوصياء مِن قبله، فهو الإمام المعصوم الذي لا يتحرَّك إلا على وفق تكليفٍ إلهيّ واضح. فكما شاء الله أنْ يُبتلى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بذبح ولده إسماعيل، وشاء أنْ يُمتحن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالخروج مع بني إسرائيل، وكما شاء أنْ تكون شهادة النبي الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مكتملة بمظلومية أهل بيته عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، كذلك شاء أنْ يُقتل الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ مظلومًا، وأنْ يُسبى عياله، ليكون ذلك المشهد كاشفًا لحقيقة الصراع بين الحق والباطل.

إنّ الاصطحاب لم يكن عبثًا، بل كان أمرًا مقضيًّا في السماء؛ إذ إن السبي كان هو الامتداد الطبيعي لواقعة الطف، فكما أنّ الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ قدَّم دمه لإحياء الدين، قدمت زينب عَلَيْهَا السَّلَامُ صوتها

لإبقاء القضية حيّةً في وجدان الأُمّة.. ولم تكن زينب عليها السلام مجرَّد امرأة مرافقة، بل كانت حاملة لواء الإعلام الحسيني، وهي التي أجهزت على عرش يزيد ببيانها الربانيّ، فكان سبْيها ومن معها قنبلة فَجّرت زيف بني أمية، وألقت بهم في مزابل التاريخ.. ولو لم تكن زينب عليها السلام هناك، ولو لم تُسْبَ بنات الرسالة، لتمكّن الطاغوت من طمس الجريمة وإخفاء الحقيقة، ولكنّ الله سبحانه أراد أنْ يكون للعترة الطاهرة صوتٌ بعد كربلاء، يُخلّد تلك الفاجعة، ويُبقيها مشتعلةً في نفوس الأحرار.

إنّ من يحاول قراءة كربلاء بعقليّة مادية، ويريد قياسها على الحروب الدنيوية، فإنه غافل عن طبيعة النهضة الحسينية؛ لأنّ ثورة الحسين عليه السلام لم تكن طلبًا للسلطة، ولم تكن صراعًا على الحكم، بل كانت ملحمة إلهيّة أُريد لها أنْ تكون فاصلةً بين الدين المحمديّ الأصيل وبين الانحراف الأُمويّ، وكانت السبايا جزءًا أساسيًّا في هذا المشروع الإلهيّ.. فكما لم يكن للحسين عليه السلام هدفٌ دنيوي، لم يكن لسبي العيال مجرَّد بُعدٍ عاطفي أو جانب مأساوي، بل كان في أساسه جزءًا من الحُجّة على الأُمّة، حتى لا يكون لأحد عذرٌ في عدم معرفة الحق.

لقد شاء الله سبحانه أنْ يقتل الحسين عليه السلام مظلومًا، وشاء أنْ يرى عياله سبايا، وشاء أنْ يكون ذلك لعبرة الأجيال، حتى لا يبقى للناس حجة في اتّباع الطغاة، وحتى يكون في كل زمان صوتٌ يهتف بنداء زينب عليها السلام وهي تخاطب يزيد قائلةً: «فكد كيدك،

واسعَ سعيك، وناصب جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا، ولا تميت وحينا».

وكما أراد الله تعالى للحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ أنْ يكون سيد الشهداء، أراد لزينب عَلَيْهَا السَّلَامُ أنْ تكون سيدة التحدّي، وأنْ تكون كربلاء قضية لا تموت، فاستُشهد الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ بجسده، ولكنّ ثورته بقيت حيّةً بمن حملوا لواءها مِن بعده، وها هي كربلاء اليوم تزلزل عروش الظالمين، ويظلّ السبي الحسيني هو الشاهد الأعظم على أنّ الدم لا يُهزم، وأنّ الطغيان لا يدوم، وأنّ «كل يوم عاشوراء، وكل أرض كربلاء».

الفصل الثاني عشر

نهج الإمام الحسين عليه السلام في مواجهة الطُّغيان

نهج الإمام الحسين عليه السلام في مواجهة الطُّغيان

إنَّ واقعة الطفّ لم تكنْ مجرَّد معركةٍ بين جيشين، بل كانت الحدَّ الفاصل بين الحقّ والباطل، ومفترَق الطرق بين الإسلام المحمديّ الأصيل والإسلام الأُمويّ المزيَّف.

وقد كثرت الشُّبُهات حول نهضة الإمام الحسين عليه السلام في محاولةٍ لتشويه حقيقتها وتحجيم أهدافها، فراح بعضهم يصوِّر خروجه عليه السلام وكأنه كان يسعى لتجنُّب المواجهة العسكريّة بأيِّ ثمن، مستدلّين على ذلك برواياتٍ مشبوهة تدّعي أنه عليه السلام عرض على عمر بن سعد ثلاثة خيارات: العودة إلى المدينة، أو الذهاب إلى ثغرٍ من الثغور، أو لقاء يزيد.

وهذا الادِّعاء وإنْ كان له حضورٌ في بعض المصادر التاريخيّة، إلا أنه متهافتٌ من أساسه؛ لأن الإمام الحسين عليه السلام كان قد حسم موقفه من الحكم الأُمويّ الظالم منذ اللحظة التي رفض فيها بيعة يزيد، وأعلن في وصيّته لأخيه محمد بن الحنفية أنه خرج "لطلب الإصلاح في أمّة جدِّه"، فكيف يُعقل أنْ يعرض على طاغية زمانه حلولًا تُبقيه تحت رحمته؟!

إنَّ هذا الادِّعاء يصطدم بحقائق التاريخ؛ إذ إنَّ القوم أنفسهم لم يكونوا مستعدِّين للقبول بأيِّ مَخرج سوى إذلال الإمام الحسين

عليه السلام أو قتله، كما صرّح بذلك الإمام حين قال: "ألا وإنّ الدَّعيّ ابن الدَّعيّ قد ركَز بين اثنتَين، بين السَّلّة والذِّلّة، وهيهات منا الذلّة".
فهذه الكلمات الخالدة وحدها تهدم أيّ دعوى بأنه عليه السلام كان يسعى لتجنُّب القتال بأيٍّ وسيلة.

إنَّ محاولات تصوير النهضة الحسينيّة على أنها مجرَّد حركةٍ سياسيّة عابرة، أو أنها كانت رهينة استجابة أهل الكوفة، هي قراءة سطحيّة للأحداث، تتجاهل أنّ الإمام الحسين عليه السلام كان يتحرَّك على وفق تكليف إلهيّ، غايته إقامة الحقّ وفضح الباطل، ولم يكن مشروعه قائمًا على الانتصار الميدانيّ والعسكري فحسب، بل على إسقاط الشرعيّة عن حكم بني أُميّة وفضح استبدادهم أمام الأمة.

الموارد الرئيسة للنقاش:

١- الإمام الحسين عليه السلام ورفضه للبيعة وثورته لحفظ الدين من الانحراف.
٢- حقيقة الخيارات الثلاثة ومدى صحتها وتناقضها مع موقف الإمام الحسين عليه السلام.
٣- موقف الإمام الحسين عليه السلام الثابت في مواجهة الظلم، وصرخته الخالدة: "هيهات منا الذلّة".
٤- حقيقة نوايا بني أُميّة، هل كانوا يقبلون بأيّ حلٍّ غير القتل أو الإذلال؟
٥- الفرق بين صلح الحسن عليه السلام وثورة الحسين عليه السلام. اختلاف

في التكليف والظروف.

٦- حكم يزيد وتحوُّله لنظامٍ طاغوتي، ولماذا أصبح الخروج عليه ضرورة شرعيّة؟

٧- الثورة الحسينيّة منهج إلهيّ لإسقاط شرعيّة الطغاة.

٨- سقوط بني أُميّة وبقاء الحسين عليه السلام رمزًا للحق.

انطلاقة الحوار

المخالف: عرض الحسين رضي الله عنه على عمر بن سعد ثلاثة خيارات: العودة إلى المدينة، الذهاب إلى الثغور، أو لقاء يزيد، مما يدلّ على أنه كان يسعى لتجنُّب المواجهة العسكريّة، وليس مصمِّمًا على الثورة!

الإماميّ: دعواك هذه متهافتة؛ لأن الإمام الحسين عليه السلام كان قد اتّخذ قراره بالخروج ضدّ الحكم الأُمويّ الظالم منذ اللحظة التي رفض فيها بيعة يزيد، وأعلن في وصيته لأخيه محمد بن الحنفية أنه خرج "لطلب الإصلاح في أمة جدِّه"، وبيّن أنّ غايته إقامة الحق ودفع الظلم، وهو ما يتنافى مع فكرة أنه كان يسعى لتجنُّب المواجهة بأيِّ ثمن.

أما بشأن الرواية التي تذكُر هذه الخيارات الثلاثة، فلا بدّ أولًا من مناقشة مدى صحتها، وثانيًا من تحليلها في ضوء سياق الأحداث وظروف المعركة.. فالروايات التاريخيّة لم تتَّفق جميعها على تفاصيل هذا العرض، ومن أبرز مَن نقلها "الطبري" الذي

أخذها عن "أبي مخنف"، وهو نفسه يروي أنّ الإمام عليه السلام كان يعلم بأنّ القوم لن يقبلوا بأيِّ مخرج له سوى الاستسلام؛ إذ صرّح الإمام عليه السلام بذلك حين قال: «ألا وإنّ الدَّعيّ ابن الدَّعيّ قد ركَز بين اثنتين، بين السَّلة والذِّلة، وهيهات منا الذِّلة»(١)! ونقل الطبريّ في تاريخه أنّ مصعب بن الزبير قال: «واختار الميتة الكريمة على الحياة الذميمة»(٢)! فكيف يمكن لعاقلٍ أنْ يدَّعي بعد ذلك أنّ الحسين عليه السلام كان يسعى لتجنُّب القتال بأيِّ وسيلة؟!

بل الأدهى أنّ عمر بن سعد نفسه لم يكن ذا سلطة على اتّخاذ القرار في هذا الشأن، وإنما كان مجرَّد تابع لابن زياد، الذي كان موقفه واضحًا: إما بيعة الحسين عليه السلام ليزيد أو قتله. وهذا ما نقله المؤرِّخون عندما رفض ابن زياد جميع محاولات التفاوض، وأصرّ على إذلال الإمام وإجباره على التسليم التام، وهو ما لم يكن ممكنًا بأيِّ حال.

إذن، حتى لو سلّمنا جدلًا بأنّ الإمام طرح بعض البدائل، فإنها كانت تكتيكًا لكشف عناد القوم وتعريتهم أمام التاريخ، وليس تعبيرًا عن رغبةٍ في الفرار من المواجهة.

ثم إننا إذا نظرنا إلى موقف الإمام الحسين عليه السلام منذ بداية حركته، نجد أنه لم يكن في موقع الباحث عن حلولٍ وسط، بل كان صاحب مشروعٍ إصلاحيٍّ ذي بُعد استراتيجي، رفض أنْ يُختزل

---

(١) اللهوف في قتلى الطفّوف، ص٥٩.
(٢) تاريخ الطبري، ج٦، ص٢٧٣.

في مساومة سياسيّة رخيصة.. فقد كان عليه السلام يعلم أنّ بني أُميّة لم يكونوا ليسمحوا له لا بالعودة إلى المدينة ولا بالذهاب إلى ثغرٍ من الثغور، ولا بلقاء يزيد إلا بشرط الخضوع، وهو ما يتناقض تمامًا مع نهجه وشخصيّته وموقفه الثابت، إذ كيف يتصوَّر أنّ رجلًا رفض البيعة ليزيد منذ البداية، وخرج من المدينة لهذا السبب، ثم يقبل بأنْ يُقاد إلى قصر الطاغية ليُرغَم على البيعة أو يُقتل؟!

إنّ مثل هذه الادِّعاءات لا تتمّ إلا عن جهلٍ بتاريخ كربلاء وروح النهضة الحسينيّة، فالإمام الحسين عليه السلام كان يعلم أنّ معسكر يزيد لا يقبل إلا بإبادته أو إذلاله، وهو ما جعله يختار طريق العزة والمواجهة حتى آخر لحظة، وما كان عرضه لبعض الخيارات -إنْ صحَّ- إلّا لفضح حقيقة عدوِّه، وكشف زيف شعاراتهم، وإثبات أنهم لم يكونوا يسعَون لحلٍّ سلميّ، بل كانوا يريدون استئصال صوته وقضيته، فكانت النتيجة أنّ موقفه خلّد الإسلام الحقيقي، وأماط اللثام عن جرائمهم، وترك للعالم درسًا في الكرامة والإباء لا يُمحى.

المخالف: أنت ترفض الروايات التي تنقل أنّ الحسين عرَض هذه الخيارات، لكنّ هذه الروايات مذكورة في مصادر معتبَرة مثل الطبري وابن الأثير وابن كثير، وهي منقولةٌ عن أبي مخنف، الذي تستشهدون به أنتم أيضًا في مواضع أخرى. فإنكارك لهذه الروايات انتقائيّ، فحينما تكون في صالحكم تأخذون بها، وحينما تخالف رؤيتكم ترفضونها.

الإمامي: ليس كل ما يُروى عن مؤرخ معيَّن يؤخذ به على الإطلاق أو يُردّ جملةً وتفصيلًا، بل المسألة خاضعة للتمحيص والبحث على وفق معايير نقد الرواية، وليس على وفق الانتقاء العشوائي. فالروايات التي تتحدَّث عن عرض الإمام الحسين عليه السلام للخيارات الثلاثة ليست متواترة، بل مرويّة في بعض المصادر السُّنيّة عبر سلاسل ضعيفة، وإنّ نفس هذه المصادر تورد ما يناقضها، مما يثبت أنّ هناك تلاعبًا في سرد الأحداث لصالح رواية السلطة.

أما استشهادنا بأبي مخنف في بعض المواضع فهو لأنّ كتاباته تُعدّ من أوائل ما دُوِّن في وقائع كربلاء، ومع ذلك لم ننقل عنه بلا تحقيقٍ، بل إنّ رواياته تُفحَص بدراسة الإسناد والمتن، وهذا ما يفعله كلُّ باحث منصف.. فليس كل ما ينقله أبو مخنف يُقبَل، بل يُدرَس على وفق القرائن التاريخيّة ومدى توافقه مع بقية الروايات والشهادات الأخرى؛ لذلك فإنّ اتهامنا بالانتقائيّة مردود؛ لأننا لا نقبل إلا ما يتماشى مع قواعد التوثيق، وهذا هو المنهج العلميّ، وليس الانتقاء على وفق الأهواء كما يفعل البعض عند الدفاع عن بني أُميّة وتبرير جرائمهم.

ثم إنّ طرح هذه الرواية على فرض صحَّتها لا يعني أنّ الإمام الحسين عليه السلام كان يسعى للهروب من المواجهة، بل كانت هذه الخيارات جزءًا من حجّته على القوم -كما بيّنا سالفًا- وهو يعلم أنهم لن يقبلوها.. فهل يُعقل أنّ جيشًا حاصر الحسين عليه السلام ومنعه

من الماء، وجاء بأوامر مشدَّدة من ابن زياد بقتله أو إذلاله، سيتركه يمضي حرًّا؟! منطق الأحداث والواقع يثبت أنّ هذا العرض لم يكن إلا كشفًا لنوايا الأعداء وإقامة للحجّة عليهم، حتى لا يدّعي أحدٌ بعد ذلك أنهم كانوا يبحثون عن حلٍّ سلميٍّ، بينما كانوا في الواقع مصرّين على سفك دمه الطاهر.

ثم لنفترض جدلًا أنّ الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ عرض هذه الخيارات، فماذا كانت النتيجة؟ هل قَبِل ابنُ سعد؟ وهل سُمح للحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ بالمغادرة؟ هل مُنِح طريقًا آمنًا؟ لا، بل كان الردّ الوحيد هو المواجهة العسكريّة، مما يدل على أنّ القوم لم يكونوا في وارد التفاوض أصلًا، بل كان هدفهم كسر إرادة الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وإجباره على الاستسلام، وهو ما رفضه بشموخٍ حينما صدح قائلًا: "ألا وإن الدَّعيّ ابن الدَّعيّ قد ركَز بين اثنتين، بين السَّلّة والذِّلة، وهيهات منا الذِّلة!" فكيف يُقال بعد ذلك: إنّ الحسين كان يسعى لتجنُّب المواجهة؟ بل على العكس، هو أراد أنْ يُسقط عن أعدائه أيّ ذريعة، حتى يظهر ظلمهم للعالم، وهو ما تحقَّق فعلًا، فخلد ذكره على أنه رمزٌ للحقّ، وسَقط خصومه في وحل الخيانة والعدوان.

إذن، التمسُّك بهذه الرواية ليس إلا محاولة يائسة للتشكيك في وضوح موقف الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، لكنه موقفٌ مكشوف لمن يتدبَّر التاريخ بعين الإنصاف، لا بعين الانحياز لمن أراقوا دماء الطاهرين.

المخالف: على رغم ما ذكرته في ردِّك عليّ يبقى أنّ عرض الحسين لهذه الخيارات الثلاثة يعني أنه لم يكن مصمِّمًا على الثورة، بل كان مستعدًّا لتجنُّب المواجهة بأيّ شكل. فلو كان مصمِّمًا على إسقاط حكم يزيد أو إعلان الثورة المسلحة لما عرض على ابن سعد حلولًا بديلة، بل كان سيعلن الحرب دون أيِّ محاولة للتفاوض.

الإماميّ: ما تكرِّره هنا هو مجرَّد إعادة لما سبق بصور مختلفة، دون الالتفات إلى دقّة الموقف الحسينيّ ودلالاته الحقيقيّة. فالإمام الحسين عليه السلام لم يكن يتحرَّك بأسلوب الثورات العسكرية التقليدية التي تقوم على الانقلابات المباشرة أو المواجهات المسلحة العشوائية، بل كان يهدف إلى تحقيق إصلاحٍ جذريّ في الأمة، وهذا الإصلاح لم يكن ليُختزل في مجرَّد انتصار عسكري، بل في فضح النظام الأُمويّ وكشف ظلمه للملأ، وإثارة الضمير الإسلامي ضد الطغيان. ومن هنا، فإنّ تصور أنّ الإمام الحسين عليه السلام كان يسعى "لإسقاط حكم يزيد" بالمعنى الحربي الضيق هو قراءة قاصرة لمشروعه الرسالي، الذي كان يعتمد على تقويض شرعيّة الحكم الأُمويّ وفضحه، وليس مجرَّد الإطاحة به بالسيف.

أما مسألة الخيارات الثلاثة، فقد أوضحنا أنّ طرحها -على فرض صحة الرواية- لم يكن تعبيرًا عن ضعفٍ أو رغبة في تجنُّب المواجهة بأيِّ شكل، بل كان أسلوبًا لكشف حقيقة الموقف الأُمويّ وتعريته أمام التاريخ. فلو كان الأُمويّون صادقين

في ادِّعاء أنهم يريدون "حقن الدماء" لما رفضوا أيّ خيار من هذه الخيارات، بل لما أرسلوا أصلًا جيشًا جرّارًا لحصار رجل خرج إليهم بأهل بيته وعددٍ قليل من أصحابه. لكنهم في الحقيقة لم يكونوا يريدون سوى إذلال الإمام أو قتله، ولم يكن في نيَّتهم أي حلٍّ سلمي؛ ولهذا رفضوا حتى مجرَّد السماح له بالرجوع أو الذهاب إلى أي مكان آخر.

ثم إنّ الإمام الحسين عليه السلام كان على بيّنة تامّة من نوايا الأُمويّين، عارفًا بمخطَّطاتهم، وقد عبّر عن ذلك بوضوح حين قال: «والله لا يدَعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي»[(١)]. فكيف يُزعَم بعد ذلك أنه كان يسعى لتفادي المواجهة بأيّ ثمن؟!

فإنّ مَن يُقدِمُ على مقارعة الظلم، وهو على يقينٍ بأنّ العدو لا يترك له خيارًا سوى الشهادة، ومن يرفض الخضوع حتى اللحظة الأخيرة، ويقف في ساحة المعركة مع قلةٍ قليلة من الأنصار أمام جيشٍ جرّار، ويعلنها صراحةً: «إني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا برمًا»[(٢)]، لا يمكن أنْ يكون ممن يبحث عن مهربٍ أو مخرج بأيِّ ثمن! بل كان عليه السلام يريد أنْ يُسقط عن الأعداء أيّ ذريعةٍ لتبرير جريمتهم، وأنْ يكشف للأمة جمعاء وحشيّتهم واستبدادهم، لتبقى قضيّته نبراسًا لكل الأحرار، وشعلةً تهزّ عروش الظالمين عبر الأزمان.

---

(١) الطبقات الكبير، لابن سعد، ج٦، ص٤٢١.
(٢) المعجم الكبير، للطبراني، ج٣، ص١١٤.

إنّ هذا الطرح الذي تكرِّره يشي بفهمٍ سطحيٍّ لحقيقة الثورة؛ إذ ليست الثورة مجرَّد مواجهة عسكرية أو معركةٍ في الميدان، بل هي حركةٌ فكريّة واجتماعية تتجاوز حدود اللحظة، وتمتدّ آثارُها عبر الزمن، والإمام الحسين عليه السلام كان واعيًا تمامًا لحجم التأثير الذي ستتركه واقعة الطفّ في وجدان الأمّة ومسار التاريخ، لكنه لم يكن بحاجة إلى أنْ يكون البادئ بالقتال ليكون ثائرًا، فقد كان تمسُّكه بالموقف الإلهيّ الحقّ، ورفضه للخضوع للطغيان، وإصراره على فضح الظلم وإجبار أعدائه على كشف حقيقتهم الاستبداديّة، أعظم صورة للثورة والنهضة، وهو ما تجسَّد في كربلاء بأبهى صوره.

أما الزعم بأنّ إعلان الحرب هو المعيار الوحيد للثورة، فهو تصوّر قاصرٌ لمفهوم النهضة الحسينيّة؛ لأن أعظم الثورات لم تكن مجرَّد معارك بالسيف، بل كانت مواقف عزٍّ وشموخ أسقطت عروش الظالمين، وإن تأخّر سقوطهم عقودًا أو قرونًا.

فالثورة ليست في عدد السيوف ولا في حجم الدماء، بل في ثبات الموقف واستبسال صاحب القضية في الدفاع عن الحقّ حتى آخر رمق، وهذا ما جسّده الإمام الحسين عليه السلام بأروع صورة، حينما أصبح نهجُه منارًا لكل الثائرين على مدى الأزمان.

إذن، تكرار الادّعاء بأنّ الإمام الحسين عليه السلام لم يكن مصمِّمًا على المواجهة، أو أنه كان يبحث عن أيِّ مخرج، هو محاولة مكشوفة للالتفاف على حقيقة نهضته التي لم تكن مجرَّد صِدامٍ

عسكري، بل كانت إعلانًا لانتهاء شرعيّة بني أُميّة، وهو ما تحقَّق بالفعل؛ لأنهم لم يستطيعوا بعد كربلاء أنْ يخفوا سقوطهم الخُلُقي والدينيّ، فانتهوا إلى زوالٍ محتوم، وبقي الحسين عليه السلام خالدًا في ضمير الأمة.

المخالف: شعار "هيهات منا الذِّلة" الذي تكرِّره لا يتناقض مع فكرة أنّ الحسين عرض حلولًا أخرى. فهذه العبارة قد تعني رفض الإذلال التام، لكنها لا تعني أنّ كل خيار آخر غير الحرب كان مرفوضًا عنده. ورفض الذل لا يعني أنّ الحسين لم يكن مستعدًّا لمفاوضات تجنُّب القتال.

الإماميّ: إنّ محاولتك لفصل شعار "هيهات منا الذلة" عن مبدإ موقف الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء هي تحريفٌ لمعنى هذه الكلمات، وسعيٌ لطمس حقيقتها الناصعة، فهذه العبارة لم تكن مجرَّد رفضٍ شكلي للإذلال، بل كانت إعلانًا واضحًا ونهائيًّا بأنّ كل طريق يؤدِّي إلى الخضوع لحكم يزيد كان مرفوضًا.. فالإمام لم يكن بصدد البحث عن "تسوية سياسيّة" أو "تفاوض لتجنُّب القتال"، بل كان بصدد إعلان موقف خُلُقي وتاريخيّ ضد طغيان بني أُميّة، بحيث يمنع أيّ محاولة لالتقاط فتاتٍ من شرعيّة حكمهم الجائر.

أنت تتصور أنّ الحسين عليه السلام كان يسعى لتجنُّب القتال عبر مفاوضات، بينما الحقيقة أنه كان يكشف أمام العالم أنّ القتال لم يكن خيارًا فرضَه هو، بل فرضَه الأعداء الذين أصرّوا على

كسر إرادته أو القضاء عليه.. فهو لم يأتِ إلى كربلاء ليبحث عن طرق فرار، ولم يفتح باب التفاوض لكي يخرج من الأزمة بأقلّ الخسائر، بل كان يعلم أنّ الصدام قادم لا محالة، لكنه أراد أنْ يُظهِر بوضوح أنّ الطرف الآخر هو الذي يدفع الأمور نحو الحرب، على رغم أنه بإمكانهم تركه وشأنه.. وهذا الأسلوب في كشف ظلم الظالمين هو عين الثورة؛ لأن الثورة لا تكون فقط برفع السلاح، بل تكون بفضح الطغاة وكشف وجههم الحقيقيّ أمام الناس والتاريخ.

ثم لننظر إلى طبيعة الخيارات التي زعمتَ أنها دليلٌ على رغبة الحسين عليه السلام في تجنُّب القتال: العودة إلى المدينة، الذهاب إلى ثغرٍ من الثغور، أو لقاء يزيد لعنه الله.. هل كان أيٌّ من هذه الخيارات واقعيًّا؟! هل كان ممكنًا أنْ يسمح له الأُمويّون بالعودة إلى المدينة ليواصل معارضته ليزيد؟! وهل كانوا ليسمحوا له بالذهاب إلى الثغور ليتحوَّل إلى رمزٍ للمقاومة هناك؟! وهل لقاء يزيد كان سيكون خيارًا حقيقيًّا أو مجرَّد استدراج لإذلاله وإجباره على البيعة؟! كل عاقل يدرك أنّ هذه الخيارات لم تكن سوى اختبار خُلُقيٍّ للطرف الآخر، ولم يكن القوم ليقبلوا بأيٍّ منها؛ لأنهم لم يريدوا من الحسين عليه السلام إلا الاستسلام التام أو القتل.

بل إنّ ابن زياد لعنه الله نفسه أظهر خُبث سريرته، وكشف عن نواياه الشيطانيّة عندما رفض أيَّ حلٍّ غير الإذعان المطلق، وأصرّ على أنّ الإمام الحسين عليه السلام إمّا أنْ يبايع ليزيد أو يُقتل! فكيف بعد

هذا كلّه يُقال: إنّ الإمام كان يسعى لتجنُّب المواجهة؟! وأيّ تناقضٍ أقبح من هذه المزاعم الواهية؟!

إنّ من يريد تجنُّب الحرب يرضخ لشروط خصمه، ويقبل بالتسويات، لكنّ الإمام الحسين عليه السلام لم يكن في وارد المساومة على الحقّ، ولم يكن ليضع يده بيد الطغاة؛ ولذلك قال كلمته الخالدة: «ألا وإنّ الدَّعيّ ابن الدَّعيّ قد ركَز بين اثنتين، بين السَّلة والذِّلة، وهيهات منا الذِّلة!»

فبذلك أسقط عليه السلام كل احتمالٍ للتراجع، وأثبت أنّ موقفه لا يخضع لأيِّ مساومةٍ أو تنازل، بل هو موقفٌ إلهيٌّ لا تحكمه معايير السياسة الدنيويّة.. لقد وقف الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء ليكون رمز العزّة وميزان الكرامة، فإما شهادةٌ تحفظ الدين، وتصون المبدأ، وإما ذلةٌ لا تليق بأهل بيت النبوة، والذلة عند الحسين عليه السلام وأصحابه ليست خيارًا يُطرح، بل هيهات منهم الذلة!

فالمسألة هنا ليست مجرَّد مفاوضات سياسيّة، بل هي صراعٌ بين الحق والباطل، بين الحرية والاستبداد، بين الإسلام الحقيقي وإسلام بني أُميّة المزيَّف، والإمام الحسين عليه السلام لم يكن يعقد صفقات مع الطغاة، بل كان يُعرّي حقيقتهم أمام الأمّة.

أما أنت فتحاول أنْ تجعل كلماته قابلة للتأويل بحيث توحي بأنه عليه السلام كان يبحث عن مخارج سلميّة، وهذا تضليلٌ مفضوح؛ لأن الحقيقة الساطعة أنّ كلماته عليه السلام لم تكن إعلانًا عن رفض

نسبيّ للذل، بل كانت إعلانًا أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ اختار المواجهة بكرامة على الاستسلام والانحناء أمام طغيان بني أُميّة.

فدعْ عنك محاولة تليين موقف الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ليبدو كأنه كان يناور أو يفاوض؛ لأن كربلاء لم تكن ساحة مساومة، بل كانت ساحة تضحيات عظيمةٍ، خَطّت أعظم ملحمة عرفها التاريخ، وأثبتت أنّ ثورة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ لم تكن لحظة اضطراريّة، بل كانت موقفًا مدروسًا ورؤية واعية لخلود الحقّ وزوال الباطل.

المخالف: التاريخ مليءٌ بمواقف مشابهة، ولم يكن التفاوض مع الحاكم الجائر أمرًا مستنكرًا حتى عند أهل البيت. الحسن بن علي قبِل بالصلح مع معاوية، وعبد الله بن الزبير تفاوض مع خصومه في مراحل مختلفة. رفضُك لفكرة أنّ الحسين ربما كان يسعى لحلٍّ وسط يتجاهل سوابق تاريخيّة مشابهة.

الإماميّ: محاولتك تشبيه موقف الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ بمواقف أخرى كصلح الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ أو تحرُّكات عبد الله بن الزبير هي قياسٌ مع الفارق، وجهل تامٌّ بالسياقات التاريخيّة والظروف التي أحاطت بكل موقف. فليس كل تفاوض أو صلح يعني أنّ الطرف المتفاوض كان يسعى لحلٍّ وسط، وإلا لكان علينا أنْ نقول: إنّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ نفسه حينما فاوض المشركين في صلح الحديبية كان يسعى لحلٍّ وسط مع قريش على حساب رسالته، وهذا ما لا يقول به عاقل.

الإمام الحسن عليه السلام لم يصالح معاوية؛ لأنه كان مقتنعًا بشرعيّة حكمه أو لأنه كان يبحث عن حلٍّ وسط، بل لأنه كان يتعامل مع طرفٍ مختلف تمامًا عن طرف كربلاء.. الإمام الحسن كان يقود جيشًا تفكَّك من الداخل بسبب خيانات القادة وشراء الذمم، ولم يكن أمامه خيارٌ عسكري عملي يؤدِّي إلى النصر، بينما كان معاوية مستعدًّا لاجتياح الكوفة بجيشٍ موحّد وقوي.

إذن، صلح الإمام الحسن عليه السلام لم يكن تنازلًا عن المبدأ، بل كان تكتيكًا مرحليًّا للحفاظ على الإسلام الحقيقي من أنْ يُباد على يد طاغيةٍ غادر، والدليل أنّ الإمام الحسن عليه السلام كان يعلم أنّ معاوية سينقض العهد، لكنه أراد أنْ يُسقط عنه كل الذرائع، ليكشف للأمة أنه لا يمثل الحق، وهو ما حدث فعلًا حينما مزّق معاوية الاتفاق علنًا، وقال: «ما قاتلتكم على الصوم والصلاة والزكاة وإني لأعلم أنكم تصومون، وتصلون، وتزكون، ولكنْ قاتلتكم لأتأمّر عليكم»(١).

أما الإمام الحسين عليه السلام فقد واجه موقفًا مختلفًا تمامًا؛ إذ لم يكن هناك مجالٌ لأيِّ اتفاق مرحلي؛ لأن يزيد لم يكن شخصًا يمكن أنْ يُترك ليحكم دون مقاومة، فقد كان يمثل انحرافًا صريحًا عن الإسلام، وليس مجرَّد طاغيةٍ سياسي كبني أُميّة السابقين؛ ولذلك فإنّ أيّ مساومة معه كانت تعني الاعتراف بشرعيَّته، وهو ما رفضه الإمام الحسين عليه السلام بنحوٍ قاطع منذ اللحظة التي رفض

(١) تاريخ دمشق، لابن عساكر، ج٥٢، ص٣٨٠.

فيها البيعة في المدينة، ثم أعلنها صراحةً في مكة، ثم كرَّرها في كربلاء.. ولو كان الإمام الحسين عليه السلام يبحث عن حلٍّ وسط، لكان قَبِل به منذ البداية دون أنْ يعرّض نفسه وأهل بيته لهذا المصير.

أما عبد الله بن الزبير، فهو ليس معيارًا يُقاس عليه؛ لأنه كان يسعى لحكمٍ دنيوي، ولم يكن مشروعه بحجم مشروع الإمام الحسين عليه السلام؛ ولذلك كان مستعدًّا للمدّ والجزر مع خصومه السياسيين بما يخدم مصلحته.. بينما الإمام الحسين عليه السلام لم يكن يسعى إلى حكمٍ شخصي، ولم يكن يقاتل ليؤسِّس دولة، بل كان يضحّي ليحفظ الدين من التشويه والانحراف؛ ولذلك لم يكن هناك مجالٌ لحلول وسط مع يزيد لعنه الله.

إذن، محاولتك مقارنة قضية كربلاء مع مواقف أخرى هي مغالطة تاريخية؛ لأنك تتجاهل الفرق الأساس بين من يناور ليحفظ الإسلام ومن ينهض ليكشف زيف الطغاة ولو بثمنِ دمه.. فالإمام الحسين عليه السلام لم يكن يسعى لحلٍّ وسط، بل كان يفضح السلطة الأُمويّة أمام الأمة، ليجعلها في مواجهة خيارٍ لا رجعة فيه "إما الإسلام الحقيقي، وإما حكم الطغاة المنحرفين"، وهذه ليستْ سياسة مساومات، بل هي ثورةٌ مدروسة، حققت أهدافها الخالدة، وكشفت زيف بني أُميّة، وفضحت حقيقتهم أمام التاريخ، فجعلتهم مثالًا للعار الأبديّ.

المخالف: أنت تقول: إنّ صلح الإمام الحسن رضي الله عنه كان بسبب الخيانة وانعدام الخيارات العسكرية، لكنّ هذا لا ينفي أنّ

الحسن واجه طاغيةً مثل معاوية، وكان بإمكانه القتال على رغم تفرُّق أصحابه، فلو كان رفْض الطغاة يعني بالضرورة الثورة المسلحة لكان الحسن قد قاتل حتى النهاية بدلًا من القبول بالصلح، فقبوله بالهدنة مع معاوية دليلٌ على أنّ المواجهة ليستْ دائمًا هي الخيار الوحيد، مما يجعل موقفك متناقضًا عندما تصف الحسين بأنه لم يكن يقبل بأيِّ حلٍّ وسط.

الإماميّ: هذا قياسٌ فاسد بين موقفين لا يجمع بينهما سوى كونهما متعلّقين بالإماميّن الحسن والحسين عليهما السلام، بينما الحقيقة أنّ اختلاف الظروف والمتغيِّرات هو الذي فرض على كل إمامٍ منهما اتّخاذ القرار الذي ينسجم مع مسؤوليّته الإلهيّة.. فالإمام الحسن عليه السلام واجه طاغيةً ماكرًا كمعاوية، لكنه واجه معه خيانة داخليّة جعلت أيّ محاولة للمواجهة العسكرية انتحارًا غير مجدٍ؛ إذ إنّ جيشه كان مكوَّنًا من أفرادٍ اشتُري بعضهم بالمال، وخذَله بعضهم الآخر، وانقسم عليه قادته حتى طُعِن في فخذه من قِبل بعض من يُحسَبون على معسكره، الأمر الذي جعل القتال حينها عملًا عبثيًّا لا يؤدِّي إلى نتيجة سوى استئصال ما بقي من أهل الحق، فكان خياره حينها أنْ يضع هدنة مشروطة تكشف زيف معاوية أمام الأمة، وهو ما حصل حينما أخلَّ معاوية بكل بنود الاتفاق بعد وقت قصير.

أما الإمام الحسين عليه السلام، فقد واجه يزيد لعنه الله، الذي لم يكن مجرَّد امتدادٍ لمعاوية، بل كان نسخةً أكثر انحرافًا وفسقًا، بحيث

أصبح قبوله حاكمًا هو إعلانٌ رسميّ بانحراف الأمة عن مسار الإسلام ليصبح أداةً بيد الطغاة بعيدًا عن خطّ النبوة والإمامة.. فلم تكن المسألة مجرَّد خلافٍ سياسيٍّ كما تحاول جاهدًا تصويرها، بل كانت معركةً فاصلةً بين بقاء الإسلام كما أنزله الله سبحانه على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وبين أنْ يُختزل في سلطةٍ جائرةٍ يُمثلها يزيد الفاجر، الذي لا يمتلك من الدين شيئًا سوى الاسم.

وعلى هذا الأساس كان صلح الإمام الحسن عليه السلام حفظًا للأمة من حربٍ داخليّةٍ خاسرةٍ، لا نتيجة لها سوى استنزاف ما بقي من قوى الحقّ في مواجهة نظامٍ متجذِّرٍ بالخداع والتآمر.. بينما كان رفض الإمام الحسين عليه السلام للبيعة حفاظًا على الدين من الانهيار الكامل، وإعلانًا بأنّ الإسلام لا يُباع، ولا يُشترى، ولا يمكن أنْ يُمثله فاسقٌ ماجنٌ كيزيد.

فالإمام الحسين عليه السلام لم يكن يخوض حربًا عسكريّة تقليدية، بل كان يتحرَّك على وفق معادلة إصلاحيّة ثورية، لا تتعلَّق فقط بإسقاط حكم يزيد مباشرةً، بل بخلخلة شرعيَّته أمام الأمة وإسقاطه معنويًّا قبل أنْ يسقط سياسيًّا، وهو ما تحقَّق واقعًا، إذ إنّ واقعة كربلاء كانت بداية النهاية لحكم بني أُميّة حتى لو بقي حكمهم سنين بعد ذلك، لكنّ سقوطهم بدأ يوم سقطت شرعيّتهم في العاشر من محرم.

وأما محاولة تصوير أنّ الإمام الحسين عليه السلام كان يرفض الحلول المطروحة، وكأنه كان يبحث عن القتال بأيِّ ثمن، فهي محاولة

أخـرى لتشـويه الحقيقـة.. فالإمـام عليه السلام لـم يكـن يرفـض تلـك الحلـول المزعومة مـن باب التعنُّت، بـل لأن أيَّ حـلّ وسط مع يزيـد لـم يكـن موجـودًا أصـلًا؛ إذ لـم يكـن يزيـد لعنه الله مسـتعدًّا لأيِّ حـلٍّ إلا الإذلال الكامل أو القتل، وعبيـد اللـه بـن زيـاد لعنه الله لـم يكـن سـوى أداةِ تنفيـذٍ لهـذه السياسـة! فكيـف يمكـن أنْ يُطلـب مـن الإمـام الحسـين عليه السلام أنْ يقبـل بحـلٍّ وسـط، وهـو يعلـم أنّ عـدوَّه لا يعـرض عليـه إلا الخضـوع المطلـق؟! وهـل يُتوقَّـع مـن إمـامٍ معصـوم أنْ يمـدّ يـده فـي يـد الطغيـان، وهـو الـذي قـال: «مثلـي لا يبايـع مثلـه»[1]؟!

هـذا، وصلـح الإمـام الحسـن عليه السلام لـم يكـن أُنموذجًـا للتسـوية مـع الطغـاة كمـا تتوهَّـم، ويتوهَّـم مَـن هُـم علـى شـاكلتك، بـل كان موقفًـا اضطراريًّا لكشـف زيـف الحكـم الأُمـويّ وفضـح خيانـة معاوية أمـام الأمـة، بينمـا كانـت نهضـة الإمـام الحسـين عليه السلام هـي المرحلـة الفاصلـة التـي أكملـت هـذا الطريـق، وأعلنـت سـقوط بنـي أُميّـة فـي ميـزان الحـقّ.. ومـن هـذا يتبيَّـن أنّ تصويـر موقـف الحسـين عليه السلام علـى أنـه خـروجٌ عـن منطـق التفـاوض لا ينطـوي إلا علـى سـذاجة سياسـيّة وتاريخيـة؛ لأن التفـاوض يكـون ممكنًـا حينمـا يكـون هنـاك مجـالٌ لـه، لا حينمـا يكـون العـدوّ لا يقبـل إلا بـالإذلال أو القتـل!!

إذن، فالمسـألة ليسـت تناقضًـا بيـن موقفـي الإمامَيـن الحسـن والحسـين عليهما السلام، بـل هـي تكامـلٌ بيـن مرحلتيـن مـن مراحـل الصـراع بيـن الحـقّ والباطـل، حيـث جسّـد كلٌّ منهمـا الموقـف الأتـمّ علـى وفـق

(١) بحار الأنوار، ج٤٤، ص٣٢٥؛ أعيان الشيعة، ج١، ص٥٨١؛ اللهوف، ص١٧.

مقتضيات الزمان والتكليف الإلهيّ، فحينما لم يكن ثمّة مجالٌ للقتال كان الصلح موقفًا رساليًّا فرضته الحكمة الإلهيّة لحفظ ما بقي من جبهة الحق، وحينما لم يكن ثمة مجالٌ للصلح، كانت الثورة الحسينيّة الخيار الوحيد لحفظ الدين من الاندثار تحت سلطة الطاغوت.

وهذه ليست ازدواجيّةً في الموقف، بل هي الحكمة الإلهيّة التي فرضت على كل إمامٍ أنْ يتحرك على وفق الظرف الذي يحيط به، فالصلح في زمان الإمام الحسن عليه السلام لم يكن ضعفًا، والثورة في زمان الإمام الحسين عليه السلام لم تكن تهوُّرًا، بل كان كلاهما المصداق الأتمّ للموقف الشرعي الذي يحقِّق المصلحة الحقيقية للإسلام.

فكان الحسن عليه السلام الأُنموذج الأكمل للحكمة في الهدنة، وكان الحسين عليه السلام الأُنموذج الأكمل للحكمة في الثورة، وكلاهما جسّد عمله الرسالي في حفظ بيضة الإسلام، وإغلاق أبواب التحريف، ومنع الأمة من السقوط في مستنقع الخضوع للطغاة والمستبدِّين.

المخالف: أنت تصوِّر يزيد على أنه حالةٌ استثنائية من الطغيان، وكأنّ حكم معاوية كان مقبولًا شرعًا بينما حكم يزيد لم يكن كذلك. الحقيقة أنّ يزيد لم يكن أكثر من امتدادٍ لسياسة أبيه، فكما حكم معاوية بالقوة، حكم يزيد بنفس الأسلوب. فإنْ كان الحسين يرى الحكم الأُمويّ باطلًا، فلماذا لم يثُر ضد معاوية بالأسلوب نفسه؟ ورفْضه بيعة يزيد لا يجعله مختلفًا عن سائر المعارضين

السياسيين في ذلك الوقت.

الإمامي: قولك: إنّ يزيد لم يكن أكثر من امتداد لسياسة أبيه مغالطة كبرى؛ لأن الفرق بين معاوية ويزيد لم يكن مجرَّد اختلاف في الأشخاص، بل كان تحوُّلًا جذريًّا في طبيعة الحكم الأُمويّ ذاته. معاوية على رغم فساده وظلمه، كان على الأقلِّ يحاول أنْ يحافظ على مظهر الشرعيّة، ويتظاهر بالالتزام بالشعائر الإسلاميّة، ويخدع العامة بوعود الحفاظ على وحدة الأمة، فكان يمارس الطغيان بغطاءٍ سياسي محكم.. أما يزيد، فقد نسف هذا الغطاء تمامًا، وظهر على حقيقته دون مواربة، مستهترٌ بالدين ومستبدّ وفاجر ومجاهر بالفسق وقاتلٌ لأهل البيت وحارق للكعبة، فلم يكن مجرَّد طاغيةٍ سياسي، بل كان انقلابًا كاملًا على ما بقي من معالم الإسلام ومبادئه.

أما زعمك بأنّ الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ لو كان يرى الحكم الأُمويّ باطلًا لكان قد ثار على معاوية بالأسلوب نفسه، فهو دعوى باطلة كما بيّنّا ذلك سالفًا.

أما الفرق الأساس بين معاوية ويزيد فهو أنّ الأول كان يخدع الناس، بينما الثاني كان يحتقرهم علنًا؛ ولذلك كان ردّ الفعل تجاههما مختلفًا، فالإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ كان عالمًا بجرائم معاوية، لكنه عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يعلم أنّ الأمة لم تكن مستعدّة بعدُ لنهضة كبرى، بينما في عهد يزيد، حيث وصل الفساد إلى حدٍّ لم يعد ممكنًا السكوت عليه، وكان كل من له وعيٌ يدرك أنَّ الإسلام نفسه على

وشك أن يُمحى إذا استمر حكم بني أُميّة على هذا النهج.

إذن، الفرق بين معاوية ويزيد لم يكن مجرَّد فرقٍ في الأسلوب، بل كان فرقًا في طبيعة الحكم ذاته، حيث لم يكن يزيد مجرَّد حاكم فاسد مثل أبيه، بل كان بداية مرحلة جديدة من الاستبداد السافر، مرحلة لم يكن فيها مجال للمداراة أو الصمت؛ ولهذا كان خروج الإمام الحسين عليه السلام ضرورة تاريخية، وليس مجرَّد خيار سياسي ضمن الصراع على السلطة.. فهو عليه السلام لم يثُر ضد معاوية؛ لأنه لم يكن هناك ظرف مناسب لثورة تحقِّق أهدافها، لكنه ثار ضد يزيد؛ لأن الأمور وصلت إلى نقطة اللاعودة، ولم يكن هناك مجال للسكوت أو المهادنة.

المخالف: فكرة أنّ الحسين خرج ليكشف زيف بني أُميّة هي قراءة متأخِّرة من علمائكم، وليست تفسيرًا حقيقيًّا لموقفه في ذلك الزمن. الحسين خرج بناءً على دعوة أهل الكوفة، ولو كانوا قد ناصروه، لكان قد أقام دولة في مواجهتهم بدلًا من السعي لكشف زيفهم فقط. تفسيرك للأحداث وكأنها خطة محسوبة لإظهار مظلوميّته هو تأويلٌ حديث، بينما الحسين كان يتحرَّك بناءً على حسابات سياسيّة آنية.

الإماميّ: هذه مغالطة واضحة؛ لأن النصوص التاريخيّة وكلمات الإمام الحسين عليه السلام نفسه تثبِت بما لا يقبل الشك أنه كان مُدركًا منذ اللحظة الأولى أنّ معركته ليست مجرَّد صراع سياسي، بل هي مواجهة فاصلة بين الإسلام الحقيقي والإسلام الأُمويّ المزيف.

ولتعلم علم اليقين أنّ الإمام الحسين عليه السلام لم يكن ينخدع بوعود أهل الكوفة، ولم يكن خروجه مبنيًّا فقط على رسائلهم، بل كان يعلم طبيعة الوضع السياسيّ المحيط به، والدليل على ذلك أنه عندما وصله خبر انقلاب الكوفيين لم يتراجع، ولم يغيّر مساره، بل استمر في حركته؛ لأنه لم يكن ينظر إلى الثورة على أنها مجرَّدُ وسيلة للوصول إلى الحكم، بل كان يعلم أنّ المسألة أكبر من ذلك، ففي كلماته وخطاباته عليه السلام، كان واضحًا في أنه لم يخرج من أجل الصراع على السلطة، بل خرج ليعيد للأمة وعيها، ويفضح طبيعة النظام الأُمويّ أمام الجميع، سواء نُصِر أو خُذل، وقد عبّر عن ذلك -كما ذكرنا ذلك مرارًا- بقوله «إني لم أخرج أشرًا ولا بطرًا، ولا مفسدًا ولا ظالمًا، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدي»، وهذه الكلمات وحدها تهدم تصورك الساذج بأنّ تحركه كان مجرَّد ردِّ فعلٍ سياسي لدعوة الكوفيين.

أما قولك: إنّه لو انتصر أهل الكوفة لكان الإمام الحسين عليه السلام قد أقام دولة، وأنّ هدفه لم يكن كشْف زيف بني أُميّة، فهو خلطٌ واضح بين الوسائل والغايات.. فإنّ إقامة الدولة لم تكن غايةً بحد ذاتها، بل كانت وسيلةً لإعادة الأمة إلى جادّة الصواب، وإرجاع الحكم إلى أهله الشرعيين الذين فرضهم الله سبحانه أئمةً على عباده، وعلى هذا الأساس فإنّ استشهاده عليه السلام لم يكن فشلًا للثورة، بل كان امتدادًا لها بمرحلةٍ أخرى، وهي مرحلةُ إيقاظ الأمة من غفلتها، حيث أدرك المسلمون حجم الانحراف

الذي وقعوا فيه، وبدأت الثورات تتوالى ضد الحكم الأُمويّ حتى زلزلت عروشهم، وأسقطت سلطانهم الجائر.

فنهضة الحسين عليه السلام لم تكن مشروطةً بانتصارٍ عسكريٍّ زائل؛ لأن مشروعه لم يكن مشروعَ سلطةٍ دنيويّة، بل كان موقفًا إلهيًّا لاستنقاذ الدين من براثن الطغيان.. لقد كان دمه الطاهر الشرارة التي أعادتْ للإسلام معناه الحقيقي، وأثبتت أنّ طريق الحق لا يُقاس بالغلبة الظاهرية، بل بثبات الموقف أمام الباطل، وأنّ دماء الشهداء هي التي تحفظ الدين، وتصونه من التحريف والتزييف.

إذن، تصويرك لخروج الإمام الحسين عليه السلام على أنه مجرَّد استجابةٍ لدعوة أهل الكوفة، وأنه لم يكن يتحرَّك ضمن تخطيطٍ إلهيّ لكشف زيف بني أُميّة، هو محاولةٌ فاشلةٌ لتحجيم النهضة الحسينيّة، وحصرها في إطارٍ سياسيٍّ ضيّق، بعيدًا عن حقيقتها الرسالية الكبرى.

فالحقائق الثابتة في خطبه عليه السلام قبل النهضة وحين مسيره إلى كربلاء، وكذلك مواقفه في يوم عاشوراء، تكشف بوضوح أنه كان مدركًا أنّ معركته ليست نزاعًا على سلطةٍ دنيويّة، بل هي مواجهةٌ مصيريةٌ بين خط الإمامة الإلهيّة وخط الانحراف الأُمويّ، حيث أراد أنْ يفضح للأمة أنّ الحكم الأُمويّ لا يمتّ للإسلام بصلةٍ، وأنّ السكوت عنه خيانةٌ للعقيدة والرسالة.

ولهذا، فإنّ استشهاده عليه السلام لم يكن هزيمةً، بل كان اكتمالًا

للمشروع الإلهيّ في إسقاط شرعيّة الطغيان، وجعل الأمة تدرك أنّ الحكم لا يكون إلا لمن اصطفاهم الله أئمةً للخلق. ولم يكن سقوط بني أُميّة مجرَّد حدثٍ تاريخي، بل كان نتيجةً طبيعيةً لما أحدثته ثورة الحسين عليه السلام من زلزالٍ عقَديٍّ هدم أُسس حكم الجور، وفضح الباطل أمام الأمّة، ليبقى الحسين عليه السلام خالدًا في ضمير الإسلام، ورمزًا للحقّ والكرامة إلى يوم القيامة..

المخالف: تصويرك لأيّ محاولة تفاوضٍ على أنها ضعف، يناقض أفعال النبي صلى الله عليه وآله وسلم نفسه عندما فاوض قريشًا في الحديبية، وتراجع عن دخول مكة على رغم أنه كان قادرًا على القتال. فلو كان الحسين أراد حقن الدماء، لكان بإمكانه البحث عن حلٍّ وسط مؤقت كما فعل النبي نفسه. ورفضك لفكرة أنّ الحسين ربما كان يسعى لحلٍّ تفاوضي يتجاهل أنّ السياسة لا تعتمد على المواجهة المباشرة فقط.

الإماميّ: محاولتك تشبيه موقف الإمام الحسين عليه السلام بصلح الحديبية ليست إلا قياسًا باطلًا، ناشئًا عن الجهل بحقيقة الإمامة الإلهيّة والتغافل عن الفوارق الجذريّة بين الموقفين، فالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم حين فاوض قريشًا في الحديبية، كان ذلك جزءًا من التدبير الإلهيّ لإتمام رسالته، حيث لم يكن الصلح تنازلًا عن الحقّ، بل خطوة مرحليّة في سياق التخطيط الإلهيّ لإعلاء كلمة التوحيد، وكانت هناك فسحةٌ لمواصلة المشروع الرساليّ بوسائل أخرى، حتى تحقّق النصر بفتح مكة.

أما في كربلاء، فالوضع كان مختلفًا تمامًا؛ إذ لم يكن هناك مجالٌ لحلٍّ مرحلي، ولم يكن الإمام الحسين عليه السلام أمام خيارٍ يتيح له متابعة عمله الرسالي بأساليب أخرى كما كان الحال في الحديبية، فلم يكن أمام الإمام الحسين عليه السلام سوى المواجهة؛ لأن أيّ مهادنةٍ مع الحكم الأُمويّ تعني الإقرار بشرعيّته، وهو ما يتنافى مع عمله الإلهيّ على أنه إمام مفترض الطاعة، وحجة الله على خلقه المكلف بإقامة الحجة على الظالمين، ولو تطلّب ذلك بذل دمه الطاهر في سبيل الله تعالى.

أنت تفترض أنّ السياسة لا تعتمد على المواجهة المباشرة فقط، وهذا صحيحٌ من حيث المبدأ، لكنّ السياسة أيضًا لا تُبنى على استسلامٍ مشروط بالإذلال، فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم حين فاوض قريشًا لم يكن في موقفٍ يُفرض عليه فيه الاستسلام أو البيعة للطغاة، ولم يكن الاتفاق يقتضي الاعتراف بشرعيّة قريش في التحكُّم بمصير الإسلام، بل كان مجرَّد تأجيل للصدام في ظروف غير مواتية مع الاحتفاظ بالمشروعيّة الكاملة لمواصلة المسير، أما الحسين عليه السلام فلم يكن أمامه خيار مشابه؛ لأن التفاوض في كربلاء لم يكن يعني سوى الخضوع والاستسلام، فابن زياد لم يكن يعرض على الإمام عليه السلام حلًّا سياسيًّا، بل كان يفرض عليه خيارًا وحيدًا وهو "إما البيعة ليزيد، أو القتل"، فأين التشابه بين هذا الخيار وبين صلح الحديبية؟!

ثم إنك تتجاهل حقيقة يزيد وطبيعة حكمه الجائر، وتحاول

إجـراء قيـاسٍ باطـلٍ بيـن موقـف النبـي صلى الله عليه وآله وسلم فـي صلـح الحديبيـة، وموقف الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء، مع أنّ الفارق بين الحالتين واضحٌ لكل من له أدنى معرفةٍ بحقائق التاريخ والعقيدة.

فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحديبية كان يتعامل مع مشركين أعلنوا معاداتهم للإسلام صراحةً، ولم يدّعوا أنهم يمثلون الدين، بينما يزيد بن معاوية لعنه الله كان يتسلّط على رقاب المسلمين باسم الإسلام، ويدّعي أنه خليفة رسول الله، وهو في الواقع رمز الفسق والفجور والانحراف؛ ولذلك، فإنّ قبول الإمام الحسين عليه السلام بمهادنته كان يعني إضفاء شرعيّة دينيّةٍ على حكمٍ لا يمتّ للإسلام بصلة، وهو ما لا يمكن للإمام المعصوم أنْ يقرّه بأيّ حال من الأحوال.

وفوق ذلك، فإنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن مطالبًا بأنْ يبايع قريشًا أو يخضع لهم، بينما الإمام الحسين عليه السلام كان يواجه مطلبًا صريحًا بالإذلال والخضوع المطلق ليزيد، بحيث يكون اعترافه بحكمه شاهدًا على شرعيّة سلطة الطاغوت، وهو أمرٌ لا يقرّه دينٌ ولا عقلٌ ولا مبدأ. فكيف يمكن لعاقلٍ أنْ يقارن بين موقفين تفصل بينهما هاويةٌ من الاختلاف في السياق والتكليف والموقف الشرعي؟!

إذن، لم يكن الإمام الحسين عليه السلام يرفض مبدأ التفاوض، لكنه كان يرفض الخضوع المقنّع تحت غطاء التفاوض؛ لأن الطغاة لا يعرضون الصلح إلا حين يريدون شرعنة ظلمهم، وإضفاء المشروعيّة على سلطانهم الجائر.

وكربلاء لم تكن ساحة مساوماتٍ سياسيّة، بل كانت مفصلًا تاريخيًّا حدّد مصير الإسلام، إما بأن يُدفن تحت أقدام الطغاة، أو أنْ يُبعث من جديد بدم الحسين عليه السلام الطاهر، ليحفظ الدين من التحريف والانحراف، وهذا ما تحقَّق حين قدّم سيد الشهداء نفسه وأهل بيته وأصحابه قربانًا في سبيل الله، فبقي الحسين عليه السلام خالدًا في ضمير الأمة، عنوانًا للعزة والإباء، بينما سقط يزيد في مستنقع اللعنة الأبديّة، وسقط ملكه كما سقطت كل الأنظمة التي حاولت أنْ تطفئ نور الحق.

الخلاصة والنتائج

إنّ ثورة الإمام الحسين عليه السلام لم تكن موقفًا سياسيًّا عابرًا أو مغامرة خاضها بدافعٍ شخصيّ، بل كانت تجسيدًا لامتداد الإمامة الإلهيّة التي لا تخضع لموازين السياسة الظاهرية، بل تتحرَّك على وفق المشيئة الربانيّة لحفظ الدين من الانحراف والتحريف. ولم يكن خروجه عليه السلام محاولةً للبحث عن مخرجٍ آمنٍ كما يدّعي المبطلون، بل كان خروجًا قائمًا على وعيٍ كاملٍ بأنّ المواجهة حتميّة، وبأنّ بني أُميّة لن يرضوا منه إلا بالخضوع المطلق، وهو ما رفضه رفضًا قاطعًا حينما أطلق صرخته الخالدة: "هيهات منا الذِّلة".

لقد كانت نهضته عليه السلام في كربلاء استمرارًا للخطّ الرسالي الذي اختاره الله لأوصياء نبيه، فلم يكن الحسين عليه السلام خارجًا على

طاعة حاكمٍ شرعيّ، بل كان هو الإمام الحقّ الذي أراد الطواغيت إسقاط هيبته وإذلاله ليُعطوا حكمهم الفاسد صبغة شرعيّة، ولكنّ الله أراد أنْ يفضحهم بدمه الطاهر، فأسقط عنهم كل الأقنعة، وعرّى زيفهم أمام الأمة. فما كان منه عليه السلام إلا أنْ قدّم دمه ودماء أهل بيته وأصحابه قرابين في سبيل حفظ الشريعة، فكانت شهادته لعنةً أبديّةً على بني أُميّة، وصار قبره منارًا لكل الثائرين ضد الظلم عبر العصور.

وما حصل بعد عاشوراء من تداعياتٍ سياسيّةٍ واجتماعيةٍ، بدءًا من الثورات المتتالية ضد الحكم الأُمويّ، ومرورًا بانقلاب الأمّة على بني أُميّة حتى سقوط ملكهم، وانتهاءً ببقاء الحسين عليه السلام حيًّا في ضمير المؤمنين، هو خيرُ دليلٍ على أنّ دمه لم يذهب سدًى، بل كان حجر الأساس في زلزلة عرش الظالمين، وفي بقاء الإسلام الأصيل، على رغم كل محاولات التحريف والتشويه.

لقد انتصر الحسين عليه السلام حين سقط يزيد، ولعنتْه الأمة، وبقيت كربلاء مشعلًا للحرية والعزة، يهتدي بها الأحرار في كل زمانٍ ومكان.. هكذا كان الحسين عليه السلام مصباح الهدى وسفينة النجاة، وهكذا بقي نهجُه نورًا لا ينطفئ، وسيفًا مصلتًا على رقاب الظالمين إلى يوم القيامة.

الفصل الثالث عشر

عبدُ الله الرضيع الدمُ الطاهر الذي أسقط شرعيّة يزيد

عبدُ الله الرضيع الدمُ الطاهر الذي أسقط شرعيّة يزيد

إنّ معركة كربلاء لم تكنْ صراعًا بين طامحين إلى السلطة، ولا كانت مواجهة عسكريّة بين جيشين متكافئَين، بل كانت اللحظة التي سقطت فيها كلُّ الأقنعة، وانكشفت حقيقة الانحراف الذي أصاب الأمة بعد رحيل النبي الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

ففي قلب هذه الملحمة العظيمة، تبرُز مواقف للإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ تفيض بالمعاني والدّلالات، ومن أبلغها وأشدّها وقعًا، موقفه عندما حمل طفله الرضيع عبد الله الشهيد بين يديه، مخاطبًا القوم بنداء الإنسانيّة، ليكشف للعالم بأسره أنهم لم يكونوا خصومًا سياسيّين أو أصحاب مشروع دولة، بل كانوا عصبة من الوحوش المتجرِّدة من أيِّ وازع ديني أو خُلُقيّ.

لكن -وكما هي العادة- لم يسلم هذا الموقف من محاولات التشكيك والتأويلات المنحرفة التي تسعى لتقويض دلالاته الواضحة، فهناك مَن يدَّعي أنّ الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يحاول استدرار عطف أعدائه، أو أنه كان يبحث عن حلٍّ سياسيّ أخير، وكأنهم يْريدون أن يمحوا الحقيقة التي خطَّتها دماء الشهداء على أرض الطف! فكيف يمكن لمن أقدم على هذا الفعل أنْ يكون في موضع استجداءٍ؟!

وكيف يتصوَّر عاقلٌ أنّ الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يراهن على رحمة جيشٍ منع الماء عن الرضَّع والأطفال قبل أنْ يبدأ القتال؟!

إنّ هـذا الحـوار يأتـي ليكشـف زيـف تلـك الادِّعـاءات، ويـردُّ على شُـبهات المخالفيـن الذيـن يحاولـون طمـس معالـم هـذه الفاجعـة الخالـدة، وليُثبِـت أنّ موقـف الإمـام الحسـين عليه السلام حيـن حمـل رضيعـه لـم يكـنْ إلا جـزءًا مـن مشـروعه الإلهـيّ لإقامـة الحجّـة وكشـف الباطـل بـكل تجلِّياتـه.

فليكـن هـذا النقـاش شـهادة أخـرى علـى أنّ دم الحسـين عليه السلام مـا زال يفضـح الطغـاة، ويكشـف المتخاذليـن، وأنّ كربـلاء ليسـت مجـرَّد واقعـةٍ تاريخيـة، بـل هـي معركـة الحـقّ التـي لا تـزال تـدوِّي أصداؤهـا فـي ضميـر كل منصـفٍ، إلـى أنْ يـرث اللـه الأرض ومـن عليهـا.

الموارد الرئيسة للنقاش:

١ – حمْل الإمام الحسين عليه السلام لرضيعه بين استجداء الرحمة وإقامة الحجّة.

٢ – كربلاء معركة الحقّ والباطل، وليست صراعًا سياسيّا.

٣ – قتْل الرضيع أُنموذج لانعدام الإنسانيّة في جيش بني أُميّة.

٤ – الإمام الحسين عليه السلام لم يكن يبحث عن مخرجٍ سياسيّ بل كان يمضي في مشروع الشهادة.

٥ – الجيش الأُمويّ لم يكن أداة تنفيذٍ بل كان شريكًا في الجريمة.

٦ – السهم الذي قَتل الرضيع لم يكن ضربة خاطئة بل كان جريمة متعمَّدة.

٧ – مشروع الإمام الحسين عليه السلام كشَف الزيف، وفضح الطغيان الأُمويّ.

٨ – حرملة وسهْمه المثلث شاهدٌ على سقوط بني أُميّة.

٩ – التبريرات السياسيّة لا تمحو حقيقة جريمة قتل الحسين عليه السلام.

١٠ – دماء الرضيع شهادة أبديّة على سقوط شرعيّة بني أُميّة.

انطلاقة الحوار

المخالف: حمْل الإمام الحسين رضي الله عنه، لطفله الرضيع وطلب الماء له خلال المعركة –وهو موقفٌ غير مألوف في أجواء الحرب– قد يُفهم على أنه كان محاولة عاطفيّة للتأثير على العدو بدلًا من كونه تكتيكًا عسكريًّا.

الإمامي: الإمام الحسين عليه السلام لم يكنْ في موقف استجداء أو ضعف عندما حمل رضيعه عبد الله الشهيد بين يديه، ولم يكنْ يرجو من أعدائه رحمةً أو شفقةً؛ لأنه كان يعلم يقينًا أنهم قد تجرَّدوا من كل إحساس إنسانيّ، وسقطوا في هُوّة القسوة العمياء، بل كان هدفه أنْ يكشف قناع الزيف عن وجوههم، ويظهر حقيقتهم أمام الأمة والعالم بأسره بأنهم لم يكونوا مجرَّد خصوم سياسيّين أو عسكريين، بل كانوا تجسيدًا لانحراف عقَديّ وخُلُقيّ مطلق يسعى إلى القضاء على كل قِيم الدين والإنسانيّة، ويريد استئصال صوت الحقّ من الأمة.

لم يكن في موقف الإمام الحسين عليه السلام هذا أيّ مناورة عسكرية؛ لأن معركته لم تكن حربًا بين جيشين يتصارعان على الحكم، بل كانت مواجهة بين مشروع إلهيّ ومخطَّط شيطاني، بين العدل المطلق والانحراف المطلق، بين الحقّ بكل تجلِّياته والباطل بكل قبحه، ومن ذلك كله تعرف أنّ رفع الإمام الحسين عليه السلام رضيعه مخاطبًا القوم بقوله: «إنْ لم ترحموني فارحموا هذا الطفل»، لم يكن طلبًا للعطف أو محاولةً للتأثير في نفوس قاسية قد امتلأت بالحقد، بل كان عليه السلام يريد أنْ يقيم الحجّة البالغة عليهم، حتى لا يبقى لأحد مطلقًا أيّ مجال للدفاع عنهم، وحتى يُسقِط أيّ تبرير يمكن أنْ يُقال لاحقًا لصالح بني أُميّة.

وإذا تتبَّعت التاريخ ستجد أنه في أشد الحروب وحشية كانت هناك أعرافٌ تفرِض احترام النساء والأطفال، وكانت هناك قوانين

عرفيّة تمنع قتل الأبرياء والعزل، ولكنّ جيش يزيد أثبت أنه لا يخضع لأيِّ مبدأ إنسانيّ أو خُلُقيّ، وعليه، فهل يُعقل أنّ الإمام الحسين عليه السلام -الذي رأى من جيش يزيد ما رآه، ومن أعظم ما رآه أنهم منعوا الماء عن أهل بيته حتى قضوا عطشًا- كان يتصوَّر أنّ هؤلاء القوم الذين لم يرقّ قلبهم لنساء وأطفال يموتون جفافًا، سيشعرون فجأة بالرحمة عند رؤية طفلٍ رضيع؟!

إن مجرَّد تصور ذلك يُعدُّ سذاجة لا تليق بمن عرف واقع تلك المعركة.. فالإمام الحسين عليه السلام لم يكن ينتظر رأفة من قتلة الأطفال، لكنه أراد أنْ يجعل جريمتهم واضحة وضوح الشمس، حتى لا يُقال يومًا: إنّ معركته كانت مجرَّد مواجهة عسكرية، بل كانت مذبحةً تُجسِّد وحشية المشروع الأُمويّ، ولو لم يفعل الإمام عليه السلام ذلك لكان التاريخ قد فتح الباب للتشكيك في حجم الجرائم التي ارتكبها أعداؤه، ولادّعى المدلِّسون أنّ المعركة كانت مجرَّد حرب بين طرفين متكافئين، وأنّ بني أُميّة كانوا يبحثون عن «حفظ الدولة» أو «وأد الفتنة»، ولكنْ عندما أُريق دم الرضيع الطاهر على يدي أبيه، أصبح واضحًا لكل مسلم أنّ من قتل الحسين عليه السلام لم يكن يسعى إلا إلى إبادة الحقّ واستئصال جذوة الإيمان والرحمة في هذه الأمة.

إذن، فإنّ حمل الإمام الحسين عليه السلام لطفله الرضيع لم يكن محاولةً للتأثير على العدو، بل كان ضربة قاصمة لكل محاولات تزييف الحقيقة، وطعنةً في قلب المشروع الأُمويّ الذي لم يكتفِ

بقتل الرجال، بل امتدّ إلى ذبح الأطفال بلا رحمة، ولولا هذا المشهد لربما وجد أعداء الحسين عليه السلام من يدافع عنهم بحجَجٍ واهية، ولكنْ بعد أنْ سقط الرضيع مضرَّجًا بدمه الطاهر، لم يبقَ هناك مجال لأيِّ تبرير، وسقطت شرعيّة بني أُميّة سقوطًا مدوِّيًا، وبقي الإمام الحسين عليه السلام مدرسةً للحريّة والإباء، في ما بقي أعداؤه عنوانًا للخزي والعار الذي لن يُمحى من صفحات التاريخ إلى يوم القيامة.

المخالف: حمْل الحسين للرضيع لا يُثبِت أنه كان يريد فضح القوم بقدر ما يمكن تفسيره بأنه كان يبحث عن حلٍّ سياسيّ أخير. أنت تصرُّ على أنّ الحسين كان يعلم أنه سيُقتل، لكنّ تصرُّفه يدل على أنه ربما كان يسعى إلى إيجاد مخرج، ولو كان مقتنعًا بأنّ القوم لن يرحموه، لما كان هناك داعٍ لطلب الماء للطفل. تفسيرُك لهذا الموقف بنحوٍ ديني بحت يتجاهل البعد السياسيّ للأحداث.

الإماميّ: أنت بزعمك هذا تتجاهل كل المؤشرات التي أكَّدت أنّ القوم لم يأتوا إلا لقتل الإمام الحسين عليه السلام واستئصال نهضته، وتأويلُك هذا لا يصمد أمام النصوص التاريخيّة، ولا أمام منطق الأحداث، ولا أمام خُطب الإمام عليه السلام نفسه التي كانت كلها إعلانًا واضحًا بأنه كان يعلم بمصيره المحتوم، وأنه لم يكن يبحث عن «مخرج سياسيّ» كما تزعم، بل كان يسير نحو المواجهة بإرادةٍ صلبة، لإكمال رسالته وكشف زيف بني أُميّة حتى لا يبقى لهم أيّ قناع يتستَّرون خلفه.

إنّ حمل الحسين عليه السلام لطفله لم يكن محاولة لإنقاذ حياته عبر استدرار عطف القوم، بل كان خطوة مدروسةً لكشف حقيقتهم أمام التاريخ.. كان عليه السلام يدرك أنهم لن يتركوا حتى الرضيع، وأنهم لن يمنحوه قطرة ماء، لكنه أراد أنْ يجعل آخر سهمٍ في جعبتهم موجَّهًا نحو طفل لا يحمل سيفًا، ولا يشكل تهديدًا، ولا يملك إلّا أنين العطش، فهذه اللحظة لم تكن محاولة تفاوض، بل كانت إعلانًا نهائيًّا عن انعدام الإنسانيّة لدى جيوش بني أُميّة، فلو كان الإمام عليه السلام يسعى إلى إيجاد مخرج، لكان قد قبِل بأيٍّ من عروض الاستسلام التي قدَّمها له ابن زياد من قبل، ولكنه عليه السلام رفض رفضًا قاطعًا، وأعلن بوضوحٍ أنه لن يبايع يزيد، ولن يمنح بني أُميّة شرعيّة وجودهم، حتى لو كان الثمن حياته وحياة أهل بيته.. فكيف يُقال بعد ذلك: إنه كان يبحث عن حلٍّ وسط؟!

الإمام الحسين عليه السلام لم يحمل الطفل لأنه كان يظن أنّ القوم سيتأثرون، بل حمله ليضعهم أمام امتحانٍ نهائيّ، وليقول لهم: إنْ كنتم تزعمون أنكم تحاربونني؛ لأني خارج على الحكم، فما ذنب هذا الطفل؟! وإنْ كنتم تقولون: إنكم تريدون حماية الأمة، فكيف تقتلون طفلًا لا يعرف معنى الحرب؟!

فهذا المشهد كان آخر شاهد على أنّ الصراع لم يكن مجرَّد حربٍ سياسيّة، بل كان معركة بين مشروعين: مشروع يريد الحفاظ على الإسلام على أنه قيمة خُلُقيّة، ومشروع أراد أنْ يحوله إلى أداة في يد الطغاة.. لذلك عندما أطلق حرملة لعنه الله السهم المسموم على

الرضيع لم يكن الإمام الحسين عليه السلام ينتظر منهم ماءً، بل كان يريد أنْ يسجل في صفحات التاريخ أنّ بني أُميّة تجاوزوا كل حدود الجريمة، وأنهم لن يتورَّعوا عن قتل حتى الأطفال باسم السلطة.

أما قولك بأنّ الحسين عليه السلام لو كان مقتنعًا بأنّ القوم لن يرحموه لما كان هناك داعٍ لطلب الماء، فهو يشير إلى قصورٍ في استيعاب المراد من هذا الطلب، حيث أنّ الإمام عليه السلام -كما بيَّنا ذلك مرارًا- لم يكن يطلب الماء؛ لأنه كان يأمل في استجابة العدو، بل كان يلقي عليهم الحجّة الأخيرة، حتى لا يأتي أحدٌ بعد ذلك، ويقول: إنّ بني أُميّة كانوا يبحثون عن «حقن الدماء» أو عن «استقرار الأمة»؛ إذ كيف يمكن لمن يرفض حتى سقْي طفل أنْ يكون حاكمًا شرعيًّا للمسلمين؟ هذه اللحظة كانت إعلانًا بأنَّ النظام الأُمويّ فقَد أيَّ صلة بالإنسانيّة، وأنّ معارضته لم تعدْ مجرَّد خيار سياسيّ، بل أصبحت واجبًا خُلُقيًّا.

أما محاولتك تصوير المشهد على أنه محاولة أخيرة للوصول إلى «حلٍّ سياسيّ»، فهي تتنكَّر للركيزة الرئيسة التي أوضحها الإمام الحسين عليه السلام منذ بدء مسيره المبارك من مكة عندما قال: «خُطَّ الموت على ولد آدم مخطَّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي، اشتياق يعقوب إلى يوسف»[1]. هذا لم يكن رجلًا يبحث عن مخرج، بل كان قائدًا يعلم أنه ذاهبٌ إلى الشهادة، ولكنه أراد أنْ يجعل كل تفصيل في كربلاء شاهدًا على

(١) نثر الدر في المحاضرات، للآبي، ج١، ص٢٢٨.

ظلم بني أُميّة، حتى لا يبقى لأحدٍ عذرٌ في تبرير جرائمهم.

إذن، حمل الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ لطفله لم يكن خطوةً سياسيّة، بل كان لحظة كاشفة للحقائق، لا لمن كانوا في كربلاء فحسب، بل لكل الأجيال القادمة، لكي يعرف الجميع أنّ بني أُميّة لم يكونوا مجرَّد حكامٍ طغاة، بل كانوا مجرمين لا حدود لجُرمهم، قتلة لم يرحموا حتى رضيعًا، وهكذا سقطت شرعيّتهم، ليس فقط بسيوف المعركة، بل بسهمٍ واحد اخترق حلق طفل رضيع، ليبقى شاهدًا على أنّ الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ كان على حقٍّ، وأنّ أعداءه كانوا في قاع الظلم والانحراف.

المخالف: تصوير الجيش الأُمويّ، وكأنه مجموعة من الوحوش المتجرِّدة من أيِّ إنسانيّة هو تبسيط عاطفي للقضية. كل الحروب تشهد جرائم، لكنّ هذا لا يعني أنّ المعركة كانت بين الخير المطلق والشر المطلق. لديك نظرة مثاليّة للحسين مقابل تصوير بني أُميّة أشرارًا مطلقين، بينما الواقع هو أنّ كل طرف كان يتحرك على وفق مصالحه السياسيّة.

الإماميّ: محاولتك تبرئة بني أُميّة من وحشيّتهم بحجة أنّ «كل الحروب تشهد جرائم» ليست إلا تبريرًا فجًّا للمجازر التي ارتكبوها، وكأنّ قطع رؤوس الأطفال، وسحق الأجساد تحت سنابك الخيول، ومنع الماء عن العطشى، وسبْي النساء، هي مجرَّد ممارسات «طبيعية» تحدث في كل صراع!

إنك بزعمك هذا تحاول أنْ تضع الحسين عليه السلام وجلّاديه في كفّة واحدة، كأنّ كربلاء كانت مجرَّد صراعٍ سياسيّ بين طرفين لديهما مصالح متعارضة، متنكِّرًا أنّ أحد الطرفين كان يرفض الظلم حتى آخر لحظة، والآخر ارتكب من الفظائع ما لم يُشهَد له مثيلٌ حتى في أشد الحروب وحشية.

احفرها في قلبك وعقلك، أنَّ الإمام الحسين عليه السلام لم يكن يسعى إلى مصلحته السياسيّة، بل كان يطلب الإصلاح في أمة جدِّه، بينما كان الطرف الآخر يسعى إلى فرض الطاعة المطلقة لحكم يزيد، ولو بسفك دماء آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وإذا كنت ترفض تصوير بني أُميّة على أنهم أشرار مطلقون، فأخبرني ما الذي يمكن أنْ يجعل جيشًا يواجه رجلًا خرج إليه بأهل بيته وأطفاله، ثم يقطع عنهم الماء، ويرديهم قتلى واحدًا تلو الآخر، ويرسل الخيول لتطحن أجسادهم بعد قتلهم؟! أيّ مصلحة سياسيّة تبرِّر ذبح طفلٍ رضيع، وهو في حجر أبيه بسهمٍ مثلث مسموم؟! هل هذه مجرَّد أخطاء حرب؟! هل هذه جرائم مفهومة ضمن سياق الصراع السياسيّ؟!

المسألة ليست تبسيطًا عاطفيًّا، بل قراءة واقعية للحدث كما وقع، فالمعركة لم تكن بين فصيلين متنافسين على الحكم، بل كانت بين رجلٍ يمثل الامتداد الحقيقي لرسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وجيش بكل قادته وحكّامه تجردوا من كل قيمة دينيّة وخُلُقيّة لمجرَّد الحفاظ على سلطة يزيد.. وإنْ كنت تصرّ على أنّ كربلاء لم تكن

صراعًا بين الخير المطلق والشرّ المطلق، فهل لديك تفسيرٌ آخر لمشهد الإمام الحسين عليه السلام وهو يناجي القوم في ليلة عاشوراء، ويؤكِّد لهم أنهم لن يواجهوا بعده أحدًا؟! هل لديك تفسيرٌ آخر لطلبه الماء لطفله الرضيع، ثم قتله بدم بارد؟! هل لديك مبرِّر آخر لتقطيع الأجساد ورمي الرؤوس في الأزقّة؟! أيّ مصالح سياسيّة هذه التي تتطلّب حرق الخيام، وسبي النساء، وحمل رؤوس الشهداء على الرماح كأنها غنائم حرب؟!

إنّ زعمك أنّ الأمر مجرَّد «حربٍ طبيعية» هو في حدِّ ذاته تزييف للتاريخ والحقيقة، ومحاولة لتجريد الجريمة من بعدها الخُلُقيّ، وكأنّ بني أُميّة كانوا مجرَّد حكّام يسعون للاستقرار، بينما كان الحسين عليه السلام طرفًا آخر في الصراع! لكنّ الحقيقة التي لا يمكنك طمسها وتغييبها، هي أنّ الحسين عليه السلام وقف يدافع عن مبادئ الإسلام وقِيمه، بينما الطرف الآخر كان مستعدًّا لانتهاك كل شيء، حتى المقدَّسات من أجل بقاء الحكم في يد طاغية مستهتر.

ولا تشك لحظةً في أنَّ الجيش الأُمويّ لم يكن مجرَّد قوة سياسيّة، بل كان أداة قمعيّة لا تعرف الرحمة، كُرّست لإبادة كل من يرفض الانصياع للحكم الفاسد، ولو كان فيهم ذرة من الضمير لما وقفوا متفرجين، وهم يرون سبط النبي يُذبَح عطشانًا في ساحة المعركة، ولو كانوا جنودًا في حرب عاديّة، لكان فيهم من يرفض تنفيذ هذه المجازر، لكنهم جميعًا كانوا شركاء في الجريمة؛ ولذلك لم يسجل لنا التاريخ أنهم عارضوا أو رفضوا تنفيذ أوامر

ابن زياد.. فمن الذي يبسِّط الأمور إذن؟! من الذي يريد أنْ يجعل الجريمة العظمى مجرَّد «نزاع سياسيّ»؟!

كربلاء لم تكن مجرَّد معركةٍ، بل كانت لحظة مفصليّة في التاريخ، حيث سقطت آخر أقنعة بني أُميّة، وانكشفت حقيقتهم أمام العالم، وسيبقى دم الحسين عليه السلام شاهدًا إلى الأبد على أنّ الصراع لم يكن بين شخصين، بل بين الحق والباطل، بين العدل والجريمة، بين الإسلام الحقيقي والإسلام المزيف الذي حاول يزيد وأتْباعه فرضه بالقوة.

المخالف: تأكيدك على أنّ الحسين كان «يمثل الإسلام الحقيقي» هو مجرَّد تبنٍّ لرؤيةٍ طائفية؛ لأن من كانوا في الجيش الأُمويّ لم يكونوا كفارًا أو ملحدين، بل كانوا يرون أنفسهم مسلمين يدافعون عن الدولة الإسلاميّة ضد خروج قد يؤدي إلى الفوضى. لا يمكنك إنكار أنّ هناك من اعتبروا أنّ خروج الحسين كان يشكِّل تهديدًا للاستقرار؛ ولذلك لم يترددوا في مواجهته.

الإماميّ: هل كان هذا «الاستقرار» الذي تزعمه يتطلَّب أنْ يُقتل لأجله سبط النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عطاشى في الصحراء؟! هل حماية الدولة تعني ذبح رضيع بسهم مسموم، وسحق الأجساد تحت سنابك الخيل، وقطع الرؤوس، وحملها على الرماح، وحرق الخيام، وسبي بنات رسول الله؟!

أيّ «إسلام» هذا الذي تدافع عنه السلطة الأُمويّة بجرائم لم

يرتكب مثلها حتى مشركو قريش ضد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ؟!

زعْمُك أنّ جيش يزيد كان «يرى نفسه مسلمًا» لا يعطيه أيّ شرعيّة؛ لأن الإسلام ليس مجرَّد هُوية يحملها الإنسان بالاسم، بل هو التزامٌ بالمبادئ والقِيم الإلهيّة، ولا يكفي أنْ يدّعي الإنسان الإسلام ليكون على الحق، وإلّا لكان كل من رفع شعار الإسلام عبر التاريخ يمثل الدين، حتى لو كان طاغية مستبدًّا!

فهل ترى أنّ الحجاج بن يوسف -الذي قتل عشرات الآلاف من المسلمين- كان يمثل الإسلام؟! هل ترى أنّ الحكام الظلمة الذين استخدموا الدين لتبرير جرائمهم كانوا «مدافعين عن الدولة الإسلاميّة» لمجرَّد أنهم حملوا راية الإسلام؟!

الإسلام ليس شعارًا، بل هو موقف، وعندما يكون حاكمٌ مثل يزيد لعنه الله على رأس الدولة، وهو الفاسق المعلِن بشرب الخمر، ومجالس اللهو، وقتل الأبرياء، فإنّ كل من يدافع عنه هو شريك في تحويل الدين إلى أداةِ قمع لحماية ملك بني أُميّة.

أما محاولتك تبرير موقف الجيش الأُمويّ بالقول: إنهم كانوا «يخشون الفوضى»، فهي ليست إلا تكرارًا للحُجج التي يستخدمها كل طاغية عبر التاريخ لتبرير قمعه، فكم من سلطة قاتلة برَّرت مجازرها بـ«حماية الدولة» و«حفظ النظام»! لكن هل حقّقوا استقرارًا بعد كربلاء؟ هل ساد الأمن بعد أنْ قُتل الحسين عليه السلام؟ بالعكس، لم تكن شهادة الإمام الحسين عليه السلام نهايةً لحركته، بل

كانت بداية لانهيار بني أُميّة، فخرج أهل المدينة على يزيد في واقعة الحَرّة، وانتفضت مكة، وثأر المختار، وانقلبت الأمة ضد بني أُميّة حتى انهارت دولتهم شر انهيارٍ.

فأيّ «استقرار» تتحدث عنه؟! إنّ دم الحسين عليه السلام لم يكن تهديدًا للأمة، بل كان إنذارًا لها بأنّ صمتها على الظلم سيسحقها، وهذا ما حدث بالفعل، إذ لم تمرّ سنوات حتى زالت دولة بني أُميّة نفسها التي ادَّعت أنها تقاتل الحسين عليه السلام لحماية الإسلام!!

أما زعمُك أنّ المعركة لم تكن بين «الخير المطلق والشر المطلق»، فهو محاولةٌ مكشوفة للتخفيف من وقع الجريمة. إنْ كنت ترى أنّ بني أُميّة لم يكونوا شرًّا، فماذا تسمِّي جيشًا يحاصر عائلة بأكملها، ويمنع عنها الماء حتى يموت الرضيع عطشًا؟ ماذا تسمِّي من يقطع رأس سبط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويحمله على رمحٍ كالغنائم؟! هل هؤلاء مجرَّد جنود ينفِّذون الأوامر؟! وهل يمكن تبرير قتل سبط النبي بدمٍ بارد بحجّة حماية الدولة؟! ثم إذا كنت ترى أنّ كربلاء كانت مجرَّد نزاعٍ سياسيّ، فأخبرني، هل رأيت في أيِّ حرب سياسيّة أخرى أنْ يُسحق جسد قائد المعارضة بعد قتله، بالخيل؟! هل سُبيت نساء القادة في الصراعات السياسيّة الأخرى كما فُعل مع نساء الحسين عليه السلام؟! هل طِيْف برأس أيِّ قائد معارض على الرماح كما طِيف برأس الحسين عليه السلام؟!

لا تستر الحقيقة بغشاء التهوين، فالواقع أكبر من أنْ يُخفى، وهو أنّ كربلاء لم تكن مجرَّد معركة سياسيّة، بل كانت إعلانًا

بأنّ الإسلام الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يعُد موجودًا في السلطة، وأنّ من يحكم باسمه هم طغاة مجرمون لا يتورَّعون عن إبادة آل بيت النبي أنفسهم.

إذن، الحسين عليه السلام لم يكن خارجًا على «دولة إسلاميّة»، بل كان يقاتل ليحفظ الإسلام من أنْ يتحوَّل إلى ملك بني أُميّة، وكان يعلم أنّ استشهاده سيفضح هذا النظام، ويكشف للعالم أنّ من يرفعون راية الإسلام باسمه ليسوا سوى قتلة يذبحون أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثم يقفون على منابر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويدَّعون أنهم خلفاؤه!

وفي ختام هذا البيان أقول: لم تكن كربلاء مجرَّد معركةٍ بين فريقين، بل كانت ميزان الحقّ الذي أسقط أقنعة الزيف، ولحظة الفصل بين من يحمل الإسلام رسالةً إلهيّةً، وبين من أراد أنْ يتسلط باسمه زورًا وظلمًا.. ولهذا بقي الحسين عليه السلام منارًا خالدًا في ضمير الأمة، وامتدَّ نوره في وجدان الأحرار، بينما سقط يزيد في مزبلة التاريخ، تلاحقه اللعنة في كل عصرٍ ومصر.

المخالف: إصرارك على أنّ الجيش الأُمويّ كان «مجرَّد أداة قمعية» لا يراعي أنّ كثيرًا من هؤلاء الجنود لم يكن لديهم خيار، بل كانوا مجبَرين على القتال تحت تهديد العقوبات القاسية التي يفرضها ابن زياد. فليس من العدل أنْ تصف كل من شارك في المعركة بأنه شريك في الجريمة؛ لأن بعضهم لم يكن مقتنعًا بقتل الحسين، لكنه كان يخشى على حياته.

الإماميّ: هذا هو نهج كلِّ من يريد التهرب من مسؤولية الجرائم الكبرى عبر التاريخ، وكأنّ يد الجندي التي تلطختْ بدماء الحسين عليه السلام كانت مكبَّلة، وكأنّ سهامهم خرجت من أيديهم بغير إرادتهم!

فهذه التبريرات البائسة لا تغيِّر من الحقيقة شيئًا، وهي أنّ كل من شارك في جريمة كربلاء، سواء بسيفه أو بصمته، كان جزءًا من أبشع مجزرة عرفها التاريخ الإسلامي، وكلّ من رمى سهمًا، أو سحب سيفًا، أو حتى وقف متفرِّجًا، ولم ينصر الحسين عليه السلام، كان مشاركًا في هذه الجريمة، سواء رضي بذلك أم لم يرضَ.

إذا كنت ترى أنّ بعض جنود جيش ابن زياد لم يكونوا مقتنعين بقتل الإمام الحسين عليه السلام، فماذا صنعوا سوى السكوت والتخاذل؟! هل ألقى أحدهم سلاحه، وخرج من معسكر الظلم، أو تجرأ أحدهم على الانحياز إلى الحق؟! بل كانوا كقطيعٍ يسير خلف ابن زياد، يدفعهم الخوف من العقوبة، وكأنّ الحفاظ على حياتهم الفانية كان عندهم أعظم من نصرة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم! فأيّ عذر يبقى لمن خانوا عهد الله ورسوله؟!

أكان الموت في ركاب الحسين عليه السلام أشدّ عليهم من المثول بين يدي الله يوم الحساب، وأيديهم ملوَّثة بدم سبط النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟! بل أين كانوا حين وقف سيد الشهداء عليه السلام ليلة عاشوراء يخاطب أصحابه قائلًا: «أما بعد، فإني لا أعلم أصحابًا أوفى ولا خيرًا من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ وأوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله

عني خيرًا. وهذا الليل قد غشيكم، فاتخذوه جملًا، وليأخذ كل رجلٍ منكم بيد رجلٍ من أهل بيتي، ثم تفرَّقوا في سواد هذا الليل، فإنّ القوم إنما يريدونني»[١].

لقد قالها لأصحابه الأوفياء الذين ثبتوا على العهد، ولم يوجِّهها لأولئك الذين كانوا في معسكر الباطل؛ إذ لم يكن فيهم رجلٌ واحد تجرَّأ على ترك معسكر الظلم والانضمام إلى معسكر الحق. فبأيّ وجه يلقون الله سبحانه، وقد خذلوا الحسين عليه السلام؟!

أما حديثك عن «الخوُّف من العقوبات»، فهو حجّة العاجزين الذين ركنوا إلى الدنيا، ورضُوا بالذل والهوان! فكم من رجلٍ في التاريخ أبى أنْ يكون عبدًا للطغاة، ووقف بوجه الظلم، حتى لو كان الثمن حياته؟ ألم يكن «الحر بن يزيد الرياحي» مثالًا ناصعًا لهذه البطولة، وهو الذي كان في صفوف جيش يزيد، لكنه ما إنْ أدرك الحقيقة حتى قال كلمته الخالدة كما نقلها ابن الأثير في الكامل، وابن كثير في البداية والنهاية: «والله إني أخيّر نفسي بين الجنة والنار، والله لا أختار على الجنة شيئًا ولو قطّعت، وأحرقت»[٢]؟

لقد كان قائدًا عسكريًّا في جيش ابن زياد، لكنه لم تغرَّه المناصب، ولم يُعمِه بريق السلطة عن مصيره الأُخروي، فأدرك أنّ السير في ركب الظلم هو الهلاك الأبدي، فثار على واقعه، وانقلب على الجيش الذي كان يخدمه، ملتحقًا بركب الإمام الحسين عليه السلام؛ لأنه أدرك أنّ العزّة كل

(١) تاريخ الطبري، ج٥، ص٤١٩.
(٢) الكامل في التاريخ، ج٣، ص١٧١؛ البداية والنهاية، ج٨، ص١٥٩.

العزّة في نصرة الحقّ، ولو كان في جيش ابن زياد ذرة من شهامة أو بقية من إنسانيّة، لساروا على درب الحرّ، لكنهم كانوا عبيدًا للخوف والذل، يبيعون دينهم بدنيا غيرهم، ويؤثرون نجاة زائفة على حساب العار الأبديّ!

إذا كنت تريد أنْ تعفي هؤلاء الجنود من المسؤولية بحجّة أنهم كانوا «مجبرين»، فماذا تقول عن القتلة الذين أمعنوا في ضرب جسد الإمام الحسين عليه السلام بعد مقتله؟! هل كانوا أيضًا «مجبَرين» على قطع رأسه ورميه من رمحٍ إلى رمح؟! هل كانوا مرغمين على سحق صدره بحوافر الخيل؟! هل أُجبروا على حمل رؤوس الشهداء والطواف بها كالغنائم؟! أيّ إجبار هذا الذي يحوّل الجندي إلى وحشٍ متعطِّش للدماء؟! لو كان الأمر مجرَّد طاعة للأوامر لكانوا توقَّفوا عند حدود القتال، لكنهم تجاوزوا ذلك إلى إذلال آل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وسبي النساء، والتمثيل بالجثث، وهذا ما يؤكِّد أنهم لم يكونوا مجرَّد أدوات صامتة، بل كانوا جزءًا من آلة البطش الأُمويّة التي لم تكتفِ بقتل الإمام الحسين عليه السلام، بل أرادت أنْ تمحو وجوده بالكامل.

فلا تقلْ لي: إنهم «كانوا مجبَرين»؛ لأن مَن كان فيهم رجولة وشرف رفض أنْ يكون آلة قتلٍ بيد الطغاة، ومن كان فيهم خوفٌ وخضوع، بقي عبدًا للأوامر، لكنه لن يكون عبدًا لله أبدًا، وسيلقى جزاءه كما لقيه عبيد الله بن زياد وعمر بن سعد وشمر وكل من تلطَّخت أيديهم بدم سيد شباب أهل الجنة.

المخالف: عودًا على بدء، السهم الذي أصاب الرضيع ربما لم يكن مقصودًا، وقد يكون موجَّهًا للحسين، لكنه أصاب الطفل

عن طريق الخطأ. فلا يمكنك الجزم بأنّ الجيش الأُمويّ تعمَّد استهداف الطفل، فالحروب دائمًا ما تشهد إصابات غير مقصودة، خاصّة عندما يكون هناك قتال محتدم.

الإماميّ: إنّ هذا الالتفاف المكشوف على الحقيقة لا يمكن أنْ يصمد أمام وضوح الروايات التي ذكرت أنّ السهم كان موجَّهًا للطفل الرضيع عمدًا، وأنّ القاتل لم يكن جنديًا عاديًّا وسط معركة محتدمة، بل كان قنّاصًا محترفًا في الجيش الأُمويّ، معروفًا بدقة إصابته، وهو الذي اختير خصّيصًا لتنفيذ هذه الجريمة البشعة.

ولا مجال للمراوغة في مقامٍ لا يحتمل إلا ظهور الحق ساطعًا، فالإمام الحسين عليه السلام لم يكن يقاتل، وهو يحمل رضيعه حتى يُقال: إنّ الطفل قُتل خطأً حين الاشتباك، بل رفعه عليه السلام عاليًا بكل وضوح، مفصولًا تمامًا عن ساحة المعركة، متوجّهًا إلى القوم بنداء الإنسانيّة، كما نقل ذلك ابن الجوزي في تذكرة الخواص، قائلًا: «إنْ لم ترحموني فارحموا هذا الطفل»[(١)]. فلم يكن ذلك في خضمّ قتالٍ، ولم يكن ثمّة اشتباك يتيح الادّعاء بأنّ السهم جاء عشوائيًّا، بل كان مشهدًا صريحًا قائمًا على اختبار الضمائر، وقوفًا وجهًا لوجه مع جيش يزيد، حيث وضع الإمام الحسين عليه السلام القوم أمام آخر امتحان لإنسانيّتهم، لكنهم لم يتردَّدوا لحظة واحدة في الإجابة بسهمٍ ذي ثلاث شُعَب مسموم، فذبحه من الوريد إلى

---

(١) تذكرة الخواص، لابن الجوزي، ص٢٢٧.

الوريد، وهو في حجر أبيه.[١].. فأيّ «خطأ» هنا؟! وأين هو «القتال المحتدم» الذي قد يُبرِّر انحراف السهم عن مساره ليصيب الطفل بغير قصدٍ؟! بل هي الجريمة التي تعرّت من كل ذريعة، وجاءت لتشهد على سقوط تلك النفوس في هاوية القسوة والوحشية.

ثم إذا كان السهم قد أُطلق بغير قصدٍ، فلماذا لم يتحرَّك أحدٌ من جيش ابن زياد للاعتراض أو لإظهار أدنى استياء؟! لماذا لم يَظهر في صفوفهم أيّ تردُّد بعد هذه الجريمة النكراء؟! بل على العكس، تُثبِت الروايات أنّ الجيش لم يتأثر، بل استمر في القتل والتمثيل بلا أدنى رحمة، وكأنّ قتل الرضيع لم يكن سوى حلقةٍ طبيعية في سلسلة جرائمهم الوحشية.

فلو كان الأمر كما تزعم أنه مجرَّد «إصابة خاطئة»، لوجدنا من يعترض، أو على الأقلّ يُظهر علامات الدهشة والصدمة، ولكنْ لا نجد في أيِّ مصدرٍ أنّ أحدًا من جيش يزيد توقف لحظة ليسأل: لماذا قتلنا طفلًا رضيعًا بلا ذنب؟!

والأدهى من ذلك أنّ حرملة نفسه لم يدّعِ أنه أطلق السهم بالخطأ، ولم يحاول أنْ ينكر فعلته أو يخفِّف من بشاعتها، بل تفاخر بها بعد الواقعة، بل حتى بعد سنوات طويلة، وعندما سُئل عما فعله في كربلاء لم يذكر معركةً بطوليّة ولا قتالًا شرسًا، بل قال بكلِّ وقاحة: إنه هو من أطلق السهم الذي قتل عبد الله الرضيع!

---

(١) مناهج البكاء في فجائع كربلاء، للحويزي، ج١، ص١٨٥.

فهل يُعقل أنّ القاتل نفسه يعترف بجريمته دون مواربة، بينما يحاول البعض اليوم أنْ يختلق له عذرًا لم يخطر بباله، ليجعل من تلك الجريمة الفظيعة مجرَّد «خطأ غير مقصود»؟!

ثم لنضع الأمور في نصابها: جيش الطغاة حاصر الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته الأطهار أيامًا طوالًا، ومنع عنهم الماء حتى جفّت شفاه النساء والأطفال، وأخذ العطش يفتك بأجسادهم الطاهرة، ثم مضى هذا الجيش في وحشيّته، فقتلوا كل مَن في المعسكر واحدًا تلو الآخر، وأعمَلوا السيوف في رقاب الرجال دون تمييز، فهل يُستغرَب بعد هذا كله أنْ يقتلوا طفلًا رضيعًا عمدًا وبدمٍ بارد؟ أيُّ عقل يصدّق أنّ نفوسًا تجردت من أدنى معاني الرحمة، فلم ترأف بشيخ وقور ولا شاب في مقتبل العمر، كانت ستقف متردِّدة عند دم رضيع لا حول له ولا قوة؟ أ كانت قلوبهم التي استمرأت سفك دم الحسين عليه السلام وأهل بيته ستنقلب رأفةً على طفل في مهده؟

إذن، لم يكن ذلك السهم طائشًا ولا خطأً عسكريًّا، بل كان سهمًا غُرس في قلب الإنسانيّة، وطعنةً سافرة كشفت عن وحشيةٍ لا مثيل لها، وكانت رسالةً صريحة من جيش بني أُميّة بأنهم لا يفرّقون بين كبير وصغير، ولا يعرفون للرحمة سبيلًا، حتى الرضّع في أحضان آبائهم لم يسلموا من سيوف غدرهم. ولو كان الأمر مجرَّد «إصابة غير مقصودة»، لكان استثناءً، لكنه لم يكن إلا فصلًا في ملحمةٍ دمويّة ارتُكبت بأبشع صورها، حيث لم يُكتفَ بذبح

الرجال وسفك دمائهم، بل أُتبع ذلك بسحق الأجساد الطاهرة وقطع الرؤوس وسبْي النساء، وكأنّ كل هذا لم يكن كافيًا حتى اختُتمت الجريمة بدم الرضيع يتدفَّق بين يدي أبيه، ليكون الشاهد الأخير على سقوط بني أُميّة في وحل الجريمة والطغيان، ولتُكتب بذلك صفحة سوداء في سجلِّ التاريخ، لا يمحوها الزمن، ولا تخفيها تبريرات الطغاة.

المخالف: وصف السهم الذي قتل الرضيع بأنه «مثلث مسموم» يبدو مبالغًا فيه. إذ مثل هذه السهام كانت تستخدم ضد الفرسان أو المحاربين، وليس ضد الأطفال، مما يجعل الرواية غير منطقيّة من الناحية العسكرية. فكيف يعقل أنْ يطلق الجيش الأُمويّ سهمًا بهذا الحجم على طفل صغير؟

الإماميّ: وهل تنقص فظاعة الجريمة إنْ كان السهم أصغر أو لم يكن مسمومًا؟! إنّ هذا لَعجبٌ عجاب! ولكنْ ليكن معلومًا أنّ هذا التشكيك ليس بجديد، بل هو امتداد لمحاولات بائسة تهدف إلى التهوين من هول فاجعة كربلاء، وكأنّ الإشكال يكمن في نوع السهم، لا في فظاعة الجريمة ذاتها، جريمة استهداف الطفل الرضيع بلا أيِّ وازع من دين أو ضمير!

قل لي بأيِّ منطق يستبعد أحدٌ أنْ يستخدم جيش الطاغية يزيد سهامًا مثلثة مسمومة ضد رضيع؟ هؤلاء الذين ارتكبوا من الفظائع ما يقشعرّ منه الأبدان، حيث منعوا الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته من الماء حتى قضى طفله عطشًا، وأحرقوا الخيام على النساء

والأطفال، وقطعوا الرؤوس، وسحلوا الأجساد الطاهرة تحت سنابك الخيل.. فهل يُعقل أنهم كانوا سيتحفَّظون عن استخدام سهمٍ قاتل ضدّ رضيع؟ هل هؤلاء القتلة الذين سعَوا بكل وسيلة للإجهاز على كل مَن في معسكر الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ كانوا سيتوقَّفون لينتخبوا «السلاح المناسب» بما يتماشى مع عمر الضحية؟ كلا، بل إنّ قسوتهم المفرطة لم تكن تميِّز بين رضيعٍ وشيخ، ولا بين رجل وامرأة، فالهدف كان واضحًا: وهو الإجهاز على آل محمد عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بأيّ وسيلة كانت، والتمثيل بأجسادهم الطاهرة إمعانًا في الظلم والطغيان.

السهم المثلث المسموم لم يكن اختيارًا اعتباطيًّا، بل كان تجسيدًا لوحشيّة الجيش الأُمويّ الذي أراد أنْ يذبح الرضيع بأكثر الطرق بشاعة.. هذا السهم لم يكن مجرَّد أداة قتل، بل كان رسالة واضحة من جيش ابن زياد مفادها: (لا نترك أحدًا، حتى الأطفال، لن ينجوا من بطشنا)!

فلم يكن الأمر مجرَّد قتل للرضيع، بل كان استعراضًا للدمويّة المطلقة، لجعل الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ يرى بأمِّ عينيه أنّ خصومه لا يتورَّعون عن أيِّ شيء، حتى عن قتل طفلٍ صغير لا يستطيع حتى الصراخ من شدة العطش.

ثم إنّ الادّعاء بأنّ السهام المثلثة المسمومة كانت تُستخدم حصرًا ضد الفرسان هو محض مغالطة تهدف إلى التستُّر على جريمة لا يمكن تبريرها بأيِّ منطق، فالرماة في ذلك العصر لم

يكونوا ملتزمين بقوانين عسكرية تمنع استخدام نوع معيَّن من السهام ضدَّ فئة دون أخرى، بل كانوا يختارون أسلحتهم على وفق ما يخدم أهدافهم الإجراميّة.. وفي واقعة كربلاء لم يكن الهدف مجرَّد القتل، بل كان استعراضًا لأقصى درجات الوحشية وإمعانًا في التمثيل بالجثث، ولهذا اختير سهمٌ مثلث مسموم لقتل الطفل الرضيع، على رغم أنّ سهمًا عاديًّا كان كافيًا لإنهاء حياته البريئة، لكنّ القتلة أرادوا أنْ يتركوا جرحًا نازفًا ليس في جسد الطفل فقط، بل في قلب الإمام الحسين عليه السلام وفي وجدان الأمّة، لتبقى هذه الفاجعة شاهداً على ظلم بني أُميّة وتجرُّدهم من أيّ قيمة إنسانيّة أو دينية.

ولو كان الأمر كما تدَّعي، وأنّ السهام المثلثة المسمومة لم تكن تُستخدم إلا ضد المقاتلين، فلماذا استخدم الجيش الأُمويّ سيوفهم وسهامهم لاحقًا ضد النساء والأطفال في الهجوم على المخيم؟! ولماذا لم يراعوا «القوانين العسكرية» التي تحاول أنْ تستنجد بها؟! الحقيقة أنّ هذا الجيش لم يكن جيشًا يخوض حربًا، بل كان فرقةَ ذبحٍ تعمل بلا وازع، مهمّتها إبادة كل مَن في معسكر الحسين عليه السلام، ولو اضطروا لاستخدام أسوأ وسائل القتل وأكثرها بشاعة، فإنهم لم يكونوا ليتردَّدوا لحظة واحدة.

إذن، التشكيك في نوع السِهم أو حجمه لا يغيّر شيئًا من الحقيقة الكبرى، وهي أنّ الجيش الأُمويّ لم يكن يبحث عن طرق «عادلة» للقتل، بل كان يسعى إلى الإبادة الكاملة لمعسكر

الحسين عليه السلام بأقصى الوسائل الممكنة.

فإنْ كنت ترى أنّ استخدام سهمٍ مسموم ضد الرضيع يبدو «غير منطقي»، فالأَولى أنْ تسأل نفسك: أيّ منطق هذا الذي يجعل جيشًا بكامله يذبح سبط النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويسبي نساءه، ويقتل حتى الأطفال الرضع؟ هذه ليستْ حربًا، بل إبادة، وكل تفاصيلها تُثبِت أنّ بني أُميّة لم يكونوا مجرَّد خصوم سياسيّين كما تزعمون، بل كانوا مشروعًا إجراميًّا لا يتردد في سحق أيّ صوت يعارضه، ولو كان ذلك الصوت طفلًا بريئًا في حجر أبيه.

الخلاصة والنتائج

أنّ موقف الإمام الحسين عليه السلام عندما حمل رضيعه «عبد الله» بين يديه لم يكن في لحظة استجداء أو ضعف، ولم يكن محاولة لاستدرار العطف من قوم تجرَّدوا من كل رحمة، بل كان ضربة قاصمة لكل محاولات التزييف، وإقامة حجّة دامغة على وحشيّة بني أُميّة أمام الأمة والعالم بأسره.

لقد كان الإمام الحسين عليه السلام على يقين بأنّ هؤلاء القوم قد أسلموا قلوبهم للظلم والطغيان، وأنهم لن يرحموا رضيعًا كما لم يرحموا كبيرًا، ولكنه أراد أنْ يجعل آخر سهم في جعبتهم يوجَّه نحو طفلٍ لا يملك سيفًا، ولا يشكل تهديدًا، ليكون هذا المشهد إعلانًا مدوِّيًا أنّ معركته كانت مواجهة بين الإسلام المحمديّ الأصيل والإسلام الأُمويّ المزيَّف.

لقد كشفت هذه الواقعة عن أنّ الجيش الأُمويّ لم يكن جيشًا يقاتل دفاعًا عن دولة، بل كان عصابة من القتلة لا تتورَّع عن أيّ جريمة، وأنّ قيادته لم تكن تخوض حربًا عادلة، بل كانت تفتك بكل من يقف في وجه مشروع يزيد الفاسد، فمجزرة كربلاء -لا سيما مشهد قتل الرضيع- لم تكن مجرَّد حادثة عرضية، بل كانت فصلًا من فصول إبادة آل محمد عليهم السلام ومحاولة طمس نور الرسالة الإلهيّة.. لقد أطلق حرملة لعنه الله سهمه المثلث المسموم عن وعيٍ وإدراك، وهو يعلم أنه لن يصيب إلّا طفلًا لا ذنب له سوى أنه ابن الحسين عليه السلام، فسجل بذلك وحشيةً لا مثيل لها، وحفر في التاريخ وصمة عار لا يمحوها الزمن.

إنّ نتائج هذه الجريمة لم تكن كما أرادها الطغاة، فقد كان قتل الرضيع لحظةً فاصلة في تعرية المشروع الأُمويّ وكشْف زيفه أمام الأمة، حيث لم يعدْ بإمكان أحدٍ أنْ يبرِّر جرائم بني أُميّة أو يصوِّر كربلاء على أنها حرب سياسيّة بين متخاصمين.. فبدم الرضيع انقطعت كل الحجَج، وسقطت شرعيّة يزيد وأعوانه سقوطًا مدوِّيًا، وأصبح واضحًا لكل مسلم أنّ مَن قتل الحسين عليه السلام لم يكن يسعى لحماية الإسلام قطعًا، بل كان يسعى لإبادته واستبداله بدين السلطة والاستبداد.

وهكذا بقي دم الرضيع نداءً خالدًا في ضمير الإنسانيّة، شاهدًا على أنّ الإمام الحسين عليه السلام لم يكن رجل سياسة يبحث عن حلٍّ وسط، بل كان امتدادًا للرسالة المحمدية ومشروعًا إلهيًّا لا يقبل

التزييف ولا المساومة.

لقد خسر بنو أُميّة في ذلك اليوم كل شيء، بينما بقي الحسين عليه السلام مشعلًا للهداية، وبقيت كربلاء ميدانًا للحقّ يفضح الباطل في كل زمان، وما دم الرضيع إلا لعنة أبديّة على الطغاة، تفضح جرائمهم إلى يوم القيامة.

الفصل الرابع عشر

صمتُ الطاغية وصرخة العقيلة

لماذا لم يَقتلْ يزيد لعنه الله السيدةَ زينب عليها السلام ؟

إنّ محاولات التغطية على جرائم الطغاة ليستْ أمرًا جديدًا، بل هي امتداد لسُنَن التاريخ، حيث يسعى الظالمون، وأتْباعهم من عبيد السلطان، إلى تزييف الحقائق وتلميع صُور المستبدّين الذين داسوا بأقدامهم كرامة الإنسان، ولكنْ هيهات! فإنّ للتاريخ لسانًا لا يخفت، وإنّ للدماء لغةً لا يُسكِتها التزوير، فما بالكم إنْ كان هذا التاريخ يسطِّر صفحةً من صفحات كربلاء؟! وما بالكم إنْ كانت الدماء هي دماء سبط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإنْ كانت الكلمات التي زلزلت العروش هي كلماتُ عقيلة بني هاشم زينب الكبرى عليها السلام ؟!

إننا اليوم أمام تساؤلٍ طالما تردَّد في أذهان البعض، ممّن لا يفقهون طبيعة الطغيان، ولا يدركون دهاء المستبدِّين، إذ يقولون: إذا كانت السيدة زينب عليها السلام قد خطبت في مجلس يزيد، وأهانته، فلماذا لم يأمر بقتلها؟! ألم يكن قادرًا على أنْ يقطع صوتها إلى الأبد لو شاء؟!

وهنا نقول: إنّ هذا السؤال ينطلق من تصوُّرٍ ساذجٍ عن الطغيان، وكأنَّ الطغاة مجرَّد وحوش وهمجٍ لا يعرفون إلّا القتل، وكأنهم لا يمتلكون أساليب أخرى للحفاظ على سلطانهم! أما الواقع، فإنّ الطغيان ليس مجرَّد بطشٍ أعمى، بل هو منظومةٌ كاملةٌ تستند إلى التزييف والتضليل وصناعة الانطباعات أمام العامة، فإذا كان يزيد لعنه الله

قد قَتل الإمام الحسين عليه السلام بدمٍ بارد، فلأنه كان يظنّ أنّ قتله سيمرّ دون تبِعات، لكنه فوجئ بأنّ الأمر ليس كما تصوَّر، وأنّ زلزالَ كربلاء قد بدأ يتصدَّع في أساس ملكه، فأدرك أنّ قتل السيدة زينب عليها السلام سيكون خطأً استراتيجيًّا آخر يضاف إلى جريمته الكبرى، إذ كيف يَقتل امرأة لمجرَّد أنها أسمعتْه كلمة الحق؟!

ثم إنّ بقاء السيدة زينب عليها السلام بعد خطبتها ليس دليلًا على تسامح يزيد، بل هو دليلٌ على ضعفه! فلقد كانتْ أمامه خيارات كلُّها مُرّة: إنْ قتلها أثبت أنه لا يستطيع تحمُّل كلمة الحقّ، وإنْ تركها ترك صوتًا يجلجل في أرجاء الشام، ويفضح طغيانه. فكان خياره أنْ يصمت، لكنه لم يدرك أنّ هذا الصمت لم يكن إلّا إعلانًا لهزيمته أمام كلمة امرأة جرَّدته من انتصاره المزعوم، وأظهرت للأمة أنّ الحسين عليه السلام لم يُهزم حتى وهو قتيلٌ، وأنّ كلماته وكلمات زينب عليها السلام هي التي ستظلّ تلاحق الطغاة، حتى يرث الله الأرضَ ومن عليها.

ومن هنا، ندخل في حوارٍ يكشف أبعاد هذا الموقف، ويزيل الغشاوة عن العقول، لنضع الحقائق ناصعةً كما هي، دون تزييفٍ أو تحريف.

الموارد الرئيسة للنقاش:

١ – هل كان يزيد لعنه الله قادرًا على قتل السيدة زينب عليها السلام بعد خطبتها؟

٢ – هل عدم قتلها عليها السلام يدلّ على تسامحه أو على حساباته السياسيّة؟

٣ – كيف تعامل الطغاة تاريخيًّا مع المعارضة العلنيّة، وهل كانوا دائمًا يلجؤون إلى القتل؟

٤ – ما أثر خطبة السيدة زينب عليها السلام في مجلس يزيد على الرأي العامّ في الشام؟

٥ – هل كان قتْل الإمام الحسين عليه السلام خطأ استراتيجيًّا ليزيد، جعله يتجنَّب تكرار المشهد مع السيدة زينب عليها السلام؟

٦ – كيف يمكن أنْ يكون عدم قتل السيدة زينب عليها السلام دليلًا على ضعف يزيد بدلًا من قوته؟

٧ – هل الطغاة يخشَون دائمًا رِدّة فعل الناس، أو أنّ لكل موقفٍ حساباته الخاصة؟

٨ – ما علاقة خطبة السيدة زينب عليها السلام بالتحوُّلات السياسيّة التي أدّت إلى سقوط بني أُميّة؟

٩ – هل استمر حكم بني أُميّة بعد كربلاء بسبب قوتهم، أو أنهم فقدوا شرعيّتهم تدريجيًّا حتى سقطوا؟

١٠ – إلى أيِّ مدى أثّرت خطبة السيدة زينب عليها السلام في تفجير ثورات التوّابين والمختار الثقفي وغيرها من الانتفاضات؟

١١ – هل كانت دولة بني أُميّة ستسقط حتى بدون كربلاء، أو أنّ هذه الفاجعة كانت نقطة التحوُّل الحاسمة؟

١٢ – لماذا حاول يزيد لعنه الله التنصُّل من جريمة قتل الإمام الحسين عليه السلام بعد خطبة السيدة زينب عليها السلام؟

١٣ – كيف كان أثر خطبة السيدة زينب عليها السلام في بقاء ذكر كربلاء حيًّا عبر الأجيال؟

انطلاقة الحوار

المخالف: تقولون: إنّ زينب بنت عليّ خطبتْ في مجلس يزيد، وأهانته، فكيف سمح لها بذلك؟ لو كان طاغية كما تصفونه لأمر بقتلها فورًا.

الإماميّ: هذا تصوُّرٌ ساذج عن الطغاة، وكأنهم مجرَّد آلاتِ قتلٍ بلا دهاءٍ ولا حنكة، مع أنّ التاريخ يشهد بأنّ الطغيان لا يعتمد على البطش وحده، بل يستخدم وسائل متعدِّدة لتثبيت سلطته، منها الدعاية والتضليل وصناعة الانطباعات أمام الرأي العام.

يزيد لعنه الله لم يكن مجرَّد قاتلٍ أهوج يبطش بلا حسابٍ، بل كان سياسيًّا يدرك أنّ قتل السيدة زينب عليها السلام في ذلك المجلس بعد المجازر التي ارتكبها كان سيتحوَّل إلى خطأ استراتيجيّ جسيم،

يفضح ضعفه وهشاشة سلطته، فهو كان قد تورَّط في سفك دم الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وصحبه، وهذا وحده قد زلزل شرعيّته، وكان بحاجةٍ إلى تبرير موقفه وإقناع الناس بأنّ ما فعله كان ضروريًّا.. فكيف كان سيبدو أمام أهل الشام إنْ قَتل امرأة في مجلسه لمجرَّد أنها أسمعتْه كلمات حقٍّ؟! أيّ حاكم عاقل يدرك أنّ إظهار القوة الغاشمة في غير موضعها قد ينقلب إلى دليلٍ على ضعفه، فكيف بيزيد الذي كان يحاول تلميع صورته أمام الناس؟!

ثم إنّ هذا الموقف بالذات كان ساحة اختبارٍ حقيقيّة لقوة الكلمة أمام جبروت السيف.. فالسيدة زينب عليها السلام لم تكن مجرَّد أسيرةٍ تُقاد كما يُقاد العبيد، بل كانت امرأة صنعت موقفًا يوازي في أثره دماء الشهداء؛ إذ إنها -وهي في أسْر يزيد لعنه الله- جرّدتْه من انتصاره المزعوم، وأظهرت أنه لم ينتصر في الواقع، بل خسِر أمام الحسين عليه السلام حتى وهو قتيلٌ. وماذا كان أمام يزيد من خيارات؟ فلو قتلها لأصبح قتله لها شهادة على ضعف موقفه وانهزامه النفسيّ أمام كلماتها، ولو تركها استمرّ صوتها يدوّي في أرجاء الشام، ويفضح جرائمه.. فاختار الخيار الأقلّ خسارة في نظره، وهو محاولة احتوائها والاكتفاء بمحاولة التبرير وامتصاص الصدمة.

إذن، بقاء السيدة زينب عليها السلام على قيد الحياة بعد خطبتها لا ينفي طغيان يزيد، بل يؤكِّده؛ لأنه يكشف أنّ طغيانه لم يكن مجرَّد تهوُّرٍ دمويّ، بل كان طغيانًا سياسيًّا يسعى للحفاظ على

صورتـه، حتـى وإنِ اضطـرّ لابتـلاع الإهانـات الظاهـرة، خوفًـا مـن انقـلاب النـاس عليـه.. فبـدل أنْ يكـون بقـاء السـيدة زينـب عليها السلام دليـلَ بـراءةٍ ليزيـد، صـار دليـلًا علـى هزيمتـه أمـام الحـق، علـى رغـم كل سـلطانه وجبروتـه.

المخالف: التاريـخ مليـءٌ بأمثلـةٍ لطغـاة لـم يتـردَّدوا فـي قتـل النسـاء، فلمـاذا يُفتـرض أنّ يزيـد كان يخشـى رِدّة الفعـل مـن قتـل زينـب؟ ألـم يأمـر بقتـل الحسـين وأهـل بيتـه، فكيـف يتـردَّد عـن قتـل امـرأة واحـدة؟

الإماميّ: الطواغيـت لا يتحرَّكـون دائمًـا بدافـع الدمويّـة العميـاء، بـل بدافـع الحفـاظ علـى سـلطتهم وإخمـاد أيِّ تهديـد لهـا، سـواء بالسـيف أم بالخـداع أم بالمراوغـة.

ويزيـد لعنه الله عندمـا أمـر بقتـل الإمـام الحسـين عليه السلام وأهـل بيتـه، كان يتوهَّـم أنّ ذلـك سـينهي القضيـة تمامًـا وأنّ الأمـور ستسـتتبّ لـه كمـا اسـتتبّتْ لأبيـه بعـد قتـل حجـر بـن عـدي وأصحابـه، لكنـه فوجـئ بـأنّ هـذه الجريمـة لـم تمـرّ كمـا كان يتوقـع، بـل أحدثـت زلـزالًا فـي الأمـة، وأربكـت حسـاباته، حتـى بيـن أتْباعـه فـي الشـام.. فقتْـل الإمـام الحسـين عليه السلام كان يمكـن ليزيـد أنْ يبـرِّره أمـام الـرأي العـام بادِّعـاء أنـه تمـرَّد علـى الدولـة، أمـا قتـل امـرأة أسـيرة فكيـف سـيبرّره؟ هـل سـيتذرّع بأنهـا خرجـت عليـه بسـيف؟ أو أنهـا قـادت جيشًـا ضـده؟!

وعلـى هـذا الأسـاس، فـإنّ عـدم قتـل يزيـد للسـيدة زينـب عليها السلام لـم يكـن لأنّ نفسـه اشـمأزّت مـن قتـل النسـاء، بـل لأنـه كان أمـام مـأزقٍ

لا يُحسد عليه، فإنّ قتلها سيزيد الطين بلة، ويكشف أنّ نظامه في مأزق شديد لدرجة أنه بات يخشى حتى كلمة امرأة.. وإنْ أبقاها فإنه سيسمع كلمات الحقّ تصفع وجهه أمام حاشيته، وسيضطرّ إلى التظاهر بأنه غير مكترثٍ بما يُقال، في محاولة يائسة للحفاظ على هيبة سلطته.

وهذا بالضبط ما جرى! لقد كان يزيد يدرك أنه خسِر شرعيّته أمام الأمة، وأنّ أيّ حركة خاطئة ستسرِّع نهايته؛ لذلك لم يكن أمامه إلّا أنْ يمتصّ الصدمة محاولًا أنْ يضع مسافة بينه وبين جريمة كربلاء، ولو بمسرحيّةٍ مكشوفةٍ كالتظاهر بالندم أو تحميل المسؤولية لابن زياد.

أما مَن يتوهَّم أنّ الطاغية لا يخاف من ردّة فعل الناس، فليقرأ التاريخ جيدًا! فكم من مستبدٍّ أهلك الحرث والنسل، لكنه تراجع عن خطوةٍ واحدةٍ خوفًا من أنْ تكون القشّة التي تقصم ظهره، فكيف إذا كانت القشة هي قتل امرأة أذهلت الدنيا بموقفها، وقلبت الهزيمة العسكرية إلى انتصارٍ فكريٍّ وخُلُقيٍّ؟!

إذن، كان يزيد في مأزق، وليس في موضع المنتصر الذي يقتل متى شاء، ويدع متى شاء.. فكما أنّ الطغيان لا يعني فقط القتل الأعمى، فإنّ النجاة من القتل لا تعني غياب الطغيان، بل إنّ أشدّ الهزائم التي يتلقّاها الطغاة هي عندما يجدون أنفسهم مضطرّين لترك مَن يكشف حقيقتهم، وهم لا يملكون الجرأة على إسكات صوته!

المخالف: عدم قتل زينب لا يدلّ على خوف يزيد، بل على ثقته بنفسه وسلطته، وأنه كان واثقًا أنّ كلامها لن يُؤثِّر على حكمه أو سمعته. فالأمراء أحيانًا يتسامحون؛ لأنهم لا يرَون خصومهم خطرًا حقيقيًّا.

الإماميّ: إنّ مِن المضحك أنْ يُقال: إنّ عدم قتل السيدة زينب عليها السلام كان تعبيرًا عن ثقة يزيد بنفسه، وكأنّ الطغاة عادةً يسمحون لمعارضيهم بفضحهم علنًا وإحراجهم أمام حاشيتهم ورعاعهم!

يزيد لعنه الله لم يكن في موضع الثقة والاطمئنان، بل كان في موضع الحرج الشديد، لقد قتل الإمام الحسين عليه السلام، وبدل أنْ يخمد مقتله المعارضة تحوّل إلى فضيحةٍ مدوِّية زلزلت أركان حكم يزيد، حتى داخل بيته.. فلم يكن قتل الإمام الحسين عليه السلام حدثًا عابرًا يمكن طمسه، بل كان بدايةً لانهيار صورة الحكم الأُمويّ أمام المسلمين.. فكيف يُقال: إنّ يزيد كان واثقًا من أنّ كلام السيدة زينب عليها السلام لن يُؤثر، وهو الذي اضطرّ لاحقًا لتبرير الجريمة والتظاهر بعدم مسؤوليّته عنها؟! وهل مَن كان مطمئنًا إلى سلطته يحتاج إلى تلفيق الأعذار والادِّعاء بأنّ ابن زياد تسرَّع؟!

ثم إنّ هذا الادِّعاء يناقض طبيعة الاستبداد نفسه، فالطغاة لا يتسامحون مع معارضيهم إلا إذا كانوا مجبرين على ذلك، أو إذا رأوا أنّ البطش بهم سيؤدِّي إلى نتائج عكسية.

يزيد لعنه الله لم يكن متسامحًا، بل كان مأزومًا، محاصرًا بين

تداعيات الجريمة التي ارتكبها وبين إدراكه أنّ أيّ خطوة إضافية غير محسوبة ستفضحه أكثر مما هو مفضوح، وإلّا فكيف يُقال: إنّ الطاغية واثق بنفسه، وهو الذي اضطرّ بعد فترة وجيزة إلى مواجهة ثورات متتابعة، من انتفاضة أهل المدينة إلى ثورة المختار الثقفي وسقوط شرعيّته أمام الأمة؟! هل هذه نتائج "ثقة بالنفس"، أو مؤشرات على أنّ زلزال كربلاء لم يكن شيئًا يستطيع تجاهله؟!

ولو كان يزيد يرى أنّ كلام السيدة زينب عليها السلام بلا تأثير، فلماذا ضاقت به الأرض بما رحبت، وهو يسمع خطبتها؟ لماذا حاول إسكاتها؟ لماذا اضطرب مجلسه، واهتزت هيبته أمام كلمات امرأةٍ أسيرة؟!

لو كان فعلًا مطمئنًا إلى سلطته لضحك من كلامها، وأمر بإخراجها، لكنه كان يدرك أنّ كل جملة تتفوّه بها عليها السلام كانت طعنة في قلب سلطته المهترئة، وكلّ كلمة تنطق بها كانت كفيلة بأنْ تُبقي جريمة كربلاء لعنةً تلاحقه عبر الأجيال.

إنّ تصوير عدم قتل يزيد للسيدة زينب عليها السلام على أنه تسامح وثقةٌ بالنفس هو محاولة يائسة لستر جبْن الطغاة خلف قناعٍ زائف، فالواقع أنّ يزيد كان في موقفٍ لا يُحسد عليه "إنّ قتلها يعني فضيحة مدوِّية لا يستطيع تبريرها، وإنّ ترْكها يعني أنّ صوت الحق سيظلّ يقرع رأسه إلى الأبد"، فاختار الخيار الأقلّ ضررًا في نظره، وهو أنْ يبتلع الإهانة، لكنه بذلك قدم شهادة واضحة على أنه لم يكن ذلك الطاغية المطلق القدرة، بل كان مهزومًا أمام

امـرأة جرَّدتـه مـن كل انتصـارٍ مزعـوم، وجعلتـه مجـرَّد جـلّاد مرتجـف أمـام كلمـة الحـقّ.

المخالف: لـو كان يزيـد مهـزوزًا وخائفًـا مـن زينـب وخطبتهـا، كمـا تدّعـون، فلمـاذا لـم تسـقط دولتـه علـى الفـور؟ بـل بقـي فـي الحكـم حتـى وفاتـه، واسـتمرّ حكـم بنـي أُميّـة بعـده، ممـا يـدلّ علـى أنّ كلام زينـب لـم يكـن لـه أثـرٌ حاسـم كمـا تزعمـون.

الإماميّ: إنّ زعمـك بـأنّ سـقوط الـدول والطغـاة يجـب أنْ يكـون لحظيًّـا وفوريًّـا كـي يكـون للمقاومـة أثـرٌ حقيقـيّ، هـو منطـقٌ سـاذج لا ينسـجم مع سُـنن اللـه تعالـى فـي التدافـع بيـن الحـقّ والباطـل، بـل هـو أقـرب إلـى التصـوُّرات السـطحية التـي تتجاهـل حركـة التاريـخ ومسـيرة الأمـم.. أ تـراك تظـن أنّ كل صرخـةِ حـقٍّ يجـب أنْ تزلـزل عـروش الطغـاة فـي اللحظـة ذاتهـا، وإلا فهـي بـلا أثـرٍ؟ أيّ منطـقٍ هـذا الـذي يغفـل عـن التراكمـات التـي تصنـع التحـوُّلات الكبـرى؟

إنّ سُـنَن اللـه فـي الكـون واضحـة: ﴿وَتِلْـكَ الْأَيَّـامُ نُدَاوِلُهَـا بَيْـنَ النَّـاسِ﴾[1]. فكمـا لـم يسـقط فرعـون فـي لحظـةٍ واحـدة، كذلـك لـم يـزُلْ ملـك بنـي أُميّـة دفعـة واحـدة!

فـإنّ يزيـد لعنه الله لـم يكـن حاكمًـا مسـتقرًّا واثقًـا كمـا تصـوّره، ويُصـوّر÷ مـن كان علـى شـاكلتك، بـل كان غارقًـا فـي دوّامـة مـن الأزمـات التـي كانـت نتيجـة طبيعيـة لجريمتـه فـي كربـلاء، والتـي فجّـرت موجـات

(١) آل عمران: ١٤٠.

الغضب والتمرّد ضدّه.. فهل كان من قبيل المصادفة أنّ حكمه لم يدُم سوى ثلاث سنوات، شهدت خلالها الأمةُ اضطرابات متلاحقة؟!

وهل كان من قبيل المصادفة أنّ أحداث كربلاء لم تُمحَ، بل ظلّت تكبر مع الأيام حتى صارت الوقود الذي أذكى الثورات ضدّ بني أُميّة، بدءًا من ثورة أهل المدينة في "وقعة الحرّة"، إلى ثورة التوّابين، ثم انتفاضة المختار الثقفي التي استأصلت قتلة الإمام الحسين عليه السلام؟!

أليس من المثير للتأمل أنّ بني العباس أنفسهم حين أرادوا إسقاط الأُمويّين لم يجدوا شعارًا أكثر تأثيرًا من شعار "يا لثارات الحسين"؟!

إنّ زينب عليها السلام لم تكن مجرَّد خطيبةٍ ألقت كلمات في مجلس يزيد، ثم انتهى أثرها، بل كانت المسمار الذي دُقّ في نعش الشرعيّة الأُمويّة، ولو لم يكن لكلماتها هذا التأثير لما وصلتنا أصلًا، ولما بقيت تتردَّد أصداؤها عبر العصور.. فالطغاة يسقطون على مراحل، وليس بانقلاب فوريّ.. ولا تتعامَ عن حقيقة أنّ الإمام الحسين عليه السلام لم يكن يطلب نصرًا عسكريًّا لحظيًّا، بل كان يخطّ مسارًا ينكشف فيه زيف الحكم الأُمويّ أمام الناس، وزينب عليها السلام كانت الامتداد الطبيعيّ لهذا المسار.

أما استمرار الحكم الأُمويّ بعد يزيد، فلا يدلّ على متانة

نظامه، بل على العكس، فقد كان استمرارًا هشًّا لا يحمل من القوة سوى مظاهرها الزائفة، حتى انتهى إلى الانهيار التامّ بعد عقود قليلة.. وما قيمة حكمٍ امتدّ لعشرات السنين لكنه ظلّ ملعونًا في الضمائر، مطاردًا بعار كربلاء، حتى أضحى التاريخ لا يذكره إلا مقرونًا بالمذابح والمجازر؟ هل هذه هي "الثقة بالنفس" التي تزعمها أنت ومن يحذو حذوك؟! أو هو طغيان يلفظ أنفاسه الأخيرة، مدركًا أنّ زواله وشيك؟!

إذن، لم يكن سقوط يزيد في لحظته سقوطًا ماديًّا لدولته، بل كان إيذانًا ببداية زوال ملك بني أُميّة وتحوّلهم إلى لعنة تطاردهم في كل عصرٍ وزمان. لقد صار يزيد رمزًا للطغيان الفاشل، بينما تحوّل دم الحسين عليه السلام إلى مشعلِ ثورةٍ لا تنطفئ، يقضّ مضاجع الظالمين، ويفضح عروش المستكبرين. ولولا الكلمات المدوِّية التي أطلقها سيد الشهداء عليه السلام وموقف العقيلة زينب عليها السلام الذي زلزل عرش الطاغوت، لما آل أمر بني أُميّة إلى التشرذم والهوان، حتى صاروا يفرّون، بين البلدان، وانتهت دولتهم وهم يُسحلون في الطرقات، لا قبر يؤويهم، ولا ذكرَ يخلِّدهم إلا في مزابل التاريخ.

المخالف: إنّ سقوط بني أُميّة لم يكن بسبب خطبة زينب أو مقتل أخيها الحسين وحده، بل بسبب عوامل سياسية واقتصادية واجتماعيّة وصراعات داخلية بين الأُمويّين أنفسهم وانقسامات قبلية بين القيسيّة واليمانية، مما يعني أنّ التأثير المباشر لكلام زينب لم يكن كما يُصوّره الشيعة.

الإماميّ: أنت بين أمرين: إما أنك جاهلٌ بحقائق التاريخ، أو أنك تتجاهلها عن عمدٍ، لكنّ الحق لا يُطمس، والواقع لا يُزوَّر.. إنّ سقوط بني أُميّة لم يكن وليد أزمات سياسيّة واقتصادية كما تحاول أنْ توهم نفسك، بل كان نتيجة محتومة لانفجار الضمير الإسلاميّ بعد فاجعة كربلاء، حيث سُفكت دماء الطُّهر على رمضاء الطفّ، فانكشفت عورة الحكم الأُمويّ الجائر، وبدت حقيقته للناس بعدما حاول أنْ يختبئ خلف قناع الإسلام زورًا وبهتانًا، ومنذ ذلك اليوم لم تهدأ ثورات أهل الحقّ، يقودها الولاء للحسين عليه السلام، وتغذِّيها دماء الشهداء وصيحات المظلومين، حتى سقط ملكهم صاغرًا، ذليلًا مدحورًا، يلاحقه الخزي في الدنيا، وسخط الله في الآخرة، وتطارده لعنة الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه، الذين جعلوا التاريخ شاهدًا على أنّ الدم المظلوم لا يضيع، وأنّ راية أهل البيت عليهم السلام لا تسقط، مهما حاول الطغاة أنْ ينكّسوها.

أما محاولتك اليائسة لتصوير أنّ الحكم الأُمويّ استمر بعد كربلاء دون أنْ يتأثر، فهي سفاهة لا تصمد أمام حقائق التاريخ.. أ فتظن أنّ ثورة أهل المدينة، التي انتهكت فيها جيوشكم حُرَم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واستباحت أعراض المسلمين، كانت حدثًا معزولًا عن فاجعة الطفّ؟! أم تراك تتجاهل أنّ ثورة التوابين التي خرج رجالها يبكون ندمًا على خذلانهم للحسين عليه السلام وهم يحملون السيوف طلبًا للثأر، كانت نتيجةً مباشرة للمأساة العظمى؟!

أ وَلم يكن المختار الثقفيّ، الذي ضرب دولة الأُمويّين في

الصميم، وانتقم من قتلة الحسين عليه السلام واحدًا من أولئك الذين جعلوا كربلاء رايةً لمشروعهم؟! أخبِرْني، لماذا لم يكن هناك أيّ مشروع ثوريّ حينها لا يستظلّ براية "يا لثارات الحسين"؟! ولماذا كانت كل حركات مقاومة بني أُميّة تستمدّ شرعيّتها من دم الحسين عليه السلام؟!

ثم إنك تحاول عبثًا أنْ تفصل بين خطبة العقيلة زينب عليها السلام وسقوط بني أُميّة، وكأنّ كلماتها كانت مجرَّد ألفاظٍ عابرة لا وقع لها في التاريخ! وهذا جهلٌ فاضح أو تجاهُل متعمّد؛ لأن خطبتها في قصر يزيد كانت الضربة الأولى التي هزّت عرش طغيانكم، وكشفت للأمة أنكم لم تنتصروا في كربلاء، بل خرجتم منها أذلّاء مخذولين، مطأطئي الرؤوس أمام عظمة الدماء التي أهرقتموها ظلمًا وعدوانًا.

قل لي بربِّك، أيُّ طاغيةٍ يسمح لأسيرٍ أنْ يتحدث في مجلسه إنْ كان واثقًا من قوته وسلطانه؟! أما رأيت كيف اضطرب يزيد أمام كلماتها، وكيف تبرَّأ مما فعله، وهو الذي أمر به؟! أليس هو الذي قتل الحسين عليه السلام بدم بارد؟ فلماذا إذن حاول التنصُّل من جريمته عندما وقفت زينب عليها السلام في مجلسه، وألقمت باطله حجرًا؟!

الحقيقة التي تحاولون طمسها أنّ كلمات السيدة زينب عليها السلام كانت أشدّ عليكم من وقع السيوف، فهي التي هزّت ضمائر الأمة، وزرعت في القلوب بذرة الثورة، حتى تحول صوتها إلى صاعقة أطاحتْ بملككم الجائر، ولعنة تطاردكم في الدنيا قبل الآخرة.. أنتم تظنون أنكم انتصرتم في كربلاء، لكنْ ما لبثت الأيام حتى

أثبتت أنّ النصر كان في الجانب الذي وقف فيه الحسين عليه السلام وأخته زينب عليها السلام، وأنّ هزيمتكم بدأت منذ اللحظة التي نطقت فيها زينب بصرخة الحقّ التي زلزلت عروش الظالمين، وأعلنت أنّ دولة بني أُميّة إلى زوال، مهما حاولتم أنْ تطمسوا آثارها.

ثم لنفترض -جدلًا- أنّ سقوط دولتكم كان بسبب أزمات سياسيّة واقتصادية كما تدّعون، فهل كانت هذه الأزمات كافية لإسقاط حكمٍ جثم على صدر الأمة لعقود، لو لم يكن قد فقد شرعيّته بالكامل بعد كربلاء؟!

ثم خذْ حقيقةً أثبت من الجبال، وهي: أنّ الفرق بين سقوط بني أُميّة وسقوط أيّ دولةٍ أخرى أنّ دولتكم لم تسقط سقوطًا عاديًّا، بل سقطت ومعها لعنة التاريخ، حتى لم يعدْ أحد قادرًا على تبرئتها، ولم يبقَ لأنصاركم اليوم إلا محاولاتٍ بائسة للتبرير وصرف الأنظار عن السبب الحقيقيّ وراء زوال ملككم.. ولكنْ هيهات! فإنّ للحق نورًا لا يُحجب، وكما أنّ معاوية بن أبي سفيان حاول أنْ يثبِّت حكم بني أُميّة على أنقاض الخلافة النبوية، فإنّ ابنه يزيد دمّره بيده حينما ظنّ أنّ قتل الإمام الحسين عليه السلام سيمرّ بلا حساب، ولم يكن يدري أنّ تلك الدماء الزكية ستتحول إلى لعنةٍ تلاحقه إلى يوم الدين، حتى صار اسمه عنوانًا للعار في الدنيا وسخط الله في الآخرة.

أما زلت تظن أنّ كربلاء لم تكن السبب في زوال ملك بني أُميّة؟! إذن، أخبرني: لماذا لم يستطيعوا -على رغم بطشهم- أنْ

يمحوا ذكر الحسين عليه السلام من قلوب الناس؟! ولماذا لم تفلح دولتهم في إسكات صوت زينب عليها السلام التي فضحتهم أمام الأمّة، وكشفت عورتهم في مجلس يزيد؟! لماذا بقيت كربلاء هي الحدث الأبرز في تاريخ الإسلام، بينما لا يُذكر اسمهم إلا مقرونًا بالخزي والخذلان؟! لأنّ ما وقع في الطفّ لم يكن مجرَّد معركة، بل كان يومًا فُرِزَ فيه أهل الحقّ من أهل الباطل، وكانت خطبة زينب عليها السلام هي الإعلان الصريح بأنّ بني أُميّة، على رغم جبروتهم، كانوا هم المهزومين، وأنّ نهايتهم باتت وشيكة حتى حانت لحظة السقوط، فألقاهم التاريخ في مزبلته، حيث لا يُذكر اسمهم إلا مقرونًا بالذل والهوان!

المخالف: الثورات التي تلت كربلاء، مثل حركة التوّابين وثورة المختار، لم تكن نتيجة خطبة زينب بشكل مباشر، بل كانت بسبب مشاعر الندم لدى أهل الكوفة الذين خذلوا الحسين. وبالتالي، ليس صحيحًا القول بأنّ خطبة زينب وحدها كانت المحرِّك الرئيس لهذه الأحداث

الإماميّ: أنت تمارس أسلوب التشويش والتضليل لتخدع القرّاء، فتحاول تصوير الأمر، وكأنّ الأمة استيقظت فجأة بعد سنوات من فاجعة كربلاء، دون أنْ يكون هناك عاملٌ أيقظ وجدانها، ودون أنْ تكون هناك يدٌ امتدت لانتشالها من سباتها العميق! وكأن التاريخ تحرّك من تلقاء نفسه، بلا صوتٍ يهزّ الضمائر، ولا دماءٍ تسري في عروق الأحرار، ولا قضيةٍ تسكن وجدان المؤمنين!

ثم تأتي لتختزل كل ما جرى في مجرَّد "مشاعر ندم" عند أهل

الكوفة، متجاهلًا السؤال المحوري: ما الذي فجّر هذه المشاعر؟! وما الذي حوّلها من تأنيب ضميرٍ فرديّ إلى ثوراتٍ هزّت عرش الظالمين؟! أليس هو ذلك الصوت الزينبي الذي دوّى في مجلس الطاغية، فكشف للناس أنّ يزيد لم ينتصر، وأنّ الحسين عليه السلام لم يُهزم، بل إنّ القاتل هو المهزوم، والشهيد هو الذي انتصر بدمه؟!

إنك تعترف بنفسك أنّ التوابين ندموا على خذلانهم للحسين عليه السلام، ولكنك تغمض عينيك عن السبب الذي جعل هذا الندم يتحوّل إلى بركانٍ ثائر، لا مجرَّد أسفٍ مكتومٍ في الصدور! ولو كنت منصفًا، لعلمت أنّ الذي صنع ذلك هو الخطاب الزينبيّ الذي دوّى كالصاعقة فوق رؤوس القوم، فأيقظ القلوب التي كاد أنْ يُطمر فيها صوت الحق، وزلزل العروش التي ظنّت أنها نجت من تبِعات جريمتها. ذلك الصوت الذي أعلن للأمة بأسرها أنّ دم الحسين عليه السلام لم يكن مجرَّد حادثةٍ عابرة، بل كان صرخةً خالدة، ستظلّ تتردَّد في أُذن الدهر، حتى يأخذ الله بثأره على يد بقيته الحجّة ابن الحسن عجّل الله تعالى فرجه الشريف.

ثم إنك تطرح الإشكال وكأنّ خطبة العقيلة زينب عليها السلام لم تكن إلا مجرَّد كلماتٍ عابرة، أُلقيت في مجلس يزيد، وانتهى أثرها هناك، متجاهلًا أنها كانت الشرارة الأولى لثورة الوعي التي زلزلت أركان حكمكم، وأشعلت نار الانتقام في قلوب الأمة! وهل تفقَه ماذا صنعت تلك الخطبة؟ لقد حوّلت الأسرى من حالة الانكسار إلى رايات انتصار، وجعلت السبي فضيحةً ليزيد بدل

أنْ يكـون إذلالًا لأهـل البيـت عليهم السلام، وأعـادت رسـم معادلـة المعركـة، فلـم تعـدْ كربـلاء مجـرَّد ميـدانٍ قُتِـل فيـه الحسـين عليه السلام، بـل أصبحـت معركـةً أخـرى انتصـر فيهـا الـدم علـى السـيف، وافتُضِـح فيهـا يزيـد أمـام الأمـة، فلـم يعُـد القاتـل هـو المنتصـر، بـل صـار الضحيـة هـو مـن انتـزع النصـر بكلماتـه ودمـه.

ثـم تعـالَ لنقلـب سـؤالك عليـك: لـو كانـت خطبـة زينـب عليها السلام بـلا تأثيـرٍ كمـا تزعـم، فلمـاذا حـاول يزيـد التنصُّـل مـن دم الحسـين عليه السلام بعـد سـماعها؟! لمـاذا ارتبـك أمـام الحضـور، وراح يتبـرّأ ممـا اقترفتـه يـداه، وهـو الـذي كان يجاهـر بكفـره حيـن قـال:

لعبت هاشم بالملك فلا خبرٌ جاء ولا وحيٌ نزل؟!

لمـاذا لـم يقتـل زينـب عليها السلام وهـي التـي أهانتـه فـي عقـر داره، وكسـرت هيبـة مجلسـه بكلماتهـا التـي سـلبت منـه الشـرعيّة؟! أ ليـس لأنـه أدرك أنّ قتلهـا سيشـعل نـارًا لا تنطفـئ، بعـد أنْ زرعـت فـي القلـوب يقينًـا بـأنّ دم الحسـين عليه السلام لـن يذهـب هـدرًا؟! أم إنـك تظـن أنّ الطغـاة يعفـون عـن خصومهـم حبًّـا فـي الرحمـة؟!

أمـا ثـورة المختـار، فمـاذا كانـت إنْ لـم تكـن الامتـداد العملـي لنـداء زينـب عليها السلام؟! هـل خـرج المختـار ليطلـب ملـكًا لنفسـه؟ أو أنـه خـرج يحمـل رايـة "يـا لثـارات الحسـين"، تلـك الرايـة التـي لـم تكـن مجـرَّد شـعار، بـل كانـت إعلانًـا صريحًـا بـأنّ دم الحسـين عليه السلام لـن يضيـع، وأنّ الأمـة قـد اسـتيقظت مـن غفلتهـا؟! فمـن الـذي جعـل

هذا الدم قضيةً خالدة لا تنطفئ؟! ومن الذي بثّ في الأمة شعورًا بأنّ هذه الفاجعة ليست حدثًا يُنسَى، بل جرحٌ مفتوحٌ لن يُغلق حتى يتحقَّق القصاص العادل؟! إنها زينب عليها السلام، التي جعلت الأمة تدرك أنّ عاشوراء ليس يومًا للبكاء فقط، بل هو اليوم الذي يُصنَع فيه الوعي، ويُعاد فيه رسم مسار التاريخ، ويُحدّد فيه طريق المواجهة بين الحق والباطل!

إذن، إنكارك لأثر السيدة زينب عليها السلام في الثورات التي تلت كربلاء هو إنكارٌ لعين الشمس في وضح النهار! وهو محاولة بائسة لتصوير الأحداث، وكأنها تحركت من تلقاء نفسها، دون أنْ يكون هناك صوتٌ أشعل جذوة الثورة، وكأنّ مشاعر الأمة انتفضت بلا سبب، متناسيًا أنّ الحقيقة التي تعرفها جيّدًا، وتخشى الاعتراف بها، هي أنّ زينب عليها السلام هي التي كسرت جدار الصمت، وهي التي زرعت في القلوب يقينًا بأنّ الدم الزكيّ لا يُمحى، وأنّ السكوت عن الظلم يعني الرضوخ للذل الأبديّ!

إنها زينب عليها السلام التي أعادت الأمة إلى رشدها، وهي التي صنعت الوعي الذي انطلقت منه كل الثورات التي قصمت ظهر الطاغية يزيد، ثم عرّت بني أُميّة، وأسقطت دولتهم في مستنقع العار الأبديّ. لقد حاولوا أنْ يطمسوا ذكر الحسين عليه السلام، فإذا بالأيام تزيدهم لعنةً فوق لعنة، وخزيًا فوق خزيٍ، بينما بقيت زينب عليها السلام خالدةً في كل صرخة مقاومة، وفي كل ثورة حقٍّ؛ لأنها لم تكن مجرَّد امرأةٍ أسيرة في مجلس يزيد، بل كانت صوت السماء الذي

نـزل ليقـول للأمـة: إنْ سـكتّم اليـوم، فستعيشـون الـذلّ إلـى الأبـد!

الخلاصة والنتائج

أنّ خلاصـة القـول تنتهـي إلـى حقيقـة دامغـة لا تحتمـل التشـكيك، وهـي أنّ موقـف السـيدة زينـب عليها السلام فـي مجلـس يزيـد لعنه الله لـم يكـن مجـرَّد خطبـةٍ عابـرة، بـل كان انتصـارًا للحـقِّ فـي ذروة انتفـاش الباطـل، وصرخـةً زلزلـت عـرش الطاغيـة، فأظهرتـه فـي موضـع المهـزوم، لا فـي موضـع المنتصـر. لقـد توهَّـم يزيـد أنّ قتلـه للإمـام الحسـين عليه السلام سـيقضي علـى صـوت الثـورة، لكنـه لـم يـدرك أنّ صـوت زينـب عليها السلام كان امتـدادًا لذلـك الـدم الطاهـر، فـإذا كان الحسـين عليه السلام قـد انتصـر بدمـه، فـإنّ زينـب عليها السلام انتصـرت بكلمتهـا، وجعلـت مـن مجلـس يزيـد منصـةً لمحاكمتـه أمـام التاريـخ، فاضطـرّ إلـى ابتـلاع الإهانـة والسـكوت عـن قتلهـا، لا رأفـةً بهـا، بـل خوفًـا مـن أنْ ينقلـب قتلـه لهـا إلـى دليـلٍ آخـر علـى ضعفـه وهزيمتـه.

إنّ بقـاء السـيدة زينـب عليها السلام بعـد خطبتهـا لـم يكـن علامـةً علـى قـوة يزيـد، بـل كان شـهادةً علـى هشاشـة سـلطانه، فقـد كان فـي موقـفٍ لا يُحسـد عليـه، فهـو بيـن خياريـن أحلاهمـا مـرّ: إنْ قتلهـا زادت جرائمـه فظاعـة، وإنْ أبقاهـا اسـتمر صوتهـا يـدوِّي فـي الآفـاق، فاختـار مـا ظنَّـه أخـف ضـررًا، لكنـه لـم يـدرك أنّ مجـرَّد اضطـراره إلـى تركهـا تنطـق أمـام الأشـهاد كان إعلانًـا واضحًـا لسـقوطه الخُلُقـي والسياسـي.

ومـن هنـا، فـإنّ خطبـة السـيدة زينـب عليها السلام لـم تكـن مجـرَّد

كلمات قيلت، وانتهى أثرها، بل كانت الشرارة التي أبقت قضيّة الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ حيّة في ضمير الأمة، وكانت الأساس الذي قامت عليه الثورات اللاحقة التي أطاحت بدولة بني أُميّة، وإنْ لم يكن ذلك السقوط لحظيًّا، فقد كان محتومًا؛ لأن كل سلطة ظالمة تفقد شرعيّتها لا تلبث أنْ تزول، وإنْ طال بها الزمن.

إنّ تصوير عدم قتل السيدة زينب عَلَيْهَا السَّلَامُ على أنه تسامحٌ أو ثقةٌ بالنفس هو محاولةٌ فاشلة لتبرئة يزيد من جبنه، بينما الحقيقة أنّ هذا الحدث كان شهادةً دامغةً على عجزه عن كتم صوت الحق، وعلى إدراكه أنّ قتله للإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن نهايةً للصراع، بل كان بداية لانهياره. وكما لم يستطع قتل الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ أنْ يُطفئ نور أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، كذلك لم يكن يستطيع بقتل زينب عَلَيْهَا السَّلَامُ أنْ يمحو آثار كربلاء، فتركها حيةً، لكنها حيّةٌ بكلمةٍ كانت أقوى من سيوفه، وأشد على ملكه من كل ثائرٍ رفع السيف في وجهه.

وهكذا، فإنّ كربلاء لم تكن مجرَّد معركة انتهت في العاشر من المحرم، بل كانت بداية لعهدٍ جديدٍ من الصراع بين الحقِّ والباطل، وكانت زينب عَلَيْهَا السَّلَامُ هي الصوت الذي حفظ لهذه الثورة خلودها، فكما لم ينتصر يزيد بقتل الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، لم ينجُ من الهزيمة حين ترك زينب عَلَيْهَا السَّلَامُ حية؛ لأن صوتها بقي لعنةً تلاحقه إلى الأبد، وشهادتها صارت سيفًا مسلولًا على رقاب الظالمين، حتى ورث اللهُ الأرض لأهلها، وأذهب الرجسَ عن أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ تطهيرًا.

كلمة الختام

الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أنْ هدانا الله، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء وخاتم المرسلين محمد المصطفى، وعلى آله الطيبين الطاهرين، الذين جعلهم الله مصابيح الهدى وسفن النجاة، وخصَّهم بمنزلةٍ لم يبلغها أحدٌ من العالمين.

بعد رحلةٍ فكريّة تناولنا فيها أبعاد واقعة كربلاء من زوايا متعدِّدة، وفتحنا حوارات فكرية مع مختلف الآراء والاتجاهات، سعينا في هذا الكتاب إلى إزالة الشُّبهات وكشف الحقائق، ليبقى نور عاشوراء مشعًّا في القلوب والعقول، وليبقى دم الإمام الحسين عليه السلام صرخةً خالدةً في وجه الطغيان، ومنهجًا إصلاحيًّا للأمة إلى قيام الساعة.

لقد رأينا كيف أنّ كربلاء لم تكن مجرَّد معركة، بل كانت منعطفًا حاسمًا في التاريخ الإسلاميّ، حيث تجسَّدت القِيم العليا في أبهى صورها، حينما وقف الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه الأبرار موقف الثابتين على العهد، رافضين كلّ أشكال الانحراف والاستبداد. كما استعرضنا في هذا الكتاب كيف حاولت بعض الجهات طمس معالم هذه الحقيقة، أو تحريفها على وفق أهوائها، ولكنّ نور الحسين لا يُطفأ، وكلماته لا تموت، ومبادئه تبقى متجذّرة في ضمير كل حرّ.

إنّ رسالتنا من هذا البحث ليست مجرَّد ردّ الشبُهات أو تحليل الروايات، بل هي دعوةٌ لاستلهام الدروس والعِبر من تلك الواقعة الخالدة في مسيرتنا الفكرية والاجتماعية والسياسية. فكما قال الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إني لم أخرج أَشِرًا ولا بطرًا، ولا مفسدًا ولا ظالمًا، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدّي»، فإنّ الإصلاح الذي قدم الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ حياته من أجله يبقى مسؤوليةً يتحملها كل جيل، حتى يتحقَّق العدل الذي خرج لأجله الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ.

نسأل الله أنْ يكون هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأنْ ينفع به كل من يطلب الحقّ، ويسعى لفهم كربلاء بعيدًا عن التشويه والتحريف. ونسأله أنْ يجعلنا من السائرين على درب الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن المنتظرين لفرج صاحب العصر والزمان، الحجّة بن الحسن عجّل الله تعالى فرجه الشريف، الذي سيُكمل ثورة جده الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ويقيم العدل في الأرض بعد أنْ تكون قد مُلئت جورًا وظلمًا.

وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

مهدي الموسوي الجابري
النجف الأشرف
٢٥ شعبان ١٤٤٦هـ
الموافق ٢٤-٢-٢٠٢٥م

تم بحمد الله

المحتويات

مقدمة المركز ٥

مقدمة... ٧

الفصل الأول: البكاء والحزن على الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ.................... ١٧

الفصل الثاني: بكاءُ الملائكةِ على الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ونزولُهم عند قبره..... ٤٠

الفصل الثالث: مصيبة الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ أعظم مصاب في الكون.......... ٥٠

الفصل الرابع: زيارة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وفريضة الحج............... ٥٩

الفصل الخامس: تقبيلُ ضريح الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ والتمسُّح به........ ٦٦

الفصل السادس: زيارةُ الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، بين الحقيقةِ
والتشويهالأُمويّ.. ٩٠

الفصل السابع: السَّواد في عاشوراء............................. ١١٣

الفصل الثامن: كربلاء معركة العقيدة وليست نزاعًا سياسيًا........... ١٢٩

الفصل التاسع: حقيقةُ طاعة وليّ الأمر بين النصّ القرآنيّ
والاستغلالالأُمويّ...................................... ١٥٤

الفصل العاشر: تعدد أدوار الأئمة عليهم السلام امتداد لثورة الحسين عليه السلام ونهجها الإلهي................................ ١٧٧

الفصل الحادي عشر: النساء والأطفال في ركب الحسين عليه السلام شراكة في الثورة وإرث في التحدي................................ ٢٠٠

الفصل الثاني عشر: نهج الإمام الحسين عليه السلام في مواجهة الطُّغيان.... ٢٢٢

الفصل الثالث عشر: عبدُ الله الرضيع الدمُ الطاهر الذي أسقط شرعيّة يزيد................................ ٢٥٢

الفصل الرابع عشر: صمتُ الطاغية وصرخة العقيلة.................. ٢٨٠

صدر للمؤلف

١- دفاع عن الإمام الحسن عليه السلام.

٢- مقالات عقائدية في الرد على شبهات المخالفين.

٣-مفاهيم خلقية في فكر الإمام الحسن عليه السلام.

٤-فتوى هدم قبور أئمة البقيع عليهم السلام.

٥- موسوعة دلائل الحق - أسئلة وردود في العقيدة الإسلامية (١٩ جزء).

٦-خذوا ولاية علي عليه السلام من القرآن.

٧- أهل البيت عليهم السلام في آية التطهير بين دعوى عموم المصطلح وأدلة الإثبات.

٨- مودة أهل البيت عليهم السلام أصل قرآني وفريضة إسلامية.

٩- أثر السنة في بيان الخطاب القرآني.

١٠ - نظرات في آية المباهلة - دراسة عقدية.

١١- الدسائس التاريخية والثقافية في شبهة تسمية أبناء الإمام علي بأسماء الخلفاء وآباء الطلقاء.

١٢- تحقيق كتاب: دفاع عن السنة المحمدية.

١٣- مرشـد السـائلين إلـى فهـم القـرآن الكريـم - أسـئلة وردود قرآنيـة.

١٤- كسـر قيـود الشـك - حـوارات صادمـة مـع الملحديـن تغيـر قناعاتـك.

١٥- تحقيق كتاب: إقامة البرهان في الرد على من أنكر خروج المهدي والدجال ونزول المسيح في آخر الزمان.

١٦- تحقيـق كتـاب: رسـالة الجـواب المقنـع المحـرر فـي الـرد عبى مـن طغـى وتجبـر بدعـوى أنـه عيسـى أو المهـدي المنتظـر.

١٧- إجابـات وافيـة لثلاثـة أسـئلة شـائعة حـول الإمـام المهـدي المنتظـر عليه السلام.

١٨- محاضـراتٌ فـي منهجيّـة التصـدّي للشـبُهات الفكريـة والعقَديـة- أسـسٌ علميّـة لتحليـل الشـبْهة وتفكيكهـا ودحْضهـا.

١٩- وجهًا لوجه مع العلمانية - حوارات في الفكر والقيم.